قطف الجمر

رواية

قطف الجمر

رواية

تأليف :
السعيد الخيز
تصميم الغلاف:
أحمد مراد
مراجعة لغوية:
سيد عثمان

رقم الإيداع: 2017/11665
الترقيم الدولي: 978-977-820-035-5

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلةً القانونية.

قطف الجمر

السعيد الخيز

رواية

إهداء:

إلى ابنتَيَّ حبيبتَيَّ ملاك ولينة..
مع عشقٍ أبديٍّ..

الزمن يسيل عبر الأصابع، يتدفق بين الأيام كشلال هادر ومستمر، تجمع كفك كأنك تستجمع ما تبقى من أطراف الأوقات لتكوِّن منها فترة قابلة للحياة على صدر الأحلام، تقبض على شيء هلامي لا شكل له ولا طبيعة، تسميه القبض على الأمل المتأخر دومًا بسبب سوء الأحوال العاطفية، تداهمك فكرة على حين غرة وتسيطر عليك حتى تعتقد أنها الفكرة الوحيدة في الوجود، ولكنها ليست إلا جزءًا صغيرًا من وعيك بالوجود، خطورة الكلمات تكمن في كونها ذات حمولات متفجرة، كل ضغط على مستوى الجملة قد يؤدي إلى انفجار ذري، فينشطر القلب شظايا دامية تنتشر في نواحي الحياة، أما الحب فيتسرطن مع الزمن وتظهر أعراض ذلك متأخرة بعد سنوات، هكذا يسيل الزمن.

اللوثات التي أصابتني في حياتي وغيرت مجرى الأحداث لوثات عادية، صغيرة، ولكن ككل لوثة كانت معدية وانتشرت في كل نواحي حياتي؛ لوثة الحب، لوثة الأرق، لوثة الكتابة، لوثة الذاكرة المثقلة. الحب صرعني وأرداني قتيلًا، والأرق حرقني فتيلًا مشتعلًا طوال الليل، والكتابة ما زلت أبحث لها عن تشخيص فأعراضها تتشابه مع أعراض الإدمان على الحشيش، أما الذاكرة المثقلة فما زلت أفرغها من الألم وأظل أسامح وأسامح وأحتاج كل طاقة الدنيا لأسامح، وما زلت أحاول ذلك.

أجد نفسي ومعي أشياء كثيرة حولي؛ معي حزني المؤبد

المحكوم برفقتي، معي صداقاتي العميقة حد التطرف، معي حروفي الهوجاء اللعينة؛ معي روحي الناعسة القلقة المتوردة الحضور، معي الهواء المكتظ بصمتي، معي كتبي ولوحاتي، معي فكرة الصحراء والبحث عن ذاتي، من يريدني فليتحمل كوني المثقل بي وبأشيائي العميقات.

لقد حاربت طوال حياتي، منهج العفن، ولكني أشعر بأني كائن متعفن رغم ذلك.

متعفن جدًّا لدرجة قد أشتري في ظرف يومين سيارة «داسيا» ومنزلًا في مدينة شاطئية. وأرهن عمري ديونًا وتتحكم السلطة في حياتي، وأدفع من القادم ثمن الحاضر، ولكني سأبدو متعفنًا برجوازيًّا قديمًا تملؤه الوساوس والعلامات الدالة على الغباء. سأكون نسخة طبق الأصل للمكعبات التي صنعها النظام التعليمي والاستهلاكي، حتى أبنائي سأعلمهم كيف يصبحون استغلاليين ونفعيين وسأوجههم فقط لدراسة الطب أو الهندسة. فقط. وسأبعدهم عن الشعر وما يسمى في طبقتنا المنمطة بالسياسة، كتهمة خطيرة قد تلحق الموظف الحكومي، سأرتدي قميصًا مكويًّا بعناية وربطة مزركشة، وهذا أصل العفن المستشري بين المعلمين مثلي، المعلمون الذين يكرهون الكتاب ويعلمون الحروف فقط، الذين يتشبثون بالمقرر الدراسي كمنهج حياة.

ما دمت أدخل إلى المقاطعة الحضرية ولا أحتج على تأخير الخدمات ولا ألاحظ الميز العنصري بين الناس، ما دمت لا أغضب من تلميذ نسي إنجاز تمارينه المنزلية، ولا أستدعي

ولي أمره، ما دمت أستطيع أن أستمع للنقاش النقابي العقيم للمعلمين في المقهى، وما دمت أملك صبرًا لانتظار الحافلة، وإن لم تحضر أنتظر غيرها وإن حدث وتأخرت أنتظر أيضًا، فأنا متعفن.

انتظرت حتى دق جرس الخروج، جمعت أشيائي المكملة، آه كم تستعبدنا الأشياء.

واضح جدًّا أن الأشياء تتملكنا بقدر ما نملكها، أن تسير دون هاتف ودون ملحقات تواصلية أصبح مبتغًى، غريب كم تتملكنا الإكسسوارات، كلما أردت الخروج من البيت أبحث عن خاتمي الفضي الذي أهداه لي صديقي، الشال الأزرق الصحراوي المهدى من زوجتي، عطري المفضل، حاملة المفاتيح بكل المفاتيح المستعملة منها والتي لا قفل تفتحه، ساعتي اليدوية الثقيلة التي لا تعمل القادمة من سوق الوقت المتوقف، لا يهم أن تعمل فهي ليست وظيفية، أنا اعتدت ارتداءها فقط؛ لأنها تذكرني بصديقي الذي ما زلت متشبثًا به بقدر تشبثي بالساعة، وإلا فالهاتف يكفي ليدلني على الوقت، بل هاتفان؛ واحد ذكي للتواصل الاجتماعي وواحد غبي أستعمله كمنبه وكاحتياطي، المناديل الورقية أيضًا تتشبث بي أضعها في جيبي أتوماتيكيًّا، فأنت لا تدري متى تدخل مرحاضًا عموميًّا تحتاجها فيه، كيلو جرامين من الأشياء المتعلقة بك، لا تدع لك فرصة لتسير وحدك بل أصبحت جزءًا منك تشعر بفقدانه أنك فقدت عضوًا من أعضاء جسمك، الأشياء تتملكنا وتستعبدنا، هواتفنا حواسيبنا وحتى مناديلنا الورقية. الآلة والاستهلاك وقوة

الإشـهار والمناعـة الفكريـة البئيسـة والإرادة الضعيفـة تجعلنـا عبيـدًا للجمـادات.. غريـب..

جمعـت أشـيائي وانطلقـت مسرعًـا مـن المدرسـة عـلى دراجـتي الهوائيـة، كان الوقـت مسـاءً، كنـت أسـابق الريـح، تغمـرني مشـاعر مختلطـة بـين الغبطـة والحـزن والفـرح والخـوف وشيء مـن الارتبـاك، أسـابق الريـح بأقـصى سرعـة بهـذه الدراجـة القديمـة، أردت أن أطـير بهـا، شـعرت بتصلـب في عضـلات سـاقيَّ عـلى الخصـوص، بسـبب نـزول مقعـد الدراجـة إلى أدنى مسـتوى لأسـباب ميكانيكيـة، لا يهـم ذلـك، كل منعرجـات المدينـة مـررت منهـا بسلاسـة وبسرعـة كلاعـب كـرة قـدم يـراوغ دون أن يمـرر الكـرة لأي لاعـب، ولأني أحفـظ في ذاكـرتي كل دروب المدينـة ومسـالكها المختـصرة فقـد كنـت مثـل سـمكة أسـبح في طرقاتهـا، والمدينـة مـن عادتهـا كلمـا رأتـني في حالـة كهـذه تيـسِّر لي أمـر المـرور، والأسـوار كذلـك تفتـح أبوابًـا جديـدة غـير الأبـواب التاريخيـة القديمـة، يُفتـح بـابٌ هنـا وبـابٌ هنـاك، أمـرُّ مـن الأول فيظهـر لي البـاب الثـاني مسـتعدًا لاسـتقبالي، كل الطـرق متعاونـة، حـتى الأحجـار تتحـاشى التعـثر بي، والحفـر تتجنبـني، والـبرك تتحاشـاني، وأنـا منطلـق سـعيد بتعـاون الأشـياء معـي، بتعـاون الأمكنـة، الطـرق، الأسـوار، الأبـواب القديمـة، القصبات الطينيـة، ملتقـى الطـرق المـؤدي إلى المستشـفى فـارغ أو ربمـا تعـاون معـي شرطـي المـرور، إن كان هـذا مـا حـدث فعـلًا فهـذه أول مـرة تتعـاون فيهـا السـلطة معـي منـذ ولادتي.

ولادتي لا أتذكرهـا، لا أتذكـر حـين كنـت حيوانًّـا مجهريًّـا ينسـاب بـين المسـالك، هنـاك ربمـا تعلمـت المراوغـة كمـا أفعـل الآن،

فأصلي حيوان له ذيل ورأس يجري نحو بويضة شهية، وأنا كذلك اليوم أجري وكلي أذيال.

مستشفى بول شاتينير PAUL CHATINIERE الرجل العسكري الفرنسي الذي خلع لباس العسكر وانخرط في العمل الإنساني كطبيب، حارب داء التيفود في مدينة تارودانت* التي رفض مغادرتها، فأصيب بالعدوى وتوفي سنة ١٩٢٨، ومازال قبره شاهدًا عليه، كذلك متحف المستشفى. مع مرور الوقت اكتسب هذا الرجل احترام المدينة كلها، سأحترمه أنا أيضًا، سأحترم أنه بقي يعالج مرضى المدينة من الفقراء والمساكين، ولم يغادر إلى بلده، سأحترم أيضًا أنه ترك العمل العسكري كطبيب عسكري رافق المستعمرين، وانخرط في العمل المدني كطبيب، سأحترمه الآن أكثر لأن هناك ستلد زوجتي طفلنا الأول.

تركت دراجتي عند حارس الدراجات، أخذت عنها تذكرة صغيرة ورميتها في جيب سترتي بعدما أوصيت الحارس بالعناية بها ريثما أقضي لنفسي غرضًا بالمستشفى، ورغم التوصية وضعت قفلًا حديديًّا كاحتياط، وقلت في خشوع: «أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه». هنا فقط شعرت بالاطمئنان على دراجتي التي تصدر أكثر من صوت وأنا أسير عليها. لن أحكي الآن قصة دراجتي وعلاقتي بها، ولا حجم المسافات التي قطعتها بين البيت والمدرسة وسوق الخضر

---

* مدينة تاريخية بجنوب المغرب.

والدواجـن وعـدد الأشـياء الـتي يمكنـني حملهـا عليهـا، في تارودانـت حـتى لـو كنـت تملـك سـيارة سـتلزمك دراجـة، وهـذا مـا يكتشـفه الوافـدون عندمـا يقضـون شـهورًا بهـا، في البدايـة يتعجبـون مـن عـدد الدراجـات الـتي تجـول المدينـة والازدحـام الـذي تسـببه ولكـن مـع مـرور الوقـت يشـترون لأنفسـهم دراجـات وينخرطـون في الزحـام.

ليـس لـدي وقـت طويـل لأسرد تاريـخ الدراجـات في المدينـة، فهنـاك مـن ينتظـرني.

مـن البـاب الكبـير انزلقـت إلى داخـل المستشـفى، حديقتـه أنيقـة، بناياتـه مـن زمـن «بـول شـاتينيير»، المستشـفى مـكان المـرض والألـم والوجـع والشـفاء، ألـوان مختلفـة للـوزرات حسـب وظيفـة كل شـخص، لكـن هنـاك بعـض عامـلات النظافـة وحـراس الأمـن يتشـبهن بالممرضـات في لباسـهن وكلامهـن؛ حيـث يحفظـون بعـض الجمـل الفرنسـية ليوهمـوا النـاس البسـطاء بأنهـن ممرضـات، ومـن ثـم الحصـول منهـم عـلى رشـوة مقابـل قضـاء أمـور وهميـة أو حـتى مقابـل الحصـول عـلى معلومـات عـن ملـف مريـض مـن معارفهـم، مـررت أمـام قسـم الجراحـة ومنـه إلى قسـم الـولادة، رائحـة المستشـفى كانـت دائمًـا تصيبـني بالغثيـان ولكنهـا اليـوم لـم تفعـل، لافتـات كثـيرة داخـل المستشـفى تقـول «لا للرشـوة» «الـولادة بالمجـان»، «الأدويـة متوفـرة داخـل المستشـفى» ولكنهـا تـؤدي دورهـا المعكـوس وكأنهـا تذكـر المـرضى بوجـوب إعطـاء رشـوة.

وأنـا أقـترب مـن مركـز الـولادة، أسـمع أصواتًـا لـم أتبينهـا

بدايـة، ولمـا اقتربـت أكـثر مـيزت أصواتًـا نسـائية، صراخ وعويـل مؤلـم، نحيـب ونشـيج مهـول، ذوات تتألـم وتـصرخ لتعطـي الحيـاة، وأول مـا يقولـه الإنسـان وهـو يسـمع صراخ المخـاض هـو: الله يسـمح لينـا مـن الوالديـن.

أصخـت سـمعي جيـدًا كي أمـيز صـوت زوجـتي لكنـني لـم أسـتطع ذلـك، فلـم أسـمعها قبـل اليـوم تـصرخ مـن شـدة الألـم.

كنـت أتصبـب عرقًـا، سـقطت سـترتي عـن كتفي، نسـيت طرفًـا مـن سروالي داخـل جـوربي، أدخلتـه هنـاك كي لا يتسـخ بدواسـة الدراجـة أو بشـحم سلسـلة الدفـع. حـذائي المغـبر لا لـون لـه.

عنـد دخـولي مـن البـاب الرئيـسي لقسـم الـولادة تذكـرت أني ولـدت هنـا في نفـس المـكان كمـا تقـول أمـي، وكانـت المولـدة هـي الأخـت الفرنسـية، ينادونهـا ماسـور MA SOEUR وهـي مـن الكنيسـة الكاثوليكيـة بتارودانـت، هـذه الراهبـة الفرنسـية الـتي كرسـت نفسـها لخدمـة الأمهـات بالمستشـفى، تقـول أمـي إنهـا انبهـرت بـوزني الكبـير ولـوني الأشـقر، وأنهـا فهمـت مـن حركاتهـا أنهـا سـتسرقني لأني أشـقر مثـل أولاد بلدهـا، فخافـت أن يتـم اسـتبدالي بطفـل آخـر لذلـك لـم تسـمح لهـم بأخـذي مـن حضنهـا.

مـا زالـت رائحـة المستشـفى تداعـب أنفـي، رائحـة الـدواء الأحمـر المشـهور، رائحـة مـواد التنظيـف، روائـح الحليـب، العطـور القويـة للممرضـات الأنيقـات, هـل يمكـن أن تعلـق هـذه الروائـح منـذ الشـهور الأولى لحيـاة الفـرد فـلا تـبرح ذاكرتـه

أم أنـه الحنـين الـذي يبالـغ في الاحتفـاظ بـكل شيء واسـتجلابه لحظـة التعمـق في حـوار سري مـع الـذات، عـلى عتبـة قسـم الـولادة، أنـت لا ترغـب تمامًـا في التذكـر خصوصًـا إذا كنـت في حالـة ارتبـاك كهـذه تعيـش في ذهنـك سـيناريوهات كثـيرة عـن حالـة زوجتـك الصحيـة، عـن مسـتوى العنايـة بداخـل المستشـفى، عـن معاملـة الطبيـب والمولـدات لهـا.

ألـم الـولادة يسـاوي ألـم كـسر مفتـوح مـضروب في عـشرة، عـلى سـلم الألـم إذن ترتقـي الأم لتكـون رفيقتنـا ثـلاث مـرات عـلى سـلم الحـب.

صراخ حـاد يـزداد قـوة وقـوة، ثـم يتوقـف فجـأة ليبـدأ بعـده صراخ الوليـد الـذي يشـبه صـوت آلـة موسـيقى الحيـاة، تسـكت الوالـدة ليـصرخ المولـود، أحـاول أن أنصـت لعـلي أمـيز صـوت زوجـتي دون جـدوى، لا أسـمعها أبـدًا، خرجـتْ إحـدى الممرضـات مـن غرفـة الـولادة فهرولـت نحوهـا أسـألها عـن زوجـتي، لـم تبتسـم، لـم تضحـك، لـم تبـك، لـم تغضـب، كأنهـا كائـن بلاسـتيكي مـن صنـع صينـي، أتمـنى فقـط أن تتكلـم، أن يكـون نظامهـا الصـوتي بخـير وأن تخـبرني عـن حـال زوجـتي، أنظـر إليهـا كأني أتوسـلها، أتمـنى فقـط أن تنبـس بكلمـة، أنتبـه أيضًـا إلى أنهـا قـد تشـير بيدهـا تعبـيرًا عـن طمعهـا في رشـوة، آه لـو فعلـت سـأكون عندهـا في موقـف لا أحسـد عليـه، أنـا الـذي أقسـمت علنـا أمـام تلامـذتي ألا أعطـي رشـوة في حيـاتي، حـتى أني ورطتهـم في قسـم جماعـي وربـاط أخـلاقي ألا يقدمـوا في حياتهـم عـلى تقديـم أو تلقـي رشـاوى، كيـف سـأبدو أمـام تلامـذتي وأمـام نفـسي، صحيـح لـن يـراني أحـد ولـن أخـبر أحـدًا،

ولكـن سـأكون بذلـك قـد خنـت عهـدي وخنـت جيـلًا كامـلًا مـن الأطفـال، ويكـون ابـني أو ابنـتي قـد ولـد وفي فمـه ملعقـة مـن رشـوة.

أتمـنى أن تتكلـم الممرضـة وأن تقـول فقـط مـا أريـد سـماعه منهـا، أن تخـبرني أن زوجـتي بخـير، أعـرف أنهـا لـم تلـد بعـد وأنهـا تتألـم بشـدة، نظـرت إلى عيـون الممرضـة في ضعـف متسـولًا الأخبـار، ومازالـت صامتـة تنظـر إليَّ كلعبـة بلاسـتيكية، عريضـة الكتفـين، قويـة وطويلـة القامـة، ترتـدي تنـورة بيضـاء عـلى لبـاس أزرق موحـد عـلى صعيـد المستشـفى، جميـع المولـدات أكتافهـن عريضـة بسـبب طبيعـة عملهـن اليـدوي في دفـع الأجنـة ومسـاعدة الأمهـات في الحركـة بعـد الـولادة.

أتمنى أن تتكلم، أن تقول شيئًا.

نفضني الارتباك والخوف ولجلجت قائلًا:

- هل زوجتي بخير؟

- ما اسم زوجتك؟

- فاطمة، اسمها فاطمة.

- ليس بعد.

بـدت لي عيناهـا كالزبـانى، يتطايـر منهمـا شرر الضيـق والتأفـف مـني، ربمـا مظهـري لا يسـاعد، لحيـتي غـير المنظمـة شـوكية الملمـس، تناثـرت عليهـا شـعيرات الشـيب الأبيـض، الرمـادي، وخليـط ممـا بينهمـا مـن درجـات، هـل كان الأمـر سـيتغير لـو كنـت شـابًّا وسـيمًا، حليـق الوجـه، معطـرًا، مهندمًـا بأناقـة؟

هـل كـون حـذائي (الـذي اشـتريته العـام المـاضي فقـط، والـذي أصلحتـه عنـد الإسـكافي بدايـة هـذه السـنة) رمـادي اللـون أيضًـا هـو السـبب؟ ومـا ذنـبي إن كانـت الطريـق إلى المدرسـة مغـبرة وتربـة، لعنـة هـي هـذا الرمـادي.

رائحـتي أيضًـا تدعـو للتقـزز، فقـد قطعـت مسـافة لا يسـتهان بهـا بواسـطة دراجـتي، تعرضـت خلالهـا لشـمس تارودانـت الحارقـة المحرقـة والعـرق يتصبـب مـن كل مناطـق جسـدي، ينسـاب عـبر عمـودي الفقـري إلى أسـفل الظهـر، هنـاك يسـتقر فحزامـي دائمـا مشـدود بقـوة عـلى عظامـي ولا يسـمح لـه بالإنسـياب ليصـل إلى أسـفل كما هـم أولاد اليـوم الذيـن تظهـر مؤخراتهـم فـوق الحـزام، وترتفـع ملابسـهم الداخليـة الملونـة إلى أعـلى، كان جمـال الرجـل يرتكـز عـلى عـرض أكتافـه ومنكبيـه وسـاعديه المعرورقـين، وصـدره الخشـن وأطرافـه المليئـة القوية واليـوم أصبـح الشـاب يظهـر فلقـتي مؤخرتـه مـن لبـاس داخـلي مزركـش بألـوان قـوس قـزح، ربمـا معايير الحضـور تغـيرت ولكني لا أقبلهـا أبـدًا، كيـف أتـرك سروالي يـنزل وتـنزل معـه القيـم، كيـف أسـمح لمؤخـرتي بالظهـور للعلـن عـبر مايـوه أصفـر بحـزام مكتـوب عليـه كلمـة رجـل MEN، أنـا رجـل ولا أحتـاج لشـعار عـلى سروالي الداخـلي، أصبحـت الأنوثـة والذكـورة تجتمعـان في نقطـة وسـط بينهمـا، لعـل مطالـب المـرأة بالمسـاواة جعلـت جنسًـا جديـدًا مـن البـشر يظهـر عـلى سـطح الأرض، في منتصـف الذكـورة ومنتصـف الأنوثـة، فتجـد الشـاب يحتفـل بمؤخرتـه ورقتـه وشـعره المصبـوغ والملولـب والمقصـوص بدقـة متناهية، وقـد يعمـد لأدوات التجميـل ويضـع عـلى وجهـه بعضًـا مـن

البـودرة لتغطيـة حـب الشـباب. فأصبـح الرجـل في رقـة سـنبلة والمـرأة بخروجهـا للعمـل أصبحـت في خشـونة الرجـل، وقـد تُغـرم امـرأة قويـة بشـاب جميـل فتخطبـه لنفسـها.

كنـا نمقـت مـن يـترك سروالـه مهمـلًا وسـاقطًا إلى أسـفل الظهـر، والآن نمقـت مـن يرفعـه إلى أعـلى ونصنفـه في سـتينيات القـرن المـاضي وننعتـه بفريـد شـوقي زمانـه؛ لأن فريـد شـوقي يرفعـه حـتى يلامـس صـدره رغـم أنـه يـترك أكياسـه الحيويـة تلاعـب فخذيـه حـتى أصبـح العالـم العـربي كلـه يعـرف خصيـتي فريـد شـوقي أكـثر ممـا يعـرف جمـال عبـد النـاصر، وحـين نرتـدي سروالًا نرمـي عليـه القميـص الطويـل لمزيـد مـن الاحتيـاط، هـل أصبحـت الملابـس الداخليـة الرجاليـة بتلـك الجماليـة الـتي تجعـل مـن عرضهـا ضرورة فنيـة وصيغـة حيـاة؟ ألهـذا السـبب كانـت كل الملابـس الداخليـة بيضـاء قطنيـة؛ لأنهـا لـم تكـن تـؤدي إلا وظيفـة الحمايـة؟ أم أن المنافسـة الشرسـة بـين جمـال النسـاء ووسـامة الرجـال تدعـو لاسـتخدام كل وسـائل الإغـراء الممكنـة؟

هـا نحـن إذن أمـام المسـاواة بـين الجنسـين، أتذكـر الآن تلـك العاهـرة الـتي تشـتكي مـن منافسـة الشـباب لهـا في اسـتقطاب الزبائـن، وهـا نحـن أمـام أوضـاع اجتماعيـة وجنسـية غريبـة عـن الطبيعـة قريبـة مـن الفلسـفة، هـا هـي الأذواق تتحـور وتسـير نحـو جعـل القواعـد الشـاذة والنـادرة في مركـز الاهتمـام وفي بـؤرة الحضـور.

لا يهـم ذلـك، كل مـا يهـم هـو جـواب الممرضـة الـذي أتـاني

كـبرودة الحمـى.

قالت فقط:

- ليس بعد.

هـل هـذا معنـاه أنهـا تريـد رشـوة؟ لـم لا أقـدم لهـا المئـة درهـم؟ أدسـها في يدهـا خفيـة عـن الحاضريـن، عـن الآبـاء المنتظريـن مثـلي، خفيـة عـن نفـسي فأنـا لا أريـد أن أرى نفـسي أدسُّ رشـوة في يـد ممرضـة أو أي موظـف عمومـي غيرهـا.

لا لا، يسـتحيل أن أفعـل ذلـك، كيـف سـأبدو وأنـا أقـدم للتلاميـذ درس نبـذ الرشـوة؟ وبـأي لسـان سـأقول لهـم: لعـن الله الـراشي والمرتـشي والرائـش، سـأبدو قزمًـا وأنـا أتقيـأ عليهـم مـا سـطر في المقـرر الـدراسي، يسـتحيل أن أعطيهـا درهمًـا واحـدًا، لا أحـب أن أناقـض نفـسي أكـثر.

بالإضافـة إلى ذلـك كيـف سـيكون موقفـي مع ابـني أو ابنـتي وأنا أوصيـه وأعلمـه الأخـلاق وأكـرّه إليـه الرشـوة؟ كيـف سأسـتقبله في هـذا العالـم منـذ أول يـوم؟ كيـف أجعـل ولـدي يتنفـس رشـوة وهـو لـم يتنفـس هـواء بعـد؟ قـررت إذن ألا أسـتجيب لنظـرات الممرضـة وألا أؤوِّل كلامهـا عـلى أنـه طلـب رشـوة.

سـألتها مـرة أخـرى في محاولـة للحصـول عـلى معلومـة حـول زوجـتي فقلـت لهـا:

- ومتى ستلد؟

- ليـس بعـد يـا أسـتاذ، هـي تدفـع طفلهـا وتحـاول إخراجـه، فقـط تحتـاج دعـاءك لهـا.

قالت ذلك وقد أبدت صبرًا طويلًا معي.

- يا رب.

كلمتها طمأنتني من جهة، وشوشتني من جهة أخرى، فأنا أزلت عن ذهني فكرة الرشوة المقيتة، ولكني ارتعبت من وضع زوجتي الصحي، جميع الأمهات يدفعن ليخرجن الجنين للوجود، يخرجنه ليفكر بعد ذلك لم هو موجود.

البيت الذي يعرف ميلاد طفل يعرف تغييرًا لمعنى جميع الأشياء التي يحتويها، قالها الفيلسوف ميرلو بونتي، قرأتها قبل اليوم بسنوات ولكني لم أعرف معناها أبدًا، ها أنا أندهش كما لم أندهش من قبل، ها أنا بين السماء والأرض أعدو كالفرِح، ما أروعني بك، ما أجملني بك، قشعريرة تسري في جسدي وأنا أتغير وأعرف تغييرًا لمعنى جميع الأشياء التي تسكنني، تتذرَّى أحزاني وتذهب مع الريح، وأنسى أني كنت يومًا أبحث عن معنى وجودي، ها أنا أنظر إليها في لباسها الأبيض المطرز في كل حواشيه بالخيوط الوردية الناعمة، بوجنتين مليئتين وشعر أسود فاحم، وعينين ... عينان كبحر.

ها أنا أمسكها بين يدي، ملاك صغير، سيغير معنى كل الأشياء الماضية، دفء الأبوة يغمرني لا يسعني المستشفى ولا المدينة لأعبر عن فرحي، عن اندهاشي بكائن صغير جدًّا في ملحفة بيضاء، يحرك فمه رغبة في قطرات الحليب من المرضعة، هذا الكائن سيغير حياتي، سيمحو كل جراحات الأيام ويزيل ندوب السقطات القديمة والقادمة، ها أنا أستعد للفرح الأبدي.

ملاك...

مـلاك رنـين موسـيقى مـن جوقـة العسـل، مـلاك سـيدةِ نسـائي، وملحمـة العشـق الأزلي، لذلـك سـميتها مـلاك فقـد كان حضورهـا الأبيـض ملائكيًّـا، فـلا يمكـن أن نختـار لهـا اسـمًا آخـر لا يرتبـط بالنـور والجمـال والخـير.

أقبلـت عـليَّ الممرضـة تبتسـم، وطلبـت مـني الرحيـل؛ لأن وقـت الزيـارة انتهـى وعليهـا أن ترضـع المـلاك.

خرجـت مـن المستشـفى لا أدري أيـن أرحـل بقلـبي المغمـور في بحـر الاندهـاش، هـا هـي ابنـتي، إنهـا مـن لحمـي ودمـي وقطعة مـني، كيـد أو كرجـل، بـل هـي كقلـب ينبـض، مـضى اليـوم بـين السـير في طرقـات المدينـة ومحـال بيـع لـوازم الأطفـال، مـلأت البيـت بالحفاظـات والشراشـف الورديـة، مهـد صغـير ليهدهدهـا ومهـد أكـبر منـه بقليـل، فالأطفـال يكـبرون بسرعـة، نظفـت البيـت الصغـير ودفعـت سريـر غرفـة النـوم إلى جانـب الجـدار، كي يـترك فراغًـا للمهـد، للضيـف الجديـد.

فـوق القلـب آيـة فـرح، تحـت القلـب أغنيـة راقصـة، داخـل القلـب أنـت وحكاياتـك الـتي تصـدح برنـين الابتسـامات، لسـت شـهرزاد أبـدًا أنـت تـلال جبـال الأطلـس، لسـتِ هنـا لتحـكي فقـط ولا لتغـني فقـط، أنـت داخـل نسـيجي الوجـودي لتكـوني، لأعشـقك حـد المـرح الطفـولي..

البيـت الـذي يعـرف ميـلاد طفـل يشـهد تغيـيرًا في معـنى جميـع الأشـياء الـتي يحتويهـا، لا أدري إن رُزق ميرلـو بونـتي بطفـل حـين قـال ذلـك، أم أن تأملاتـه بلغـت درجـة مـن الأبـوة، مـا الأبـوة

إلا لحن يعزف من الداخل تجاه كائن ملائكي، حنان وكتلة ضخمة من الحب غير المشروط، ها أنا أعشق كما لم أفعل من قبل، ها أنا أسقط صريع أنثى بعينين عسليتين وشعر أسود فاحم، هل من العشاق من يستطيع أن ينافسني في دنيا التجلي الحر لحبيبة في صورة رضيعة، لا أجزم بقدرة بطل على مرِّ التاريخ على استكناه جمالي وأنا أنفض عن بيتي المعاني القديمة، وأؤثثه بمعان جديدة، طلاء وردي لغرفه ولغرفي الداخلية، أي ضوء يسكنني، ما هذه المصابيح المزينة برسوم الحيوانات والحشرات، دعسوقة حمراء منقطة بالأصفر لا بالأسود، حواشي المهد أزهار بنفسجية ناتئة ترفرف فوقها نحلة من عالم الرسوم المتحركة.

ستبقى زوجتي في المستشفى ثلاثة أيام، ستكون بخير كما أكد الطبيب، سيكون لي الوقت الكافي لأكتب، لأمارس طقسي الغريب سأحكي قصتي لأنتهي منها، لأبدأ الحياة الجديدة مع المعاني الجديدة التي سيحملها قاموس ابنتي الطفولي، عليَّ أن أكتب، أن أنتهي مني لأبدأ من جديد.

البيت الذي يعرف ميلاد طفل يشهد تغييرًا في معنى جميع الأشياء التي يحتويها، سأجعل إذن حكايتي وحكاية جيل كامل بين دفتي دفتر اشتريته اليوم لأبثه الأشياء البسيطة والمعقدة التي مررت منها أو التي مرت بي، لم تعد القصائد القديمة تسعني، بل لم أعد أهتدي بالشعر عن ضالتي الوجودية، الحكاية وحدها قادرة على احتضاني واحتضان ما تخزنه ذاكرتي وعيناي وصمتي، فلأقل إذن كل ما لم أستطع قوله في سطور المجاز الشعري.

أنا الذي قلت يومًا أجمل ما في الحياة قلب طفل وصدر امرأة، ولم أكن أتصور أن يكون قلب الطفل بحجم عالم. تمامًا، أجمل ما في الحياة قلب طفل وصدر امرأة، الأول يذكرك بنقاء الوجود الإنساني يقول لك ها أنت قبل أن تلوثك الحياة وتصبح حفرة شهوات. والثاني يمنحك مجال الهروب من تعب العيش، من ينكر أن صدر المرأة كان ملاذنا وفيه دفء النمو وحليب نخاع عظامنا؟! من ينكر أن القلق والموت والتعب والهوان والضعف والمرض يخف في حضرة أنثى؟!

المرأة التي لا ندرك حجم حضورها، لا ننتبه كثيرًا للتفاصيل التي تصنع بها حياتنا دون كلام، غالبًا تهدر النساء الكثير من الوقت على التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه لها الرجال، فالموضة عندهن تقف عند خطوط معينة وتطريزات متغيرة مع كل فصل، أحذية بمقاسات مختلفة، والمطبخ لا يعتمد على اللحم والخضر والفواكه، بل على تشكيلة متنوعة من البهارات والمنكهات، كثيرة جدًّا تلك التفاصيل التي تفعلها النساء من أجل العالم. لا يكفي أن تشتري مائدة خشبية ثقيلة، فستحتاج حتمًا لتلك المناديل المطرزة على طريقة «الحساب» المعتمد على المربعات والخطوط الدقيقة، وأشياء أخرى بسيطة لن نستطيع الإمساك بها مهما انتبهنا، دون وداع، دون عتاب دون ابتسامات.

أيها الصباح الجميل قل لزوجتي وهي في المستشفى:

صبـاح الشـفاء، صبـاح الخـير.

قـل لهـا: صباحـك ريحـان، تعجبت دومًا كيف تسـتقيم مسـاند الصالـون هكـذا منتظمـة، فـإذا بي أشـم رائحـة راحتيـك عليهـا، ولمسـتك الضروريـة لـكل ديكـورات البيـت، الكعـك والعصائـر، والأسرار الأخـرى لمطبخـك الأمازيغـي، خيـوط الزعفران وتشـكيلة التوابـل الطبيعيـة، كل شيء قابـل لأن يتحـول بـين أصابعـك لحلـوى عيـد ميـلاد تفضلـين صنعهـا منزليًّـا وحـتى روايـات عبـير وأرلـوكان التافهـة أصبحـت تعجبـني؛ لأنـك تحملينهـا بـين يديـك كل فـراغ، والمسلسـلات التركيـة الماراطونيـة وأبطالهـا البكائـين، أصبحـتُ أستسـيغها وأتقبلهـا دون عـسر هضـم. إصرارك عـلى قـراءة سـورة ياسـين كل جمعـة جماعـة وإصرارك عـلى اسـتقبال أصدقـائي بالبيـت بـدل المقهـى، كل هـذا وأشـياء أخـرى صغـيرة تجعلـك أمـيرتي.

هـا أنـا وحـدي بالبيـت، أتأمـل الحيـاة، حيـاتي فقـط، عمـري سـتٌّ وثلاثـون سـنة، وطفلـة صغـيرة، فتحـت دولابًـا في غرفـة صغـيرة خصصتهـا لتكـون مكتبًـا لي، أصحـح فيـه الدفاتـر وأعـد فيـه جـذاذات الـدروس، فتحتـه بصعوبـة لأني لـم أصلحـه بعـد شرائـه مـن سـوق المهمـلات، أو لنقـل الأشـياء المسـتعملة، أخـذت منـه مخطوطًـا قديمًـا لمحاولـة لي في الروايـة، كتبتـه قبـل زواجـي في محاولـة للملمـة شـتات أفـكاري والبحـث عـن منفـذ جديـد للحيـاة بعـد أن فشـلت في إقنـاع نفـسي بجدواهـا، كتبـت كمـا يكتـب الـرواة، ولكـني اليـوم أقرؤهـا كمـا يقـرأ المثخنـون بالحنـين، كل سـطر يـنزف حروفًـا مـن زمـن مدجـج بالحرمـان، مخطـوط روايـة ضمنتهـا سـبل الحيـاة كي ألخـص فيهـا جـدوى

الحضـور في عالـم لا يسـتحق إلا لعنـة الغيـاب.

لا أسـتطيع أن أكتـب شـيئًا، كنـت قـد خططـت محاولـة قديمة في الروايـة، فلأعـد إليهـا الآن، أخـذت دفـترًا أرجوانيًّـا عـلى غلافـه رسـوم تخطيطيـة لأسـوار عتيقـة، ونخلـة وصومعـة بعيـدة. وكان طقسًـا جنونيًّـا أن أقـرأ لنفـسي كأني لـم أكتـب يومًـا، أن أدعـي أني لسـت حامـلَ جمـلٍ قديمـة ومحملهـا بالمعـنى، في قداسـة محـراب الوحـدة أشـم دفـتري وأقـرأ بصـوت عميـق لا يسـمع.

وأقرأ

-١-

عـاد أيـور مـن الثانويـة الـتي بـدأت تعـرف اضطرابـات كثـيرة بـين الإدارة والتلاميـذ، مظاهـرات في كل صبيحـة، وبقـي في الغرفـة طـوال المسـاء، إلى أن عـاد أسـامة مـن الجامعـة. لـم يكـن غيرهمـا بالبيـت، فياسـين ذهـب للقريـة لحضـور عـزاء عمـه وأيمـن سـيقضي الليلـة عنـد أصدقائـه. خـرج لتنـاول العشـاء في مطعـم شـعبي للشـطائر، اعترضـه منظـر شـابة تغمـزه مـن وراء بـاب بيتهـا في درب الأندلـس، مـر كأنـه لـم يلمحهـا، زبيـدة لـم تكـن شـابة بـل زوجـة مهاجـر مغـربي، وكثـيرًا مـا ترميـه بغمزاتهـا كلمـا مـر أمـام البابـ كانـت تثـيره وتعلـق بخيالـه كلمـا فعلـت ذلـك، يحتفـظ بصوتهـا وحركاتهـا في ذاكرتـه ولكنـه لا يجـرؤ عـلى أكـثر مـن ذلـك.

حـين دخـل سـمع صـوت أسـامة بالغرفـة، فهـو لـم يغادرهـا أصـلًا، فجلـس إلى جـواره بعـد أن لاحـظ أنـه دخـل في حالـة انتشـاء بالشيشـة الـتي يغرغـر ماؤهـا أمامـه.

- «أنـت لا يمكنـك أن تفهـم مـا يحـدث لأنـك لا تعيشـه، لا تستشـعره، ولا تريـد أن تعيشـه ولا أن تشـعر بـه، أنـت لا تحـب مـا أشـعر بـه، وتكـره أن أشـعر بـه، ومـا يمنعـك مـن كرهـي هـو مـا بيننـا مـن تاريـخ وجغرافيـا، ولأني لا أسـتحق أن تكرهـني، ولأن حريـتي لا تمـس حريتـك، فقـد تلتصـق بـك رائحـتي وأنـا أسـلم عليـك، وأنـا أعانقـك، لكنـك لـن تتحمـل وزري، أنـا أتحمـل كل

مسـؤولياتي.

حـين أتيـت للعيـش معنـا، أنـت وياسـين، كنـا ننظـر إليـك بتوجـس كبـير، صمتـك وسرحانك شـكَّل لي حاجـزًا إسـمنتيًّا منعني مـن التواصـل معـك، وحـتى مـن الابتسـام في وجهـك، ولكـني لـم أكرهـك يومًـا، أنـا منشـغل بنفـسي، وبملابـسي وبجسـدي وبعلاقـاتي، أنـا لا أرغـم أحـدًا عـلى شيء، كلٌّ يفعـل مـا يريـد، كلٌّ يتـصرف كما يمليـه عليـه عقلـه وقلبـه، وقـد يتـصرف دون أن يمـلي عليـه لا عقلـه ولا قلبـه، يتـصرف هكـذا فقـط، دون تفكـير في تصرفاتـه، هكـذا أنـا في أغلـب الأحيـان.

أنـا لا أفعـل شـيئًا سـيئًا، لا أؤذي أحـدًا، والأهـم أني لا أبيـع نفـسي كمـا تعتقـد أنـت، أو يمكـن أن تعتقـد،لا أحـد يلمسـني، رأسـمالي هـو كلامـي.

ولا أحـد يملـك الحـق في مصـادرة كلامـي، تعتقـد أن الفقـر عقـدتي؟ الأمـر ليـس كذلـك، الفقـر ليـس عقـدتي.

أنا أجد متعتي في ذلك،

هـم يحبـون مرافقتي، يجدون في وسـامتي وفي شـبابي وسـامتهم وشـبابهم المفقـود، ولكـن لا يهمـني ذلـك أبـدًا، مـا يهمـني هـو أن أكـون كمـا أريـد، أن أعيـش»

كان أيـور ينصـت ولكنـه لـم يفهـم شـيئًا، أو أنـه لا يسـتطيع أن يصـدق مـا يسـمع، أحيانًـا يرفـض العقـل تصديـق الأشـياء الواقعيـة، ويحـاول تجنبهـا عـبر اللافهـم، اللافهـم والضبابيـة تمنـع عنـا الصدمـات والكـوارث العاطفيـة.

يحـرك أيـور رأسـه بالإيجـاب وكأنـه موافـق، في دواخلـه اشـتعلت نـيران الرغبـة العميقـة في فهـم حيـاة أسـامة، لـم يقـل ذلـك؟ لـمَ يهتـم بمظهـره بـإسراف؟ لـمَ يشـتري ملابـس كثـيرة عـلى الموضـة وينسـقها عـلى حاسـوبه قبـل ارتدائهـا كأنـه ممثـل هوليـودي؟ في أي عالـم يعيـش أسـامة ومـا سر رفاهيتـه؟ ولـمَ يـصر عـلى أنـه لا يبيـع نفسـه؟

أيـور يعتقـد دومًـا أن صديقـه يعـاني خطبًـا مـا، وأن حبـه للحديـث إليـه نابـع مـن ثقتـه بـأن أيـور بعيـد جـدًّا عمـا يـدور في خلـد أسـامة، وهـذا مـا يحـدث غالبًـا مـع بعـض الأشـخاص، فالإنسـان يفضـل فضـح أسراره أمـام الغربـاء؛ لأنهـم عابـرون ولـن يعـودوا ليذكِّـروك بهـا، ولـن يفضحـوك أمـام النـاس، والأهـم لـن يفضحـوك أمـام نفسـك، كذلـك كانـت علاقـة أسـامة بأيـور.

يمـلأ أسـامة الشيشـة، وينفـث الدخـان في الهـواء، ويعتـذر كل مـرة مـن أيـور احترامًـا لـه ويحـكي...

يتحـدث دون روابـط منطقيـة، يقـول كل شيء بـلا وعـي، بـلا فرامـل، ولكنـه غامـض كدخانـه، صـوت النارجيلـة وهـو ينفـخ فيهـا كصـوت أعماقـه، غرغـرة روح وهذيـان جسـد.

أيـور كعادتـه يحسـن فـن الإنصـات، يسـتمع فقـط، وقـد ينفعـل ولكنـه ينفعـل إلى داخلـه، وهـذا يبـدو مـن حـركات عينيـه، رموشـه تتحـرك بثقـل وكأنـه يرفـع سـتارة ضخمـة، عيناه واسـعتان ولذلـك يبـدو كالنعسـان وهـو مسـتيقظ، وهـذا مـا يمنـح الآخريـن ثقـة منـذ اللقـاء الأول بـه.

«أنـا لا أبيـع نفـسي، أنـا أشـتري نفـسي، هـم يملكـون المـال والنفـوذ وأنـا أملـك الشـباب والحيويـة والابتسـامة، ولا عيـب في تبـادل الأدوار والسـلطات، لا عيـب في ذلـك.

أهم شيء أن لا أحد يلمسني، أو يضع يده عليَّ».

لاحـظ أيـور أن أسـامة يتحـدث عـن نفسـه كموضـوع شرف، وهـذا مـا زاده ارتبـاكًا ولكنـه ظـل صامتًـا يرقـب سرد وشرود أسـامة، وربمـا ظـن أن السـبب هـو تأثـير الشيشـة ومفعولهـا القـوي، وأسـامة لا يقـول كل شيء.

في أي منطقة من اللاوعي استطاع أن يخبئ أفكاره؟

هنـاك أشـياء لا يبـوح بهـا اللاوعـي نفسـه، مهمـا غـرق الجسـد في الخمـور والمخـدرات والانطـلاق، حـتى لـو بلـغ أعـلى درجـات السـكر، حـتى لـو انهـار الجسـد جثـة هامـدة، حـتى لـو نومتـه مغناطيسـيًّا، لـن يعـترف. هنـاك أجسـاد تنكمـش عـلى الـسر وتدفنـه بالمعـنى الحقيقـي في بـئر عميقـة داخلهـا، أن تحتفـظ بـسر يعـني أن تنسـاه داخلـك وأن تعيـش كأنـك لا تعـرف أنـه سر.

لـم يكـن هـدف أيـور هـو التحقيـق بـل التحـدث مـع أسـامة وإمضـاء السـهرة معـه، اسـتغل فرصـة غيـاب الجميـع، وجلـس مقابـل هذيـان أسـامة، وكان ينظـر إليـه كأنـه يشـاهد فيلمـا سـينمائيًّا بالدخـان والـكلام، بالرمـادي والذكريـات، فيلمًـا عميقًـا بصـور الحـيرة والضعـف والقـوة أحيانًـا، لمـاذا يحمـل أسـامة في قلبـه كل هـذا الحنـين؟ كل هـذا الألـم؟ أليـس هـو الشـاب الأوسـم بيننـا وفي الكليـة كلهـا؟ أبيـض البـشرة، لحيتـه محـددة

بدقـة كأنهـا مرسـومة بقلـم الرصـاص، عينـاه بنيتـان فاتحتـان، ملامحـه كلهـا طفوليـة كأنـه طفـل في السـابعة مـن عمـره، معتدل القامـة ولكنـه يميـل إلى الطـول.

شـعر أسـامة بالاختنـاق ربمـا لأنـه تجـاوز مـا اعتـاده مـن جـولات الشيشـة، اختناقـه واضـح؛ لأنـه خلـع ملابسـه وبقـي في سروالـه المـنزلي القصـير، يتناثـر عـلى جسـده شـعر مرتـب وقصـير يغطـي بطنـه وصـدره، إنـه موديـل أزيـاء منـسي في مدينـة الأسـوار.

خـاف أيـور مـن حـركات أسـامة واختناقـه، ولكنـه طلـب منـه أن يهـدأ لأنـه يشـعر بالحـرارة فقـط بسـبب الشيشـة وبسـبب أشـياء أخـرى تحـترق داخلـه، الشيشـة غرغـرة الفـوضى في غيابـات الـروح، حشاشـة حيـاة تائهـة في دروب بيـت النمـل الأحمـر.

أيـور يعطـف عـلى الجميـع، يشـعر بالمسـئولية تجـاه الـكل، فمـا بالنـا بشـخص يكـتري معـه نفـس المـنزل، لاحـظ أن أسـامة لـم يكتـف بالشيشـة اليـوم بـل تنـاول شـيئًا قبلهـا، ربمـا شرب البـيرة، عـلى غـير عادتـه في الملهـى قبـل دخولـه للبيـت، البـيرة أيضًـا مـاء غيـاب يـروي الجـروح التائهـة في بيـت النحـل، بيـت غابـت عنـه الملكـة.

«انظـر إليَّ أيـور، أنـا أحـب نفـسي هكـذا، بـل أكـره نفـسي، لكـني مقتنـع بمـا أفعلـه، الحصـول عـلى المـال صعـب في هـذه الحيـاة الجحيميـة، ومصاريـف دراسـتي تضغـط عـليَّ، أنـت لا تـدرك هـذا لأنـك مـا زلـت في الباكالوريا، لكـن أنـا أدرس بالجامعة وفـوق ذلـك أدفـع للمـدارس الخاصـة مقابـل سـاعات الدعـم في

اللغـات والتواصـل، لأنقـذ نفـسي مـن جهـلي القديـم باللغـات، ورثتـه منـذ الابتـدائي، الآن أنـا أعـرف قيمـة الدراسـة، وأحتـاج مـالًا لأمـول دراسـتي، جميـع الطلبـة في الغـرب يشـتغلون ليمولوا دراسـاتهم العليـا، هنـاك مـن يشـتغلون بنصـف الـدوام أو ربعه في المطاعـم والحانـات، ودور الأزيـاء والـوكالات السـياحية.

أنـا أفعـل نفـس الـشيء، لي وكالتي الخاصـة، ولي زبائـني وأحيانا زبونـاتي، أسـتطيع أن أشـتري من زارا وسـيليو وجيوفاني».

دائمًا يبدو الإنسان سعيدًا حين يتحدث لا وعيه.

مـا وراء الوعـي يخفـي أشـياء كثـيرة جـدًّا، إنهـا عاديـة وتحـدث دائمًـا، نـادرًا، لكنهـا تحـدث، لا يمكننـا معهـا أحيانًـا - بسـبب ضعفنـا الإنسـاني، بسـبب الألـم، بسـبب اللارغبـة، بسـبب الرغبة العميقـة في النسـيان- أن نخفيهـا كمـا يجـب، لكنهـا تؤثـر فينـا دائمًـا وتجعلنـا نتـصرف كذلـك بسـببها وتتحكـم في كل تصوراتنـا وتوتراتنـا، عصبيتنـا وسـعادتنا، إنهـا تتغلغـل فينـا، نقتلهـا أحيانًـا وتقتلنـا أحيانًـا أخـرى.

المهـن الطلابيـة الـتي تحـدَّث عنهـا أسـامة لا تنتمـي لمجـال أيـور، فحـين يحتـاج مـالًا يعمـل حمـالًا في السـوق القديمـة أو مسـاعد بائـع خـضر، أو حارسًـا ليليًّـا في عمـارة طـول فصـل الصيـف، ويشـتغل مسـاعد كَتـبي في بدايـة السـنة الدراسـية حـين يكـون الضغـط شـديدًا عـلى المكتبـات.

لكـن مهـن أسـامة تنتمـي لعالـم آخـر فيـه مـن الـثراء مـا فيـه، عالـم مرتبـط بالمجـلات والصـور والأزيـاء والحفـلات والأناقـة والجمـال، عالـم فيـه مـن المـال بقـدر مـا فيـه مـن الخبـث.

أيـور ينصـت، هـو دائمًـا ينصـت، ولا أحـد يعلـم مـا يجـول بخلـده، لا يزعـج أحـدًا بكلامـه ولا بصمتـه، أفراحـه مخبـأة داخلـه، أمـا أحزانـه فبحـر لا يعلـم عنـه أحـد شـيئًا، ربمـا لا يؤرقـه شيء في هـذه الحيـاة، وربمـا هـو مستسـلم بإيجابيـة تجعلـه يعيـش في سـلام وطمأنينـة، وقـد يكـون أكـثر ثرثـرة مـع صديقـه ياسـين فقـط، هـو وياسـين وجهـان لعملـة واحـدة، كمـا يحسـبهما رفـاق البيـت.

اسـتمر أسـامة في هذيانـه في عبثـه بروحـه، بالاتحـاد مـع دخـان الغرفـة الـتي تحولـت إلى مدخنـة فوهتهـا هـي أسـامة، شـعر أيـور بالاختنـاق، فتـح البـاب، وتـرك الهـواء يدخـل لينقشـع بعـض الدخـان.

لا يحـب التدخـين ولا شرب البـيرة ولا أي طقـس دخـاني آخـر، وحـين يتعلـق الأمـر بصديـق يعرفـه، يصـبر عـلى الوضـع، فهـو لا يتخـلى عـن جلسـات البـوح، فضـولًا ربمـا، ولكنـه شـخص محـب، يعطـي الآخـر قيمـة كبـيرة، يقـدِّر الألـم، يقـدِّس الألـم.

السـاعة تجـاوزت الثالثـة، نـام أسـامة مكانـه مرتميًـا كجثـة هامـدة، أمـا أيـور فانتقـل لغرفتـه، أعـد فراشـه للنـوم، لكنـه ظـل لنصـف سـاعة يفكـر، يتذكـر، أو ربمـا يحملـق فقـط في مصبـاح الغرفـة، أطفـأه ونـام عـلى جنبـه الأيمـن متمتمًـا بآيـة الكـرسي وأدعيـة مـا قبـل النـوم.

اعتـاد الأربعـة عـلى هـذه السـهرات الشـبابية، بـين السـجائر والشيشـة والذكريـات وأطيـاف النسـاء، لكـن حـزن أسـامة الليلـة وغيـاب ياسـين والآخـر جعـل للسـهرة مـذاق البـوح الشـفاف،

وفكـر أيـور أن داخـل كل رجـل بـذرة عـذاب مهمـا بـدا مرحًـا ومتعجرفًـا، بداخـل كل إنسـان ضـوء مـن الأرق يزعجـه، لمسـة قديمـة مـن القلـق ترافقـه، كذكـرى متخفيـة بـين ثنايـا لا وعيـه.

-٢-

يكـون الاسـتيقاظ صباحًـا بعـد ليلـة دخـان ثقيـلًا، صبـاح الأحـد كسـول، كسـول لأنـه وحيـد داخـل غرفـة رطبـة بالطابـق السـفلي، يقطنهـا الطلبـة المنحـدرون مـن نواحـي تارودانـت، غـرف صغـيرة مربعـة تحتضـن فراشـين فقـط، حصـيرة ملونـة في كل زاويـة منهـا، يضـع الطلبـة فراشًـا، قربـه كتـب وملابـس ومحفظـة، وربمـا شـمعة تحسـبًا لانقطـاع الكهربـاء المفاجـئ.

حيـاة الطلبـة بسـيطة ولكـن دواخلهـم معقـدة، علاقاتهـم مـع الحيـاة معقـدة، القـرآن الكريـم وسـيرة ابـن هشـام، سـتالين وتروتسـكي ومـدام بوفـاري، الطيـب صالـح والعـروي، أحـلام مسـتغانمي وزهـرة المنصـوري، والدعـاء المسـتجاب.

أيـور يحتـل جانبًـا وياسـين يحتـل الجانـب المقابـل، بينهمـا عـلى الجـدار بوسـتير عـازف القيثـارة رفقـة صديقتـه، الـتي تدخن في ليلـة مقمـرة، المسـاحة الصغـيرة قـرب البـاب يضعـان فيهـا دولابًـا مـن الخشـب مـن ثلاثـة أرفـف، عـلى الـرف العلـوي تلفـاز صغـير للاتصـال بعالـم الآخريـن، هنـاك في الربـاط العاصمـة.

وراء البـاب مشـاجب كثـيرة لتعليـق الأقمصـة والسراويـل، كل مـا يملكـه أيـور وياسـين معلـق هنـاك.

أمـا غرفـة أسـامة فهـي مؤثثـة بسريـر خشـبي قديـم، وطاولـة بلاسـتيكية بيضـاء، عليهـا حاسـوبه والكثـير مـن المجـلات

والكتب والأوراق، كتب كلها مرتبطة بالمقرر الدراسي، أما المجلات فكلها عن الأزياء والرياضة، وجدران الغرفة مغطاة ببوسترات شاكيرا ومريام فارس وتامر حسني، ملابسه مكوية بعناية ومعلقة وراء الباب أو مرتبة داخل دولاب خشبي صغير اشتراه من السوق حيث تباع الأشياء المستعملة، وربما تركه المكتري القديم أو الذي قبله فكثيرًا ما يرث الطلبة حاجيات الذين مروا قبلهم من هذا البيت، الآخرون الذين عاشوا فيه مرحلة دراستهم الثانوية أو الجامعية، والذين استقبلتهم أرصفة البطالة.

والغرفة الثالثة يحتلها طالب جامعي آخر صديق مقرب لأسامة، لكنه غائب طوال الوقت بحكم ارتباطه بعلاقات صداقة مع طلبة آخرين يقطنون في حي شعبي آخر، ما يجمع بين الغرف الثلاثة هو الرطوبة. فقبل الدخول من الباب تمر عبر ممر مظلم، تحت صابة* تربط ساحة الأندلس بالرحبة القديمة وبمسجد سيدي وسيدي، المنزل يقع تمامًا بين المسجد والضريح ذي الأقفال المغلقة، في باريس جسر للأقفال التي يتعاهد حولها العشاق، وفي تارودانت ضريح معلق فيه الأقفال لجلب الحب أيضًا بطريقة أخرى، صاحب البيت يسكن بالطابق العلوي ويتمتع بالشمس والحرارة، يؤجر الطابق السفلي لطلبة من الفئات الفقيرة بثمن مناسب، فلا أحد يستطيع أن يصبر على رطوبة المكان غير طلبة يملأون الغرف دخانًا كل ليلة، البيت هنا

---

* ممر مظلم غالبا ما يكون مدخلا للحارة القديمة.

مـكان للنـوم فقـط، لا للعيـش، الطلبـة يعيشـون خـارج البيـت، في الجامعـة والحدائـق العموميـة وأحيانًـا في ضيافـة مخافـر الشرطـة بعـد الاضرابـات والمظاهـرات.

الصـف الثالـث الثانـوي لا يختلـف عـن الجامعـة هكـذا يشـعر أيـور وياسـين؛ لأنهمـا يأخـذان الدراسـة مأخـذ الحيـاة، ويعلمـان جيـدًا أنهـا سـبيل نجاتهمـا مـن مـآزق الحيـاة في الـدوار الجبـلي؛ لذلـك يجتهـدان أضعـاف مـا يفعلـه الآخـرون.

علاقة أيور بالكتب خاصة جدًّا.

لذلـك كانـت لـه حياتـان، وكان يعـرف معـنى الإنصـات ومعـنى الصمـت، فالقـراءة وحدهـا تعلمـك أن تسـتمع وأنـت سـاكت؛ لأنـك لـو تحدثـت لـن يجيبـك الكاتـب، فتكـون مجـبرًا عـلى محـاورة السـطور في صمـت، طقـس القـراءة عبـادة في محـراب الصمـت، القـراءة مـرادف للهـدوء رغـم مـا تحدثـه مـن حـروب القلـق في الداخـل، وكان ارتباطـه بصديقـه أيـور يكفيـه شر الصداقـات الكثـيرة والمتعبـة.

استيقظ أيور أولًا،

اتجـه إلى المغسـل، صـبَّ المـاء عـلى شـعره، ووضـع المـاء في الغلايـة عـلى النـار مـن أجـل صنـع الشـاي، أسـامة لـم يسـتيقظ بعـد وحـتى لـو اسـتيقظ لـن يخـرج مـن غرفتـه قبـل الثالثـة بعـد الـزوال، ليسـتحمَّ ويرتـدي ملابسـه اسـتعدادًا للخـروج في السادسـة مسـاء.

أيـور سـيتناول فطـوره، شـاي وزيـت زيتـون وحبـات زيتـون،

ليخـرج إلى الحديقـة العموميـة إبراهيـم الـروداني؛ حيث الشـمس ليعـد واجباتـه المدرسـية، وسـيمر عـلى المقهـى ليتنـاول العـدس أو الفاصوليـا عنـد الحـاج أحمـد، ويقـضي بقيـة اليـوم في القراءة.

ليبقـى البيـت فارغًـا إلا مـن الذكريـات، كل غرفـة تحـكي حيـاة، الطلبـة يخطـون حياتهـم عـلى الجـدران كالسـجناء، توقيعـات ورسـوم وأشـعار، عـلى الجـدار، فـوق كل وسـادة تجـد تاريخًـا مكتوبًـا بالقلـم الحـبري الجـاف، وتجـد تخطيطـات تبـدو للوهلة الأولى دون معـنى، لكنـك لـو دققـت فيهـا لرأيـت تاريخًـا لشـعب مـن الطلبـة، لهـم إيقاعـات حيـاة مختلفـة، رمـوز ومرجعيـات خاصـة بـكل طالـب.

مـا أكـثر القلـوب بـين هـذه الرسـوم، القلـوب المجروحـة الـتي تـنزف بغـزارة، ليـس بسـبب الحـب وحـده، ولكـن بسـبب التخـلي واليتـم والقهـر والتيـه والضيـاع.

التيـه، يـا لهـا مـن كلمـة، إنهـا تائهـة أيضًـا، ويصعـب النطـق بهـا، فالوقـوف عـلى اليـاء والهـاء يتعـب الحلـق.

كذلـك هـذه المعلقـات الطلابيـة عـلى الجـدران، قلـوب صغـيرة ومعذبـة أكـثر ممـا هـي سـعيدة، ربمـا لأن الإنسـان لا يفكـر في التعبـير إلا حـين يكـون حزينًـا، أمـا حـين يشـعر بالسـعادة فيفضـل أن يعيشـها حقيقـة دون وسـيط تمثيـلي.

أبيـات خليـل حـاوي الثائـرة مكتوبـة بخـط واضـح، ليـس خـط أيـور ولا خـط ياسـين،

«وتغنِّين العذارى

وصبابات العذارى

أنت يا موطوءة النهدين

يا نعش السكارى»

«نحن في بيروت مأساة ولدنا

بوجوه وعقول مستعارة

تولد الفكرة في السوق بغيًّا

ثمَّ تقضي العمر في لفق البكارة».

بورتريه لتشي جيفارا، محمود درويش وعلم فلسطين، حنظلة ناجي العلي محرف قليلًا، وكل رموز الثورة والمقاومة في هذا العالم، حتى شعار النازية حاضر بلون أحمر باهت، المطرقة والسندان، الشهادتان، لا إله إلا الله محمد رسول الله، رطوبة البيت لم تستطع أن تمحو هذه العلامات، كما لم يستطع القمع قبلها، يكفي أن ترى نظارات درويش كي تتعلق بكل جدارياته، وحنظلة يدير ظهره للعرب ويغطي مؤخرته بيديه، يعيش الطلبة كل أسباب الثورة ولكن البطالة تقلِّم رغبتهم في الفعل.

-٣-

انسحبت الشمس عن تارودانت وحل مساء عادي، حركة سريعة قبل أذان المغرب، الرحبة القديمة تضج بالباعة والمشترين، صاحبة الحريرة* أفرغت برمتها وجمعت مطعمها المتنقل في سلة من الخشب وهي تحمد الله على كل شيء، شرب من حريرتها كل أصحاب المحلات المجاورة الذين اعتادوا أن تقدم لهم زهرة طبقًا متوسطًا من الحريرة مع تمر وبيضة واحدة مسلوقة، بثمن مناسب، جميع الطلبة يمرون من هنا وقت المغرب لتناول الحريرة، وقد يعتبرونها عشاء وينصرفون للنوم.

الطلبة عادة يفضلون تناول السجائر على تناول الطعام، فالجريدة وفكرة ماركسية صغيرة عن البروليتاريا وجزء من المائة عن مفهوم الحرية، أشياء لا تستقيم دون سيجارة.

كل الأصوات تخفت مع تقدم الليل، وتحل محلها أصوات جديدة للمتعبين من حياة الضوء، للمداومين على سواد الليل، لمهن جديدة ولحوارات جديدة، للصراخ والحركة والهروب والهذيان والسب والشتم، للسكارى والمعربدين، والحشاشين والمتشردين.

---

*حساء مغربي.

أيـور دخـل فراشـه وحمـل كتابًـا، يرفـع الغطـاء إلى صـدره ويمسـك الكتـاب بـين يديـه، قريبًـا مـن عينيـه، ياسـين تأخـر كثـيرًا عـلى غـير عادتـه، ولكـن أيـور يـداري قلقـه عليـه ويدفنـه داخـل المطالعـة، سـيدخل ياسـين قريبًـا ونكـون أمـام أمريـن، إمـا أن يبـادر أيـور بالسـؤال: لـم تأخـرت؟ وهنـا سيشـعر ياسـين باهتمامـه بـه ويجيبـه، أو سـيصمت أيـور ويغضـب ياسـين لأنـه لـم يهتـم لتأخـره، صنعَـا جـوًّا أسريًّـا يهربـان إليـه مـن عبـث الحيـاة الطلابيـة، ففـي الحيـاة العاديـة حيـث البيـت والـدفء والأب والأم يجـب أن يقلـق أحـد حـتى تسـير الأمـور بشـكل عـادي.

وإن صمـت أيـور فلأنـه غاضـب، أيـور لا ينفعـل ولا يتحـدث كثـيرًا عـن مشـاعره، هـو صامـت كتمثـال، علاقـات تليِّن الغربـة وتجعلهـا مرحلـة مـن مراحـل الحيـاة، ولكـن في حـالات كثـيرة يصبـح البعـد عـن الأصدقـاء حـتى وأنـت داخـل الأسرة غربـة حقيقيـة لا قـرار لهـا، الغربـة هـي أن تشـعر بأنـك وحيـد مهمـا كنـت بـين النـاس، بـل وأن هنـاك مـن يكـون قربـك ويمنحـك إحساسًـا بالغربـة، والمدينـة تفعـل ذلـك أحيانًـا خصوصًـا إن كنـت بـدون رفقـة؛ حيـث جيـوش البـشر كموجـات البحـر حولـك جيئـة وذهابًـا وأنـت تسـير وحـدك في دهلـيز كـروح تتهيـأ للسـفر.

سأله ياسين:

- ألم تكتب شعرًا اليوم؟

- لا لـدي امتحـان في العلـوم الطبيعيـة غـدًا، بقيـت طـوال

اليـوم في الحديقـة أراجـع، والآن أقـرأ مـدن الملـح.

- منذ فترة لم تقرأ لنا شعرك، أشتاق جملك وصورك.

- فقـط حـين أتخلـص مـن ضغـط الامتحـان أقـرأ لـك القديـم والجديـد.

- ماذا تناولت على العشاء؟

- شربت حريرة من زهرة.

- ألسـت جائعًـا؟ خـذ هـذه الشـطيرة لـك، إنـه مـن محـل عبـد الرحمـن مـول الحـوت.

- الله يعطيك الخير أخي.

- هيـا أيـور إقـرأ لي تلـك القصيـدة الـتي أحبهـا، أحـب أن أسـمعها بصوتـك، تبـدو أجمـل وهـي تتلـون برنـة بحتـك، وأنـا سـأعد فنجـان زعـتر مُحَـلَّى بالسـكر، لأني أشـعر بالـبرد، مـن أجـل خاطـري أزل عنـك التعـب، أنـا مـصرٌّ عـلى طلـبي، لا تكـن بخيـلًا.

وراح أيور يقرأ:

لو خيرتموني

سأرغب أن أكون ماء

لأغسل وجه الحزانى

وأروي عيون الثكالى

كي يبكين

بدمع أوفر لا يجرح العين

سأصادق المطر

ليسقي أراض الفقراء

ويبتعد عن منازل الفقراء

سأغسل الموتى

وأرشح من عيون الجميلات

كالحنين

يتصبب من عرق الغرباء

سأكون ماء

لو خيرتموني

لرغبت أن أكون ضوءًا

فأنا عنيد كالضوء

أتسلل عبر المسام لأحيا

كقطار في المسار

أسير

وأمتد أمتد عبر الثقوب والجدران

واتجلى عبر المصابيح الزرق

واتدلى عبر الفنار

وأضرب العبث بالسيف

كسحب اليقين

وأشعل الشهوة في الظلام
لينطلق الفانوس
كطائرة تستدل بمصابيح المطار
وأسبق السيارات
وأضرب بخيلي
كي أفضح مراهقين يمارسان
لعبة التقبيل
وراء الجدار
لو خيرتموني
سأرغب في أن أكون ترابًا
كي أحضن الغائبين
والمختبئين قرب الموت
سأدفئهم بحنان
كي لا تصيبهم الوحدة بنزلة برد
وأحارب الديدان
وأنبت الأقحوان على القبور
وأقرأ آثار أقدام الزائرين
وأستمع لسورة يس
والقرآن الكريم.

يتطلع ياسين إلى وجه صديقه ليرى كيف ينطق الحروف، خصوصًا حرف النون الذي تكرر كثيرًا، إن الشعر يجعل ياسين مشدوهًا إلى صديقه، يقترب منه ويركز حد التماهي مع ذبذبات الحروف، ويبقى مسمرًا في مكانه يفكر مدة بعد انتهاء القصيدة، كأنه يشرب من أثرها على كيانه، وعي أيور باللغة مبكر وحساسيته للصور خاصة جدًّا، لكنها تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، وتزداد الهوة بين الكلمات وتتلوى الاستعارات، تلك العلاقات القديمة بين السكوت والصمت تنتهي، ليصبح الصمت تاريخًا، ضجيجًا يقضي مضجع النجوم، النجوم التي تفضل أن تقبع في العلياء، لعلها تراقب الحيارى في هذا العالم وتضيء حنينهم، لم يفعل الشعر في النفوس فعل السحر، ولم يعتقد العالم أن زمن الشعر قد ولى؟ ما زال الإنسان إنسانًا ما بقي يستعذب الشعر والكلمة، وأيور يمسك العالم من طرف خفي، من فجر قصيدة أو أهداب سنبلة، فهو ينظر إلى الألوان على ظهر دعسوقة ويبني خليجًا من الرمل والحيرة.

أخذ أيور نفسًا قويًّا، اتجه صوب نفسه، في مواجهة مع أفكاره، ربما تحرقه أفكاره، هذا ما يحدث، عليه أن يكون ماء، عليه أن يستعيد ديبلوماسية البحور والمحيطات والأنهار والخرائط، إنه يحمل نارًا في لغته، ويخاف أن يحترق العالم بسبب شمعة منسية في ركن البيت.

كيف سيكون ماء وقد حدث صديقه ذات يوم عن علاقته المتوترة مع النافورة قرب الأسوار، يقول إنها تسبب له الحنين، والحنين موجع، ماؤها يثيره كأي جنوبي، ولكن

صوته يوحي له بلوحة سوداء الملامح، عليه أن يعيد ترتيب الفسيفساء، وألا يسقط قطعة الحب الزرقاء مهما تعقدت علاقته مع الماء، للنافورة نسب مع البحر، وعداوة الجبلي مع البحر واضحة منذ أول تجربة غرق.

كيف سيكون ضوءًا، سيحتاج نجوم المجرة لتضيء دواخله، فالكون كتلة ظلام، وشعره كتلة ظلام تنخر جسد الدوالي، شكَّل سيقان دالة العنب تحت النجوم صورة تشعر أيور بالفقد، إنه مثله تمامًا، حزين وحزنه التوائي، أليم كفيض من الرجاء يغلي، يمتد عبر الكلمات والصور، أحيانا يشعر ياسين بالندم؛ لأنه طلب منه أن يقرأ شعرًا، وغالبًا ما يتمنى أن ينطلق الكلام الذابل في حلق أيور وألا يداري قلقه البنفسجي الموجع.

كثير من الديدان تخرج من قصائد أيور، أغلبها حزينة ولها تاريخ في الحزن والصمت، لونها البني الترابي دليل ذلك.

انقلاب في الخطاب، نحن ننتج خطابات تنقلب ضدنا كأفاعي الصحراء تعض مروضها وفاءً لعطشها الأزلي، ماذا لو استهلكنا كميات قليلة من مفردات الحزن ونستغني عن المجازات الضخمة التي تضاعف حزننا، ماذا لو عبرنا بجمل قصيرة تختزل تعاستنا ونختار لها أقصر السبل في إعرابها دون مفاعيل إضافية، ودون تقديم أو تأخير، هل سنقزم حزننا بذلك أم سنجعله يخدعنا بتناهيه في الصغر، وهو كبير كصفصافة معمرة تنثر أوراقها كلما شعرت بالسأم، كتلك الصفصافة المسمومة التي نمت قرب معمل مبيدات

الحشرات وراء ثانوية سيدي وسيدي، ظلت لعقود تنفث سمها عبر أوراقها الخضراء، فما أن تقترب منها حتى تختنق، جذعها بني به حمرة كحمرة النحاس، إنها لا تبدو من فصيلة النباتات بل قطعة من حديد تركه المستعمر.

إن قَزَمنا حزننا سنكون بذلك نعامل النسر بمخالبه القاسية معاملة الدوري الصغير الذي يطل من ضواية المنزل أو من نافذة صغيرة، حقًّا بعض المفردات تبدو فضفاضة لمعالجة حزن عابر كريشة في الهواء، وبعضها يبدو دبابة لتحطيم حزن بحجم ذبابة، أي تعاسة تحيط باللغة وهي تبتلع حزنًا قديمًا بأساليب تركيب بسيطة، يقول ياسين في نفسه، وأي غباء للغة وهي تشخص زكام الحزن على أنه سرطان حياة.

نحتاج تلك اللغة المحايدة التي تحتوي مكعبات بمختلف الأحجام لكل مكعب جملة خاصة تحضن حزنًا بقياس معين، ستكون لنا إذن- يقول ياسين في نفسه- تلك اللغة المحنطة التي مات دفؤها، وسَرَت فيها قشعريرة المساطر، بزوايا حادة وجارحة بعدما عبثت بها يد مهندس الأحزان، اللغة السكين القاتلة التي حين تفيض أسًى تعجز عن احتوائك بالمفردات فتضطر حينها للتعبير الميمي فتقطر دمعًا، يتحجر البؤس في عمقك الكئيب فلا تقوى على الكلام.

الشعر إذن استرداد لبعض ما ضاع فينا من كلام، بعض القول المختبئ في المقل، وتلك الشرارة الصغيرة التي يحتفظ بها الشعراء رغبة في إشعال بركان يغير العالم، كلهم مثل أيور يكتبون من أجل غدٍ سيكون في نظرهم أجمل؛ لذلك

تـأتي القصائـد هكـذا صمامـات أمـان ضـد توحـش المدينـة وضد تصلـب الأمـل في دواخلنـا.

ياسـين يشـتاق أن يسـمع شـعرًا، ومـن يشـتاق أن يسـمع شـعرًا غـير رجـل يسـكنه سرب مـن السـنونوات والحمائـم ويجـب أن يطعمهـا ملحًـا مـن رنـين الكلمـات، وغبـارًا مـن الفسـتق وشرارة مـن الذكريـات ووميضًـا مـن ضـوء الفـرح.

الزعـتر الجبـلي السـاخن في إبريـق قديـم مـن الألومنيـوم، وكأسـان زجاجيـان شـفافان كقلـب ياسـين بحاشـية ذهبيـة، يضـع الصينيـة البلاسـتيكية عـلى الأرض بـين الفراشـين، ويصـب لأيـور كأسًـا يضعـه بـين راحتيـه ليسـتدفئ بـه في هـذا الليـل البـارد وهـذه الغرفـة الرطبـة.

ينام أيور مغتالًا بـ«مدن الملح».

وينام ياسين مغتالًا بـ«الحق في الرحيل».

بعـد منتصـف الليـل بسـاعتين، نسـمع صريـر بـاب المـنزل ثـم بـاب غرفـة أيمـن، يدخـل بسرعـة ويغلـق البـاب وراءه، مـن دون إحـداث أي ضجيـج قـد يوقـظ الآخريـن، يحـترم الجميـع، فـلا يزعجهـم بدخولـه المتأخـر، فـتى جامعـي طويـل القامـة أسـمر البـشرة، يضـع نظارتـين طبيتـين، سـميكتي الإطـار، جسـمه ممتلئ وريـاضي، مختلـف تمامًـا عـن أسـامة، لكنـه محـاط بالألغـاز، صامـت، لا يتنـاول وجباتـه في البيـت بـل في الخـارج غالبًـا، في المطاعـم أو السـناكات المنتـشرة بالمدينـة، في سـاحة الأندلـس القريبـة مـن المـنزل.

يدخل في هدوء ويخرج في هدوء، وكثيرًا ما يبيت عند أحد أصدقائه بالحي الجامعي، ولكنه أيضًا يشارك الآخرين بعض سهراتهم، خصوصًا حين تنتهي الدراسة وتبقى تلك الفترات الميتة من السنة الدراسية كالعطل البينية، فلا يجد بدًّا من مرافقة ياسين وأسامة وأيور.

ينحدر أيمن من أحد الدواوير المجاورة لمدينة تزنيت، أسرته فقيرة، فضل الدراسة بتارودانت معتمدًا على نفسه في تحمل تكاليفها وكل مصاريفه اليومية الأخرى، تلك القوة الجميلة ولحظات الحسم التي تميز قراراته، تجعله منسجمًا مع نفسه، النظارات الطبية تمنحه تلك الجدية فيبدو أكبر من سنه، يبتسم دومًا في وجه أيور، ويردد كلما رآه:

- والله تا راك عزيز أودي أأيور. (والله تراك عزيزًا عليَّ يا أيور.)

وتلك حقيقة فأيور لا يمكن إلا أن يحبه الجميع، ليس فقط لأنه أصغرهم، ولكن أيضًا لطبيعته ومواقفه وبساطته.

ينام أيمن بسرعة ويطفئ نور غرفته.

الليل،

عنوان الأحلام والكوابيس،

الهدوء المقفر الذي يحضن المسافات الباردة بين الواقع والمتوقع، الكل نائم، بيت سفلي رطب، بثلاث غرف، يحضن البدايات، في مدينة عمرها خمسة آلاف من السنين، وثقل أسوارها يجثم على الحضارات التي مرت من هنا،

وكأن كل شيء فيها ينطق تاريخًا، الدور والرياض، النوافذ بنوافذها الحديدية، المشربيات، الأقفال والنواقيس، الأزقة الضيقة، التراب والناس، اللهجات والحكايات، أن تعيش في تارودانت يعني أن يسكنك الماضي بثقله، وإن كانت لديك ذاكرة مثقلة بماض شخصي معقد يكون ألمك مزدوجًا؛ ألم المكان والزمان.

الليل،

لا يغطي التفاصيل بالظلام، ها هم نائمون يلاحقون الأحلام قبل أن تنام، كما المدينة بين الأمس واليوم، قطعة من فتات لغة وحريق من التاريخ والذكريات، يا مدينة الآمال المجهضة ومقبرة الأحلام الزرقاء، قومي من صمتك وليلك، وانثري الأزهار على أجساد البؤس والتشرد.

لا مجال للرهان على الحزن، إنها مقايضة خاسرة، في زمن الشح العاطفي، أيها الليل الحالك الخجل، قم وغط أبناء المدينة، وصل عليهم صلاة الفرح، إنهم مهووسون بالصمت.

ليل رودانة دائم التحول، ليس فيه صخب وليس فيه هدوء.

-٤-

استيقظ أيور مبكرًا كعادته، صلى الصبح وعاد لفراشه، ليعيش في مدن الملح قبل أن يصل موعد إرجاعها لمكتبة القاضي عياض التي استعارها منها، وعند الساعة السابعة تمامًا أعد فطورًا له ولصديقه، شاي وزيت زيتون وحبات زيتون سوداء، خرج لإحضار الخبز من مخبز الوداد، خبز من دقيق الشعير أو خبز «المحراش» كما يسمونه، ساخن ولذيذ ورخيص الثمن. زيت العود ومحراشة، شعار المغاربة إذا تناولته على الفطور لن تحتاج غذاء قبل الثالثة بعد الزوال، ربما لصعوبة هضمه وربما لكمية السميد المنثور فوقه، ويزيده زيت الزيتون لذة.

صباح عادي إذن، فبعد قليل سيتوجه أيور وياسين، إلى ثانوية ابن سليمان الروداني مارين عبر صابة سيدي وسيدي المظلمة ليل نهار، ثم يدلفان لساحة الأندلس ويمرون عبر حي سيدي أحساين، إلى المسجد الأعظم.

- صباح الخير ياسين.

- صباح النور أخويا أيور.

- لدي حصة رياضة في العاشرة أرجو أن تترك لي الحذاء الرياضي.

- حاضر أنا لن أحتاجه اليوم، إنه لك ولكن لا تضرب

الكـرة بقـوة كي لا يتمـزق.

- وينخرط الاثنان في ضحك صباحي ينعش الروح.

تنـاول ياسـين الفطـور بسرعـة وارتـدى ملابسـه فـوق ملابـس النـوم، لأن الجـو بـارد جـدًّا، وسروالـه الجيـنز يحتـاج سروالًا آخـر تحتـه ليشـعر داخلـه بالـدفء، يقـال دومًـا إن ألـذ لحظـات النـوم تكـون صباحًـا قبـل الاسـتيقاظ مبـاشرة، هـي لحظـات لذيـذة؛ لأن الجسـد يكـون قـد تشـبع بالراحـة والحلـم والـدفء خصوصًـا حـين يكـون عمـرك ١٩ عامًـا وجسـدك يطالبـك صبـاح مسـاء بشـئونه الداخليـة، كـم مـن الاجتهـاد يحتـاج شـاب للاسـتيقاظ باكـرًا والتوجـه للثانويـة مدفوعًـا فقـط بالرغبـة في الدراسـة والتعلـم، هنـا يختلـف أبنـاء الدواويـر عـن أبنـاء المـدن، ذلـك الحافـز الداخـلي الـذي يسـكنهم ليتحـدوا، وضعهـم الاجتماعـي والفقـر والتهميـش، ويدرسـوا لأن الدراسـة هـي منفذهـم الوحيـد للحيـاة ودفـع الفقـر، مـا ضيـع أيـور حصـة واحـدة طـوال العـام الـدراسي، ولا ياسـين، هـو يتعجـب دومًـا مـن غيـاب الآخريـن عـن الجامعـة رغـم تبريراتهـم بـأن النظـام الجامعـي مختلـف تمامًـا ولا يحاسـب عـلى الغيـاب، فحـتى أوقـات الفـراغ يقضيهـا في الخزانـات الثـلاث بالمدينـة.

مـرة واحـدة فقـط اضطـر للتغيـب عـن حصـة التربيـة البدنيـة، حـين لـم يجـد حـذاءه الريـاضي الـذي أخـذه ياسـين ليلعـب مبـاراة في كـرة القـدم، همـا يشـتركان في حـذاء ريـاضي واحـد، ومـن حسـن حظهمـا أن حصـص الرياضـة مختلفـة، قيـاس قـدم أيـور أصغـر بقليـل لكنـه يزيـد جوربـين لتلائـم قدمـه قيـاس

الحـذاء.

هـذه الحيـاة اليوميـة للشـابين لا تؤثـر فيهمـا، إنهمـا يعيشـانها فقـط، دون تفكـير.

ربمـا لأن الأهـداف الكـبرى تقودهمـا، وربمـا لأن الفقـر يعيـش مـع صاحبـه في تـوازٍ لا يشـعر بـه الآخـر مهمـا كان، اعتـاد ياسـين أن يرتـدي جلبابًـا رماديًّـا يرميـه فـوق ظهـره حـتى لـو ارتـدى ملابـس عصريـة تحتـه، يشـعر فيـه بالراحـة، عـرف في الثانويـة بجلبابـه الرمـادي.

لكنـه الفقـر، لا يؤخـذ مأخـذ العـادة بـل مأخـذ الألـم، ويـترك جروحًـا في القلـب والذاكـرة والتاريـخ الشـخصي، سـيظل الحـذاء الريـاضي يوحـد صديقـين يعيشـان نفـس تفاصيـل الحيـاة، وسـيكون رمـزًا للصداقـة والحـب، ولكنـه سـيكون أيضًـا وشـمًا خبيثًـا عـلى وجـه الوطـن، وطـن يعيـش أبنـاؤه مناضلـين منـذ ولدتهـم أمهاتهـم.

غـير مشـكل اللغـة المتـوارث بـين أبنـاء الضواحـي؛ لأنهـم يتحدثـون الأمازيغيـة في الأصـل والعربيـة هـي اللغـة الثانيـة، ولكـن النظـام التعليمـي يعتـبر لغتهـم الأم هـي العربيـة ويعتـبر اللغـة الفرنسـية لغـة ثانيـة ويضيـف الإنجليزيـة، فبـاقي المـواد الدراسـية لا تثقلهـم، ويجتهـدون ليكونـوا، يحاربـون بـلا سـلاح لينتـصروا عـلى الزمـن والقهـر والحـزن.

أسـامة يسـتيقظ متأخـرًا كعادتـه، يحـضر الحصـص المسـائية فقـط، لا يسـتطيع أن يسـتيقظ؛ لأنـه يسـهر كثـيرًا، البارحـة دخـل البيـت متأخـرًا أيضًـا، وكان في كامـل أناقتـه، وفي كامـل حزنـه،

دخـل غرفتـه وأدار موسـيقى هادئـة مـن هاتفـه، دخـن مـا دخـن ونـام كأي حائـر.

لذلك سيستيقظ بعد الظهر ليلتحق بالجامعة.

تـدور الأيـام وتسـتمر الحيـاة، البيـت في حـراك دائـم، الكتـب والدراسـة وحيثيـات اليـوم الصعـب، وبعـض القلـق.

بعـد الرابعـة يخـرج ياسـين رفقـة كريمـة في جولة حول الأسـوار سـيقضي معهـا وقتًـا حـتى غـروب الشـمس، يخـرج مـن الثانويـة وينتظرهـا قـرب بـاب البلاليـع حـتى تلتحـق بـه، يجلسـان خلـف السـور مبـاشرة، وراء نخلـة قصـيرة هنـاك، يتبـادلان الكثـير مـن الـكلام، ويتجـولان في المنطقـة المحيطـة بالسـور، مـا يجذبـه لهـا هـو هدوءهـا المثـير، لـون بشرتهـا أبيـض كالحليب المبسـتر، عيناهـا واسـعتان كقمـر.

هكـذا يصفهـا لأيـور، لكنـه لا يحبهـا، إنـه لا يعـرف معـنى الحـب، يخـرج معهـا فقـط، ليـس بالمعـنى الأمريـكي المترجـم لعبـارة يخـرج معهـا، لنقـل يرتـاح لهـا فهـو لـم ينبـس ببنـت حـب.

الثانويـة مـلأى بالجنسـانيات التائهـة والقصـص المـشردة لقلـوب حائـرة تنهكهـا العواطـف، تشردهـا العواصـف كأوراق شـجرة تـين في فصـل الخريـف؛ حيـث الحـب يطـرق لأول مـرة أبـواب قلـوب جديـدة، فتكـثر التعاريـف وتتضخـم التأويـلات، وكل يفهـم الحـب عـلى قيـاس وضعـه، الحـب إحسـاس عنـد البعـض، قبلـة عنـد الآخـر، نظـرة فقـط، وتتعـدد التعريفـات لإحسـاس واحـد.

هـي مستعدة لتمنحـه كل شيء، ولكنـه لا يريـد أي شيء الآن، يراقبهـا فقـط، ويضمهـا بحنـان كلمـا اقتربـت منـه، كانـت تبـدو لـه ثوبًـا أبيـض يكـره تلويثـه، لا بالحـب ولا بالقبـل ولا بالظـلام، كـم يحتـاج مـن الحـب ليتجنبهـا، كـم يحتـاج مـن الإيمـان ليقول لا لجسـد غـض في الثامنـة عـشر مـن الحلـم.

بقيـا قـرب السـور في بقعـة شـبه مظلمـة، يتحادثـان في كل شيء في الـدروس المملـة، أسـاتذة الثانويـة المتحرشـين بالفتيـات، الأسـتاذات المتبرجـزات بسـياراتهن تحـت الدَّيـن الحيـاتي الـذي يسـتمر عـشرات السـنوات، تحدثَـا عـن أيـور وشـخصيته الفريدة، وعـن كل مـا خطـر عـلى بالهمـا، حـتى طائـر السـنونو الـذي خـرج عـلى غـير عادتـه مـن عشـه بالسـور، راقبـاه حـتى عـاد لحضـن الـتراب.

بـدأت هـذه اللقـاءات منـذ التقاهـا في أول ينايـر في المكتبـة المدرسـية، تحمـل روايـة «أغمـات» ليوسـف فاضـل، واسـتعارها منهـا قبـل أن تعيدهـا، قـال لهـا:

-أريـد أن أقـرأ وراءك كي أشـم المعـاني الـتي أضافتهـا عينـاك للسـطور.

كان يريـد أن يشـم رائحتهـا عـلى الصفحـات، انبهـرت بـه أو بلغتـه، فقـد بـدا مختلفًـا عـن أولاد الثانويـة، بسراويلهـم المتدليـة المنزلقـة، وأحزمـة لباسـهم الداخـلي الـتي تظهـر الثلـث السـفلي للظهـر، كانـت تبحـث ربمـا عـن شـخصية روائيـة كالـتي اعتادتهـا وهـي القارئـة النهمـة الـتي عاشـت داخـل الروايـات أكـثر ممـا عاشـت خارجهـا، حـتى بـدا لهـا عالـم الثانويـة تافهًـا

حـد الغرابـة، فـكان ثقـل شـخصية ياسـين يجذبهـا، بالعمـق في نظراتـه، بـإصراره عـلى الحيـاة، وابتسـامته الدائمـة، جملتـه عـن تتبـع معـاني السـطور خلفهـا مثـيرة، ربمـا لـم يقصـد مـا قالـه، لكنهـا لـم تقـرأ جملـة كهـذه في روايـة مـن الروايـات الـتي مـرت تحـت قلبهـا، الشـبان عـادة يلقـون بشـباك دون أن يقصـدوا اصطيـاد قلـب؛ لذلـك ربمـا لـم يتقـدم ولـم يتراجـع عـن اعترافـه، وبقيـت العلاقـة بينهمـا في حـدود اللقـاء الأول، واللقـاءات المتكـررة، ولـم تمتـد لتصهـر الجسـدين ولا القلبـين في كانونهـا الـدافئ.

سألته يومًا عن أيور قائلة:

- كيف حال أيور؟ كم هو لطيف صديقك.

فقال لها:

- تركتـه يكتـب، بعـد كل قصيـدة يخـرج منهـكًا لا منتـصرًا ولا منهزمًـا، كأنـه تـرك نصـف جسـده بـين القـوافي.

فقالت:

- الدواخـل لا تتحطـم تلقائيًّـا، والحـروب لا تحـدث داخلهـا، إن الخـراب يتـسرب إليهـا مـن الخـارج، وكأن عليـه أن يبـني سـقفًا جديـدًا بعـد كل انهيـار لغـوي داخـل قصيـدة.

اسـتمرت تتحـدث عـن أيـور كأنهـا تعيـش معـه، ربمـا تلـك القصائـد القليلـة الـتي قـرأت لـه كافيـة لتقتحـم عبرهـا عالمـه، بـل مـا وراء عالمـه، ياسـين يحـب أن يقـرأ شـعر أيـور تحـت الأسـوار برفقتهـا، وكانـت تسـتمع لـه وكأنهـا تصـلي، تعـرف عمـق

أيـور ولا تعـرف سـطحه، وهـذا بسـبب الشـعر، لعنـة الشـعر الـتي تجعـل الإنسـان يتواصـل مـع الدواخـل ولا يـدرك الخـارج، فأنـت يمكنـك التواصـل مـع شـاعر مـن القـرن الثامـن عـشر وتنشـأ معـه علاقـة تفاهـم لغـوي لـم يجربهـا شـخص قبلـك، فتحبـه وتكرهـه وتغـار منـه أحيانًـا، وتعتقـد أن لا أحـد فهـم شـعره عـبر التاريـخ غـيرك أنـت، تنسـج معـه علاقـة روحيـة لا صلـة لهـا بالزمـان ولا بالمـكان ولا باللغـة، تشـتركان في إحسـاس خـاص اسـتطاع أن يعـبر عنـه هـو بـدلًا عنـك، فتظـل تلـك الجمـل المتنقلـة روحيًّـا تـسري مـن جسـد إلى جسـد وتهـب للعميقَـين فرصـة الحيـاة عـلى هامـش سـطحية الآخريـن، تقـول إن هنـاك في مـكان مـا وزمـان مـا رجـلًا مثلـك عـاش ليقـول لـك كلامًـا خاصًّـا تكفلـت النسـائم بإيصالـه لـك، وذلـك الشـاعر نفسـه يعـرف أن شـخصًا سـيولد في غـير زمانـه وسـيحب شـعره فتجـده يطعمـه بالرسـائل المشـفرة، رسـائل لقـارئ لـم يولـد بعـد.

وإلا لمـن كانـت الشـاعرة الأمريكيـة إميـلي ديكنسـون تكتـب تلـك القصائـد الـتي أخفتهـا بـين ثنايـا الأظرفـة وأغلفـة الرسـائل الـتي كانـت تتلقاهـا، وكانـت تكتبهـا بقلـم الرصـاص الـذي يمكـن أن يمحـى تحـت أي ظـرف، كلمـات قويـة عـلى شـكل خربشـات موزعـة عـلى مسـاحة الغـلاف وفي كل زاويـة منـه، تشـطيبات ورمـوز حيـة، توتـرات عاشـتها في وحدتهـا، كأنهـا تنتظـر ذلـك القـارئ المسـتقبلي الـذي سـيفهم كلماتهـا ويقدرهـا، ربمـا تكتـب لـلا أحـد، ولكـن هـذا مسـتحيل فالمعـنى لا بـد لـه مـن حامِلِين، مرسـل ومرسـل إليـه، ذات الـرداء الأبيـض إذن كانـت تكتـب

لشعب آخر بين غلاف وآخر، تكتب شعرًا قابلًا للإتلاف إذا لم يجد روحًا تهتم به.

قد يشعر ياسين ببعض الغيرة، فهي تتحدث عن الشعراء بقداسة الأولياء ورهبة القديسين، تقول إن حساسية أيور للغة مبكرة رغم صغر سنه.

ربطت كريمة علاقة لغوية مع أيور، كانت علاقتها إذن بياسين أقرب للصداقة منها للحب، فاعترافه المنتظر لم يحدث بعد، ما الذي جعله يقف عند عتبة قلبها فلا يدق الباب ولا يقتحمه؟ ما الذي منعه من الاسترسال في قصة حب عادية قد تستمر وقد تنقطع؟ رغم أنه يحتاجها حقًّا إلى جواره، وينتظرها كل مرة بلهف خفيف، ربما اعتادها فقط، والاعتياد على شخص أحيانًا يكون أقوى من الحب نفسه، ربما اعتقد أنه لن يخسرها يومًا ما دامت مشدودة إلى علاقتها به، يؤكد دومًا لأيور أنه لا يحبها، ولكنه في نفس الوقت لا يجرؤ على الابتعاد عنها.

حدث ذات غروب والمدينة تودع نهارًا ساخنًا من أواخر مارس، حين بكَّر الربيع واكتست الحديقة خضرة ونظرة، تأخر ياسين وكريمة في جلستهما المسائية، وكانت تقعد إلى جواره، ولكنها اقتربت أكثر هذه المرة وأسندت رأسها إلى كتفه، إلى أن مست جبهتها عنقه، وكانت مرتبكة وحقنته بارتباكها، تسمَّر في مكانه ولم ينفعل، مما زادها ارتباكًا وجنونًا فالتصقت به أكثر.

وكانت فوقهما نخلة تميل ميلًا خفيفًا إلى السور حركتها

ريح غربية دافئة مما أسقط بعض تمرها عليه فما كان له إلا أن يلتقط ما جاد به صدرها.

يجب أن نسدل الستار على الارتباك وأن نترك شابًّا في سن ياسين يتصرف على طريقته.

عاد إلى البيت متوترًا فحكى لأيور عن كريمة وغرابة أطوارها اليوم، قال له إنها بدت راغبة في البقاء معه حين فجأة تعكر مزاجه، وأنهى جولتهما المعتادة في صمت أشبه بالجنازة.

هو لا يحبها ولكن للجسد منطق آخر وحسابات مربكة، فالذاكرة تحمل معها صور الالتصاق والشفاه المرتعشة، والحركات الربيعية والعيون الذابلة، الذاكرة والصور في مواجهة الجسد، وياسين تمنعه مروءة في داخله ولا يريد تلويث ثوب أبيض.

أخبره أيور أنها تستعمل آخر أسلحة المرأة معه؛ لأنها مصرة على الإيقاع بقلبه، كما لتبرهن له أن الحجر يذوب مهما كانت صلابته، وأن المرأة وحدها قادرة على تليين الحديد بالوقت والانتظار.

مساء عادي جدًّا رغم التأخر في العودة للبيت، بعد التاسعة مباشرة تناول الصديقان حساء أمي زهرة، وشطيرة السردين عند عبد الرحمن، وعادَا إلى غرفتهما الرطبة، مرورًا بالصابة المظلمة لسيدي وسيدي المغطاة بالقصب المدعم بألواح الخشب، والباب الواطئ للمنزل السفلي، أيور دخل فراشه رفقة مدن الملح، وهو ينظر بسمعه إلى حالة ياسين

دون أن يحادثـه أكـثر.

ياسـين يحمـل في عينيـه شـفاه كريمـة، ويـتردد في قطـع علاقتـه معهـا، مـا يحـيره أنـه متأكـد تمامًـا أنـه لا يحبهـا، وكثـيرًا مـا ردد عـلى مسـمع أيـور أنـه لـن يقبـل فتـاة لا يحبهـا، ففـي الأمـر إهانـة للحـب والقبلـة معًـا، لا يريـد أن يجهـد نفسـه في التفكـير، فالجسـد لا يفكـر وترسـانة الرومانسـيات الـتي بناهـا بقلبـه وعقلـه رفقـة الروايـات الرعويـة لا تصلـح بعيـدًا عـن الحـب، تعريفـه للحـب إذن يقـع في معجـم متعـالٍ عـن الجسـد، في الحـرف السـابع والعشريـن مـن الأبجديـة العربيـة الـتي أسسـت للحـب بعيـدًا عـن القبلـة وجعلـت لـه صنفـين، حـبٌّ عـذري مرتبـط بالـروح، وحـبٌّ شـهواني مرتبـط بالجسـد، فـكان لا بـد لـكل عـربي أكـثر مـن امـرأة ليمـارس معهـا كل صنـف عـلى حـدة، مـا الـذي دفعـه ليلقـي شـباكه أول الأمـر مـا دام لا يريـد سـمكًا؟ أي نـزق للشـباب، كان -ربمـا- يراهـن عـلى رفضهـا، يراهـن عـلى التمنـع الأولي لأي أنـثى.

- هل تعتقد أني يجب أن أقبلها وأضمها؟

- لا أدري إنها مسألة حميمية.

رتـاج النقـاش تقـدم وانزلـق ليقفـل بـاب الموضـوع، وتقـدم الليـل أيضًـا، نـام أيـور ولـم ينـم ياسـين، كانـت الصـور تحيـط بـه، تمنعـه مـن الهـدوء والسـكينة، الجسـد متقلـب المـزاج وصهـد في الداخـل، القبلـة لا تبلـل الشـفاه بالرضـاب بـل تبلـل الـروح، وتعشـش كطائـر السـنونو في عمـق السـور دون أن تدمره، السـور لا ينحـني ليقبـل النخلـة فقـد يتدمـر التاريـخ مـن أجـل

شـهوة عابـرة.

-٥-

ساعتان بعد منتصف الليل وياسين يتقلب في فراشه، لم ينم ولم يستيقظ، ظلت صورتها تحوم حوله كطيف، لو أنه لم ينزعج فجأة ولم يقم من مكانه، لو أنه فقط تحدث معها في الموضوع، ولم يصمت ذلك الصمت الجنائزي المريب.

لو ليست في التاريخ.

سمع أزيز الباب الخارجي، وخطوات أيمن ثقيلة أكثر من العادة، يتجه إلى المطبخ ويصب في حلقه هدير الأوعية ماء يسمع صوت انصبابه داخل جوفه، ويلج غرفته، يشغل موسيقى خفيفة من هاتفه النقال الجديد، تهرب خيوط الموسيقى إلى أذن ياسين النائم المستيقظ، فتنضاف آهات الشاب حسني إلى أرقه،

ما ضنيتش نتفارقو

من بعد عشرتنا

يا اختي ولفتك

وأنتي ولفتيني.

قام ياسين من مضجعه، نظر إلى أيور الذي يغطُّ في نوم عميق كطفل، فابتسم بفرح، أيور مصدر فرح حقيقي،

اتجـه نحـو غرفـة أيمـن يـدق بابهـا بلطـف، فتـح لـه أيمـن البـاب واسـتقبله بعنـاق خفيـف، وقـال لـه:

- أنت من الساهرين؟

- مـن السـاهرين، تفضـل بالجلـوس، خـذ مكانًـا، أتمـنى أني لـم أزعجك بالموسـيقى.

- لا أبدًا خذ راحتك، اليوم منذور للأرق.

يرتـدي أيمـن شـورتًا أزرق غامقًـا ومخططًـا بالأبيـض، فجـو الغرفـة خانـق بسـبب الرطوبـة، رغـم انخفـاض الحـرارة، وضـع مزيـلًا للعـرق، فهـو لا يسـتطيع أخـذ حمـام في هـذا الوقـت المتأخـر،

نظر أيمن إلى ياسين وسأله:

- لم السهر؟ الليل للعشاق.

- مـا أنـا متأكـد منـه مائـة بالمائـة أني لسـت عاشـقًا، ولكـن سـهري مـن سـهر العشـاق.

الليـل للحيـارى، ذوي الاحتياجـات العاطفيـة الخاصـة، الليـل لغربـاء النـوم، مـن أصحـاب محـلات مراقبـة النجـوم، مـا عـاد لليـل دفء الحالمـين ولا سـكينة المسـافرين عـبر التأمـل، الليـل للحيـارى للغائبـين عـن أنفسـهم.

- كيف هو أيور؟

- أيور نائم، كان يومه متعبًا.

- أنـا دخلـت للتـو، كانـت ليلـة غريبـة، غـادرت البيـت ولـم

أغـادره، مـا رأيـك بي؟

- كيـف؟ مـا رأيي بـك؟! أنـت إنسـان طيـب وصديـق لـم نـر منـك إلا خـيرًا في خـير.

- أنا لست كذلك أنا لست طيبًا.

- لم تقول هذا؟

- لأنها الحقيقة.

- لا أعتقد أنها حقيقة.

- لا يهم ما تعتقده أنت، المهم أنها حقيقتي أنا.

في الليـل تنحبـس الأفـكار داخـل الجماجـم كمـا ينحبـس الهواء الرطـب في هـذه الغرفـة المختنقـة بالأحلام.

غادر البيت دون أن يغادره.

تنـاول سـيجارة مـن علبـة كانـت ملقـاة بجـواره قـرب الفـراش، واسـتأذن ياسـين في التدخـين، دخـنَّ بهـدوء عميـق كمحـترف سـجائر، رغـم أنـه لـم يبـدأ هـذه العـادة إلا قبـل شـهرين.

سـنتناول كسكسًـا عـلى الغـذاء، حـاول أن تـأتي مبكـرًا وأحـضر معـك أيـور، نريـد أن نجتمـع حـول طبـق مـرة واحـدة في الشـهر عـلى الأقـل.

- ومن أين لنا بالكسكس؟

- ستحضره السيدة راضية زوجة صاحب البيت.

- هـذه أول مـرة، المهـم اتفقنـا عـلى ذلـك، فليكـن غـذاءً

مبـاركًا ليـوم مبـارك.

- المهم أنه غذاء.

ضحـك الاثنـان، وراحَـا ينصتـان للشـاب حسـني مـن جديـد، وبـدأ التعـب يتسـلل إلى عيونهمـا، انسـحب ياسـين إلى غرفتـه، وبقـي أيمـن ينفـث دخـان سـيجارته الثانيـة، وهـو شـارد الذهـن.

غادر البيت ولم يغادره.

غـدًا سيسـتقبل صديقًـا لـه في غرفتـه، تعـرَّف إليـه عـبر الدردشـة الفيسـبوكية، وجـاء لقضـاء يومـين في تارودانـت، هـو مـن مدينـة تزنيـت، مسـقط رأس أيمـن، كان قـد زاره قبـلًا ومكـث معـه أسـبوعًا كامـلًا.

نام أيمن بعد السيجارة الثانية.

ونامت الجدران ونام الليل وكان صمت.

مـا يريـده كل إنسـان مـن الليـل هـو النـوم، أن ينـام بسرعـة، دون إحسـاس بضيـاع السـاعات أرقًـا، أي إنسـان إنمـا يتوجـه للوسـادة كي يستسـلم للمـوت، كي يرسـو عـلى شـطآن الراحـة الجسـدية، دون ضجيـج، دون تقلبـات ودون مواجـع، لا يحـدث هـذا دائمًـا، فبعـض المواجـع والأحاسـيس تنتظـر أن يحـط الـرأس عـلى الوسـادة كي تسـتيقظ وتنشـط فـوق سـقف الغرفـة، وترقـص رقصًـا، تنتظـر أن يكـون هنـاك وقـت يضعـف فيـه الجسـد كي تسـتشري بـين الـرؤى والأحـلام والتعـب. في الليـل تنمـو الفواجـع كأنهـا تتغـذى بالظـلام والصمـت وأصحـاب القلـوب المملـوءة بؤسًـا، فقـط يشـعرون بمـا يشـبه الانكسـار

قبل النوم، كأنهم أمام معركة جديدة ضد الصور والمرايا والانعكاسات والمراثي النهارية.

أحيانًا نستيقظ وتستيقظ معنا جيوش الأحلام والكوابيس والهموم، تفطر معنا وتسير جنبنا لترافقنا لمقاعد الدراسة، تظل تلك الأشياء ملتصقة بنا طوال اليوم كظلنا تتشكل بتشكلنا، وغالبًا ما تنبعج لتعبر عن دواخلنا لا عن مظهرنا.

ولكن الليل لا ينتصر دائمًا على الإنسان فقد يحدث أن تهدأ الأرواح وتستكين للفجر والشمس.

والبيت الرطب ما زال يحوي أجسادًا رطبة، تطل بخجل على عقدها الثالث، خارجة للتو من مراهقة مستنقعية، حائرة، وفقيرة كحذاء متسول، إنهم نائمون كأنهم يسبحون في مرج فوق سحاب أبيض ناعم، يأخذون طاقة كافية ليكملوا الحياة، أو ما تبقى في هذه الحياة، سفينة تسير وأجساد تكبر وأحلام تتحقق وأخرى تندثر وتموت كبويضة لم تخصب.

ما دامت العين تغفو فهناك فسحة أمل، والقوافل تستريح في عمق الصحراء، لكنها تستمر في المسير حتى تصل إلى الواحات المرغوبة.

صدئة جدًّا تلك القلوب التي لا تنام، أو التي تنام اغتيالًا بمخدر أو منوم.

كقلوب القطط المشردة التي تموء ليلًا، وهي تتنقل بين دروب المدينة، تخرج من حي «تدجنت» قرب ضريح

سيدي وسيدي وتدخل عبر الصابة المظلمة لتركض في ساحة الأندلس، تجتمع قرب محل بيع شطائر السمك المفروم لتتشمم بقاياه، بقايا أقدام العابرين وتلعق ما تبقى من ماء السردين على أرصفة الطرقات.

كذلك بعض القلوب المشردة، لا وطن لها غير لفائف الحشيش، وأنخاب ماء الحياة، أو معجون مسكر وخليط زيت الكيف، وأشياء أخرى تبدو أحن على الذاكرة من التذكر وأقرب إلى الموت والغياب والنسيان منها إلى الحياة.

كقلب أسامة الذي لم يعد هذا المساء لغرفته، لم يذهب إلى الجامعة، بل إلى مدينة أكادير؛ حيث قضى النهار والليل هناك، قلب متسكع الرحلات، قلب ضبابي الغموض، يدري ما لا يريد، هذه هي الحقيقة التي استنتجها أيور من حديث البوح، الشفاف والثقيل.

سيدخل حوالي العاشرة صباحًا ليختبيء داخل غرفته، وينام حتى المساء، لن يحدِّث أحدًا ولن يستيقظ رغم جلبة الطلبة وقت الغذاء، بعد ذلك يتناول المأكولات التي جلبها من أسواق السلام الكبرى بأكادير، ويسهر منكبًّا على كتبه حتى الفجر، يعمل بجد على دروسه، كتابة وتمرينًا وتلخيصًا وحفظًا.

-٦-

صباح جديد إذن، لا يحتاج منا كلامًا، ما دامت الأشياء تتحدث من حولك، فأنت تسير فقط وتنظر إلى الحركة تدب في الأرجاء، الخضارون بالسوق القديمة يعدون الخضر، يضعونها في مجموعات من ثلاث ثمرات تسمى كل مجموعة حزمة ، بدرهم واحد للحزمة، إنه سوق الفقراء، يمكنك يوم الجمعة أن تحصل على ثلاث حبات جزر ولفت وقطعة قرع وفلفل وطماطم وبصل بخمسة دراهم فقط، غالبًا ما تكون الخضر غير طازجة تمامًا، ولكنها تصلح لصنع طبق الجمعة، النسوة يتكلفن بشراء الخضر غالبًا، يضغطن على الجزرة، يتشممنها، يذقنها وقد يتغامزن حولها مع الخضار، خصوصًا إن كان من النوع النزق كبعض فقهائنا المشهورين الذين يخلطون بين جزرة وجزرة.

أصحاب عربات النعناع والبقدونس والكزبرة، وباقات أخرى من المنسمات، يبدأون في عرض سلعهم الخضراء.

يصطف المتسولون قرب الضريح وعلى جنبات مسجد سيدي وسيدي، وعلى طول حائط الزاوية، إنه يومهم المبارك.

ياسين استيقظ متأخرًا، ليس لديه أي درس اليوم، ما أن فتح عينيه حتى بدأت صورها تحوم حوله من جديد، تعجب من

نفسه، هو الذي يستيقظ خالي الذهن، ولا ينتبه لأحواله إلا بعد أن يغسل وجهه، ها هو يستيقظ وذهنه يسرع في بث صور الأمس التي ظلت تلاحقه حتى اقترب الفجر، بعض الأفكار لا تنام، تبقى قربك حتى تستيقظ لتمد يدها لك من جديد، هي ملحة جدًّا، تبدأ عند آخر سطر تركتَها فيه قبل النوم.

يطارده شبح كريمة كلعنة، في المرآة فوق المغسل، على الجدران، وحتى في حبات الزيتون وكوب الشاي الدافئ، كخدها الذي احمر وتوهج تحت حمرة الغروب ودفء الأسوار، ها هي تسكنه، استعملت السلاح الأخير لكل امرأة تود الإيقاع بأعتى الرجال، تقدم له نفسها في طبق ساخن.

كم يحتاج من الإيمان كي ينساها؟

في العشرين من العمر حين تحبك امرأة ينتج جسدك مضادات الرفض، لا يمكنك أن ترفض، لا دخل للقلب بالمسألة، فكل عضو يتحول إلى قلب، للعين قلب، للشفاه قلب، للصدر قلب، للأصابع قلب، للعنق قلب، وكل قلب يطالب بحقه في الوصال.

يتنقل ياسين بين الغرفة والمطبخ والمرحاض وهو مندهش من نفسه، يحدث في داخله شيء لا يستطيع وصفه، ليس هو عنف المراهقة الأولى ولا صدمة القبلة الأولى، بل هي الحيرة التي تولد حين ينفصل القلب عن الجسد، ويحصل هذا الأخير على استقلاله فتصبح خلاياه متمردة، تدخل في حلف حرابة ضد مبدأ الحب، عندها فقط يتسرب منطق آخر إلى

شاب في الباكالوريا، منطق من ثلاثة أحرف يسمى «جنس»، له مواصفات جديدة وممرات سرية أخرى توصِّل إلى دروب الشهوة والفعل اللذيذ الذي يقف له التاريخ أحيانًا.

يعبر ياسين بتثاقل رغم أنه لا توجد مسافة بين غرف البيت، فلا يوجد ممر ولا باحة، يجلس على فراشه ويمروح على وجهه بدفتر من فئة أربع وعشرين ورقة.

من يقود الجسد، الحب أم الجنس؟

أيور الذي خرج مبكرًا كعادته ليدرس بالحديقة العمومية، لأن قلة الإضاءة بالغرفة صباحًا لا تسمح له بالقراءة، عاد في العاشرة ليجد صديقه مرميًّا على فراشه، فاغرًا فاه فاتحًا عينيه اللتين يبدو عليهما السهر.

فقال له:

- تبدو عليك علامات الحب كطيور الربيع.

وانفجر ضاحكًا، الشيء الذي زاد من اندهاش ياسين من نفسه، فبدأ يلمس وجهه كأنه يحاول مسح علامات الحب البادية للعيان.

بعد ساعة، دق أحدهم باب المنزل، فتحه أيور ليجد رجلًا في الثلاثين من العمر يسأل عن أيمن، دعاه للدخول في انتظار أن يوقظه، جلس الرجل في الغرفة قرب ياسين في تواضع جميل رغم أناقة لباسه التي تدل على أنه ميسور الحال، طقم كلاسيكي رمادي وقميص أسود مكوي بعناية، حذاء ملمع كوجهه الأسمر، جوربان من ماركة مشهورة تبدو

عليهما علامة المصمم.

دق باب غرفة أيمن ليطلبه بضربات خفيفة لم توقظه لذلك فتح الباب ودخل بلطف ليحركه:

- هناك ضيف ينتظرك، استيقظ يا أيمن.

- اه، شكرًا أنا حقًّا في انتظار صديق لي من البليدة.

- لقد وصل، إنه بغرفتنا.

- أنا آت. أشكرك.

نظر الضيف حوله وقال ليمد الحديث لهما:

- كيف حالكم مع الدراسة؟

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام.

دخل أيمن وسلم على صديقه وعانقه بشدة، كأن بينهما تاريخًا من الصحبة، وهذا ما اعتبره ياسين وأيور أمرًا غريبًا، وأرجعوه إلى كونه قد شم فيه رائحة مدينته، وربما قريته، انسحب الاثنان إلى غرفة أيمن ليستمرَّا في الحديث عن الدراسة والعمل والحياة حتى عاد المصلون من صلاة الجمعة.

أحضر ابن راضية قصعة من الثريد بالدجاج البلدي تكفي عشرة أفراد، اجتمع حولها الطلبة ومعهم ضيفهم الثلاثيني الأنيق الذي ملأ الجو ضحكًا ونكاتًا، كانت أغلبها بذيئة تأفف منها أيور بسبب طبعه الخجول.

بعد ذلك غادر الجميع البيت متجهين إلى قضاء أغراضهم،

رافـق أيمـن صديقـه وخرجَـا في جولـة بالمدينـة، لرشـيد أجنـدة عامـرة هـذه المـرة، وربمـا عليـه أن يحـضر كل خمسـة عـشر يومًـا ليتـمر مهماتـه هنـا، هـذه المدينـة السـعيدة الـتي ينقصهـا الحـب عـلى حـد تعبـيره، وكأنـه مديـر شركـة عالميـة لتصديـر المشـاعر النبيلـة.

ياسـين وأيـور اتجهـا للثانويـة وبعدهـا لمكتبـة القـاضي عيـاض لاسـتبدال رواياتهـم بروايـات جديـدة؛ حيـث حصـل أيـور عـلى الجـزء الثـاني مـن مـدن الملـح، وحصـل ياسـين عـلى روايـة أغمـات ليوسـف فاضـل، وعـادَا معًـا بعـد اقتنـاء شـطائر السردين المفـروم عنـد عبـد الرحمـن.

عـادَا معًـا، لـم يفكـر ياسـين في كريمـة طيلـة مـا بعـد الظهـر، ربمـا لأن رفقـة صديقـه ألهتـه عـن التفكـير في ذلـك، لكـن حمـرة المسـاء ذكرتـه أن عليـه أن يسـهر مـرة أخـرى رفقـة طيفهـا الملح.

-٧-

مساء ربيعي هادئ بمدينة تارودانت، حرارة معتدلة تسمح للشارع بأن يرتدي ملابس خفيفة ويحتفي بالجولان، المدينة شابة جدًّا، الشارع طفل يتقافز، إنها مدينة رقيقة، خافتة الخطى، خصوصًا مع انسحاب النهار وانبساط الليل، مدينة تجعلك تفكر وتتأمل، في صمت، فالسور يتحدث باسمك والأزقة الضيقة والأبواب القديمة وشبابيك النوافذ، عليك أن تسير فقط وتشم عبق الماضي، وتستكين للروتين والتكرار، فالمدن الصغيرة وحدها تسمح لك برؤية نفس الوجوه مرات في اليوم، فتشعر بالألفة والراحة التي تخلقها الأجواء الدافئة والوجوه العادية المبتسمة دومًا، إنه شارع يرحب بك ويحضنك.

هذا ما تشعر به وأنت تسير في مجمع الأحباب مرورًا عبر طريق معهد التعليم الأصيل وساحة الأندلس، وهو عصب المدينة، منه يمر الجميع وعلى طوله مقاهٍ ومطاعم كثيرة ومحلات ملابس وغيرها.

ما يعطي للشارع حيويته هن تلميذات المعهد، هن ملح هذا العصب وسكره، كما تشكل النسوة المكتنزات ملح سوق جنان الجامع بجلابيبهن الملونة الممتلئة وحركاتهن المتمرغة في الشبق التاريخي لنسوة المجتمعات التاريخية، وهن يحادثن صاحب المحل أو مساعده غالبًا، وهن يقسن الثوب

أو يخـترن قطعـة داخليـة مسـتفسرات البائـع عـن رأيـه وعـن المقـاس المناسـب لصدورهـن، وهـو يتعمـد أن يخطئ ويعطي دائمًـا مقاسًـا أصغـر، حـتى تعـدن لتغيرنـه في الغـد.

كل هـذا يثـير رشـيد، الضيـف الـذي زار أيمـن مـن مدينـة تزنيـت، يقـول إن تزنيـت تنـام باكـرًا، ولا تـترك فرصـة التمتـع بالسـاعات الأولى مـن الليـل، ويقـول إن جنـان الجامـع، هـذا السـوق التاريخي، لا مثيـل لـه بالمغرب، إنـه مـليء بالأربعينيات ذوات الصـدور الحنونـة والسـخية، وهـي نعمـة عـلى الجميـع التمتـع بهـا.

كان هـذا حـواره مـع أيمـن الـذي أصبـح يـرى المدينـة بشـكل آخـر، ورائحـة الحنـاء والبخـور والتوابـل والملابـس والشـيح والزعـتر والصابـون البلـدي أصبحـت تثـير لديـه رغبـة في معانقـة النسـاء في جنـان الجامـع والاحتـكاك بهـن وهـن يضربـن بالتاريـخ يمينًـا ويسـارًا.

كثـير مـن المحـلات بهـذا السـوق مقسـمة إلى قسـمين، يفصـل بينهمـا بـاب أو سـتارة سـميكة أو عليـة بـدون سـلم، ومخـدع تجريـب الملابـس غالبًـا مـا يـؤدي إلى محـل مخفـي بعنايـة في الداخـل.

دروب سريـة للشـهوة تحتفـي بمـا وراء الظاهـر لتسـكن الهوامـش والخـوافي، وتسـتشري في عالـم سري مغلـق، مـواز لعالـم الظواهـر، كغيبيـات إنسـانية، كالخيبـات غـير المعلنـة، وراء السـتائر المنقوشـة بالصمـت والاختفـاء والهـروب.

الرغبـة تضـع لنفسـها مناطـق محميـة ضـد النظـر، منفلتـة مـن

المناطـق المنكوبـة لحـروب الكبـت وعـدم الشـبع، كمحرمـات لذيـذة تبـني نفسـها بـين اللـذة والخـوف، والرعشـة السريعـة الهاربـة، الجـوع القاتـل الـذي ينخـر الدواخـل يظهـر في حـواشي الحيـاة ليقـول أريـد أن أكـون، أريـد أن أشـبع، كل جسـد حـي يقـول في ثـورة شـعبية أريـد أن أكـون.

قبـل شـهرين حـين عمـل أيمـن مـع زوج راضيـة في محـل بيـع الملابـس النسـائية، لاحظ أن السـقيفة تـؤدي إلى غرفة في السـطح كان يسـتريح فيهـا صاحـب المحـل عنـد الظهـيرة؛ لأنـه يفضـل البقـاء في السـوق بـدلًا مـن الذهـاب للبيـت؛ حيـث هـرج الأولاد كمـا يقـول، يـدرس أيمـن أربعـة أيـام فقـط ويقـضي البـاقي في المحـل، صاحـب البيـت هـو نفسـه مشـغله، يفضـل أن يسـميه زوج راضيـة بـدلًا مـن سي عـلال، رجـل سـتيني، تاجـر قديـم في السـوق، خبرتـه واسـعة في المسـاومة والبيـع، حـين طلـب منـه أيمـن العمـل عنـده لـم يـتردد، بـل أصبـح يعتمـد عليـه دائمًـا خصوصًـا في أيـام العطـل المدرسـية.

أسـامة لـم يـبرح غرفتـه منـذ الصبـاح، يـدرس وينـام ويسـتمع للموسـيقى، يسـمعه أيـور حـين يتمطـط بقـوة مصـدرًا صوتًـا، يفرقـع ظهـره ويمطـط يديـه وعنقـه، يركـز جيـدًا عـلى دروسـه ليعـوض مـا يفوتـه كل أسـبوع مـن دروس جامعيـة.

ليـل الطلبـة عنيـف جـدًّا والثريـد الـذي أحضرتـه راضيـة لـه مفعـول الشـمس، التوابـل السـحرية ورأس الحانـوت، نكـت وحكايـا رشـيد، وتعليقاتـه عـلى الثريـد موجهًـا الـكلام لأيمـن:

- راضية هذه صاروخ وقادر علة منطقة.

كانـا وحدهمـا بالغرفـة، ياسـين وأيـور لـم يدخـلا بعـد، سـيتجولان في الخـارج حـتى منتصـف الليـل، عـادة مـا يفعـلان ذلـك، يتحدثـا في كل شيء، حـتى يغلبهمـا النـوم عـلى كـرسي في الحديقـة أو متكئـين عـلى السـور أو فـوق بـاب السلسـلة.

لغـة رشـيد كلهـا إيحـاءات يسـهل حملهـا محمـل الطيـش ؛ لذلـك ينجـذب إليـه أيمـن، ويظـل يضحـك مـن مزاحـه وتعليقاته الـتي تنتهـي دائمًـا في حجـر أنـثى.

حديـث الرجـال فيمـا بينهمـا عـن الجنـس يولـد تلـك الرغبـة اللعينـة في الإمسـاك بـرأس الحكايـة، إن الحـكي هـو مـا يعطـي تلـك الهالـة للرغبـة، وليـس الفعـل ذاتـه الـذي ينتهـي بالفـراغ، رشـيد يحـكي مغامراتـه لأيمـن، يضيـف بعـض الشـهريارية لجسـده، وينفـخ في دنجوانيتـه، أيمـن يصـدق، فالحديـث عـن الجنـس فعـل جنـسي آخـر لـه اسـتعمالاته وإمكاناتـه المتعبـة.

لفافـة حشـيش رابعـة لرشـيد، بعدهـا سـيخرج في منتصـف الليـل، يرافقـه أيمـن لبـاب الخميـس التاريخـي، وتحـت الصابـة يلتقيـان صدفـة بأيـور وياسـين عائديـن مـن جولتهمـا.

رشـيد لديـه أجنـدة عامـرة، زوجـة سـائق الشـاحنة الـذي يعمل ليـلًا تنتظـره، تـترك البـاب مفتوحًـا كي يدفعـه بخفـة وهـو يدخـل كي لا يشـعر الجـيران بدخولـه الغريـب، وسـيخرج قبـل الفجـر، كلـص الشـهوة، يـسرق مـن الليـل طرفًـا محـددًا ليعيشـه مـع زوجـة السـائق الـتي تضـع لأطفالهـا منومًـا كي لا يسـتيقظوا فجـأة ويباغتوهـا بطلباتهـم الليليـة.

كل مـا تحـب أن تسـمعه هـو أن بنـات الشـمال لسـن أفضـل

منهـا، هـي الجنوبيـة السـمراء، تنتهـي حصتهـا دائمًـا بالهذيـان، تقـول:

- الأحمـق يضـع في كل مدينـة أنـثى، يعتقـد أني حمقـاء، هاتفـه مـليء بأرقـام العاهـرات، مـن كل المـدن الـتي يمـر منهـا، حـين تنتهـي رحلتـه في طنجـة يبيـت الليـل مـع الصفـراء الشـمالية، عليـه اللعنـة.

يعـود رشـيد بعـد الفجـر، يسـتعمل المفتـاح الـذي تركـه أيمـن معـه، ويدخـل في صمـت لينـام في فـراش إضـافي أعـده أيمـن، ينـام حـتى الظهـر.

ياسـين وأيـور نامَـا رغـم تأثـير الثريـد الملـكي، نامَـا مغتالـين بمـدن الملـح وقصائـد نجيـب سرور.

أسـامة لـم يخـرج مـن غرفتـه كأنـه في سـبات دراسي، يمكـن أن نقـول عنـه غريـب الأطـوار، يظـل لصيقًـا بحاسـوبه وكتبـه، فهـو لا يغـادر غرفتـه إلا ليحـضر بعـض الحصـص الدراسـية أو ليذهـب لمدينـة أكاديـر نهايـة كل أسـبوع.

عـاد أيمـن في الحاديـة عـشر، أعطـاه سي عـلال عطلـة لبقيـة اليـوم وطلـب منـه الاسـتعداد ليـوم الأحـد الـذي يتطلـب عمـلًا مضاعفًـا، فهـو يـوم السـوق الأسـبوعي، حـين عـاد إلى البيـت التقـى راضيـة تحـت صابـة سـيدي وسـيدي، تحمـل قفـة بلاسـتيكية بهـا وجبـة غـذاء سي عـلال، أحضرتـه باكـرًا عـلى غـير العـادة؛ لأنهـا سـتذهب في زيـارة لأمهـا بحـي القصبـة، اقـترح عليهـا القيـام بالمهمـة بـدلًا فقبلـت بذلـك، ثـم سـألته وهـي تبتسـم:

- لم تقل لي رأيك في الثريد البلدي؟

- كان لذيذًا، لكنه ليس ألذ منك.

ضحكت ضحكة انتفخت لها خدودها السمينة، وظهرت أسنانها البيضاء المتراصة رغم الظلام تحت الصابة، ثم استدارت تمشي وهي تضرب التاريخ يمينًا ويسارًا، تزن مرتين أكثر من وزن أيمن الذي يبدو أمامها طفلًا شرها أمام حلوى.

حين وصل إلى جنان الجامع نزل عبر السلالم الإسمنتية واستدار يسارًا ليصل إلى المحل، ولكنه وجد عصا المكنسة أمام الباب، وهي إشارة معروفة تدل على أن صاحب المحل غير موجود ولا يجوز الدخول إلى المحل؛ لذلك أخذ كرسيًّا من المحل المجاور وجلس عليه ينتظر ظهور سي علال.

بعد نصف ساعة تقريبًا، لاحظ أن عصا المكنسة لم تعد موجودة، ربما انشغل بحديثه مع التاجر الآخر ولم يلحظ عودة سي علال ودخوله.

في المحل فتاة في العشرين من عمرها تختار بيجامة من الموبر الناعم، وملابس داخلية، في فرح خرجت دون أن تدفع لسي علال ثمن الملابس، بل غمزته بخفة وهي راحلة، أما سي علال فقد صعد للعلية ليرتب فوضى الأسرار الحمراء، وقد علا وهج أحمر وجهه بعد أن شرب من كأس الشباب. أيمن لا تفوته حركات سي علال، يعرف جيدًا أن الرجل الستيني مراهق في داخله، وأن السقيفة المقفلة تحضن عقود الموت اختناقًا بالشهوة.

وقـف طويـلًا وهـو مسـمر أمـام المحـل، نظـر إلى المشـهد بعجـب مشـوب بالتقبـل الممنـوع، فقـد كان يعلـم أن السـقيفة المقفلـة في وجهـه تخفـي عالمًـا موازيًـا، حـين وجـد نفسـه أمـام الموقـف مبـاشرة حـاول أن يتراجـع، ولكنـه في مهمـة وعليـه أن يوصـل السـلة لـسي عـلال ويعـود، بـدت لـه شـخصية ربِّ عملـه كزجـاج أسـود لـه وجهـان، وجـه مـشرق يحمـل سـطيلة الوضـوء كل صبـاح وكل ظهـر وعـصر، ووجـه أسـود يرتـدي قناعًـا حـين يصعـد إلى العليـة، كان أيمـن يتلعثـم مـن فـرط دهشـته وكاد يفـرغ محتـوى السـلة عـلى الملابـس المرتبـة أمـام بـاب المحـل، تماسـك رغـم ذلـك، وبقـي ينظـر إلى خيـوط لحيـة الحـاج وهـي تتحـول إلى أسـلاك شـائكة تصـدأ شـيئًا فشـيئًا، وفي غمـرة سـهوه رأى بيـدر قريتـه وراء بيـت عائلتـه ورأى تبنًـا تـذروه الريـاح.

انحنى يسلم على الحاج الذي رد التحية قائلًا:

- بارك الله فيك يا بني.

رحـل أيمـن وهـو يدخـن سـيجارته بعصبيـة، بحقـارة، كأنـه ينفـث نـارًا مـن جوفـه وليـس دخـان سـجائر.

-٨-

مساء السبت في الحديقة العمومية تغطيه أقنعة الموظفين ببذاتهم الرياضية التي لا يتريضون فيها أبدًا، بعربات أطفالهم ومرضعاتهم ولعبهم وعطشهم الأسبوعي للارتماء على العشب والتراب، متسولة تجر عربة أطفال مهترئة تضع عليها كومة ملابس وعلب سجائر قصد البيع، وهي في الحقيقة عاهرة قديمة بالمدينة تحمل معها صور العاهرات وتعرضها على الزبائن في الحديقة العمومية، تأخذ حصتها في عين المكان وتعطيهم رقم الهاتف، وهناك عربة مثلجات ملونة كقلوب الأطفال المتحلقين حولها.

ياسين وأيور يجمعان كتبهما بعد حصة مراجعة استمرت من العصر إلى ما قبل غروب الشمس، يتمططان تعبًا من استلقائهما مدة طويلة تحت شجرة التوت.

لمسة حزن غامض وروتيني تغطي وجه أيور، حزن الشعراء كما يسميه صديقه، النوع الذي يضفي على الشخصية عمقًا خفيفًا يجعلك تميز الشاعر عن الإنسان العادي الشاعر الذي يرى ما لا يراه الآخرون فقط، الشاعر لا يكتب في لحظة حزنه القصوى دائمًا، بل يكتب أيضًا في حالة بلوغ تأملاته مبلغ الكتابة، درجة الوجد الحرفي على الورق، تلك النقطة من الرغبة في التخطيط التي لا يستطيع الشاعر نفسه وصفها وهي تهجم عليه دون سابق إنذار حتى لو عقد معها

معاهـدة سـلام أدبي.

وهناك أحزان عميقة لا تلد شعرًا.

سـيذهبَا ليضعَـا كتبهمـا ومـا يثقلهمـا في الغرفـة ويخرجَـا للتجـول مـرة أخـرى، حيـاة الطلبـة تـدور حـول التجـول بالمدينـة كل مسـاء؛ كي يصنعـوا تلـك البهجـة الرقيقـة بينهـم، وحـتى يصنعـوا علاقـة مـع مدينـة عاشـوا فيهـا أو سيعيشـون فيهـا سـنوات مـن حياتهـم.

المدينـة هـي الشـوارع والأزقـة والنـاس والوجـوه، هـي الطابـع العـام لـروح المـكان والـذي تسـتطيع أن تمسـكه فقـط في الجـولات المسـائية، قبـل وبعـد الغـروب مبـاشرة، في تارودانـت أينمـا وليـت وجهـك فهنـاك سـور تـرابي يقـف كالأب أمامـك، يحضنـك أحيانًـا حـتى يدفئـك ويرفضـك أحيانًـا أخـرى كابـن عـاق بسـوره الآجـوري.

مـن سـاحة الأندلـس دلـف الصديقـان عبر حي سـيدي أحسـاين أمـام كتَّـاب سي عيـسى، وخرجَـا محاذيـان للمسـجد الكبـير، ثـم بـاب السلسـلة الأثـري في اتجـاه طريـق آيـت إعـزة حيـث يكـون الهـواء منعشًـا لا يحـده سـور، ولكـن الطقـس أمـسى بـاردًا ومتقلبًـا.

باقترابهـم مـن مستشـفى المختـار السـوسي، تغـير مـزاج ياسـين، لأول مـرة يشـعر أن الأسـوار تتنكـر لـه، أسـوار تارودانـت الدافئـة بشـموخها القديـم تنظـر إليـه وكأنهـا سـتنهار عليـه.

البرد قارس والمعطف لا يقيه شر الشرر في عواطفه،

رغم رفقة أيور شعر أنه وحيد وبائس.

كرجل الثلج المتروك في الحديقة الخلفية للمنزل،

بارد جدًّا وحزين.

أي وجع يلفه.

بعض الأجساد تتلبسها حالة الطقس، فتنتج العواصف في دواخلها، وتنقلب كورقة خريف في مجرى الريح.

يطلب ياسين من أيور قراءة بعض القصائد، رفض في البداية لكنه استسلم أمام إلحاح ياسين، فراح يقرأ عليه بعض الشذرات التي خطَّها على مذكرته وهو شارد في القسم، شذرات حزينة.

الشاعر يجد دائمًا مكانًا منعزلًا يدخله وحده ولو كان وسط جوقة الحياة، مكان تخلقه صورة تلو الأخرى، تسير به إلى أماكن قصية من العالم ليرتاح فيها وحده، وسر كتابة الشعر هو ذلك الإختلاء بالذات في ذلك المكان القصي. لا نعرف تمامًا كيف تُبنى القصيدة في ذهنه، وربما هذا ما يجعل الشعر مفارقًا للحياة ويبدو بعيدًا جدًّا عن الأرض.

العرب يصدقون الأشياء فقط لأن الشاعر قالها، كأنهم يعلمون أنه يستوردها من بلاد الصدق، وهذا ما تعتمده الأمثال والحكم الشعبية أيضًا؛ حيث تصبح للقافية سلطة السيف، وما يكون موزونًا يكون فرضًا اجتماعيًّا.

أيور بصوت رخيم يقرأ على قلب صديقه بعض النوتات الحزينة مما حفظه من مذكرته:

«سأكون ما أريد

أتتبع أحلامي حلمًا حلمًا

أحقق ما تيسر من حلمي العنيد

أسند ظهري للنار وأمضي

متكئًا على صبري

سأدفن الموت في صدري

وأمضي....

تلك الغيمة البيضاء

ترتدي الأبيض حدادًا عليَّ

إني أسقي الوهم بالحقيقة.

وانتظر أن ينمو الصدق في الحديقة، أيها الأنت لا تنظر إليَّ باستغراب إنك تزيد من شكي بنفسي

ومن عتمة الدواخل

لستُ كما تظن، أنا سائل داخل كاركاس يبرق من شدة الحزن

أنا هلامي كمعجون الموت

أحاول أن أحتفظ بي داخلي في سكون وهدوء فقط، يعتقد الجميع أني صلب كحجارة، مباغت كصنارة، ولكني أسوأ من ذلك بكثير،

أنا مغلف ببلاستيك معتم يمنع تسرب الحرائق إلى خارجي

كي لا يحـترق العالـم.

وأصفي ماء الحزن الثقيل زلالًا كي لا يؤذي كليتي

لا يشـتعل سـوادي إلا لينـير درب قنبلـة تنفجـر داخـلي وترديـني حيًّا.

الماضي السحيق

يرفل داخلي

في ثوب غول

ويشرب من دمائي

ومن حرائق التبن

والنول

ويصطفي من قلائد الفوضى

شظية لتكسرني

فأحيا من جديد

منبعثًا من رمادي..

فأنا كائن أولد بعد موتي

«كالبذرة لا تنمو إلا بعد الدفن»

- هـذه النثريـة ابدعتهـا للتـو، لا أصـدق أنـك اشـتغلت عليهـا قبـل اليـوم، أليـس كذلـك؟ قـال ياسـين.

- نعم هي كذلك.

كثيرًا ما تأخذه اللغة مأخذ التماهي، فيسير في الطرقات ويحادث النجوم بالصور، ياسين يحب أن يسير جنبًا إلى شعر، يرى أيور يتشكل جملًا، يراقص الكلمات على الرصيف المبتل ببعض قطرات المطر التي فاجأت الجميع هذا المساء؛ حيث تلبدت السماء بالغيوم فجأة فبكت دون سابق إنذار، السماء أحيانًا تشعر بشهقة عميقة فتنفجر بكاء، السحاب الحزين الأسود لا يرشح مطرًا إنه يعتصر دمعًا ودمًا.

- «أنزف صمتًا كحديد الشبابيك الحديدية، معلق إلى جدار الريح أراقب هطول الشمس على باحة البيت الطيني الذي ولدت فيه، أسير إلى الوقت، وأغني لحنًا من جوف القيثارة، أجاري نغمًا من أنين الحاضر، وأراقب هطول الفرح.. قطرة.. قطرة.. قبلة.. قبلة.. أعانق ما أعانق، وهمًا، حقيقة، دفئًا، بردًا، سلامًا، أعانق صدري وأشعر بالدفء، أبحث في جوف الليل عن جزئي لأكمل بعضي».

- ما أعمق ما تقول، هل كنت تكتب في القرية؟

- لا، المدينة، الغربة، الضياع وسط الحشود، التعدد، الصمت، هذه الأشياء هي التي تجعلك تكتب، أما القرية والطبيعة والوادي وموسيقى حفيف الأوراق وزقزقة العصافير، فتجعلك تنصت فقط، تكون إنسانًا فقط دون عقد كابية.

-٩-

عـاد أيـور وياسـين قرابـة منتصـف الليـل، أعـدَّا عشـاءً خفيفًـا مـن البيـض والطماطـم، ونامَـا مبـاشرة، بعـد جولـة في أعمـاق كل منهمـا، يشـعران كأنهمـا طافَـا العالـم جيئـة وذهابًـا، والحـق أن أغـوار النفـس البشريـة تحتـوي مسـافات طويلـة بمنعرجـات متشـعبة، عـلى مـن قطعهـا أن يسـتريح في سريـر الحيـاة الهـادئ المسروق مـن أوقـات الليـل السـاكنة.

اغتيـال الضجـر المسـائي شِـعرًا يجعـل للنـوم مـذاق الوجـود المكثـف، ورغبـة في الحلـم عـلى إيقـاع هـدوء صحـراوي المـدى، رغـم الألـم الحـاد الـذي يرافـق القـوافي المهملـة دومًـا في أقـاصي النفـس البشريـة.

تكور ياسين على فراشه مقمطًا في لحاف بني كطفل.

وتمـدد أيـور في اسـترخاء مـاسي كنبتـة دوار الشـمس مغلقـة التويجـات.

النفوس المتعبة تستريح من وهج الحياة.

أيمـن ينتظـر عـودة صديقـه المثقـل بأجندتـه النسـائية العامـرة بالمواعيـد، وهـو يفكـر في علاقتـه براضيـة الـتي شـجعه عليهـا صديقـه منـذ البدايـة، قـال لـه إنـه سـيعيش في نعيـم كأنـه في حضـن أمـه وحبيبتـه في نفـس الوقـت، مـاذا سيسـتفيد مـن راضيـة؟ سيسـتفيد جسـدًا ثخينًـا سـخيًّا، وحضنًـا دافئًـا في

الصباحات الباردة المملة، حين يستيقظ الجسد وينتصب مطالبًا بالمتعة، ينتظر خروج سي علال إلى المحل، وخروج الأولاد لمدرسة عبد الله بن ياسين المختلطة، يصعد للطابق العلوي للبيت؛ حيث تنتظره راضية في غرفة على السطح، وتعد له فطورًا أشهى من فطور سي علال، تفرغه من شهوته ومن جسده، وتملأه حضورًا يرضي غرور رجل في العشرين من عمره رفقة امرأة أربعينية العشق، بدوية الطبع، نهمة ولا تشبع.

يفكر فيها هروبًا من التفكر في حالته التي لا تعجبه، شعور متكرر بالندم بعد كل لقاء ينتابه، يقول: أي عالم متسخ هذا؟ ولكن في غمرة تفكره تستولي عليه رغبة جامحة في أن يستظل بصدر الأربعينية راضية زوجة صاحب البيت.

منذ شهر ديسمبر حين صادفها في الممر المظلم ورماها بكلمة شهية وهي تضع نفسها رهن إشارة شهوته، أو الأصح أنه يضع جسده رهن إشارة هرموناتها، بدأت العلاقة سرية الحضور في حياته، حتى أنه ينساها بمجرد نزوله من السطح، لكنها بدأت تستولي عليه وتغدق عليه بالوجبات والطواجن والهدايا، كلما تأخرت المنحة الدراسية منحته من لحمها وجيبها.

لكنها لا تشبع، أحيانًا تبدو له كبقرة معطاء وعليه أن يكون ثورا هائجًا، لكنه لا يكون كذلك دائمًا، ويعافها أحيانًا، لكنها ورطة، ورطة لذيذة بداية بطعم الجنس المتاح في الصباحات النزقة، فحين يقضي الشبان وقتهم بين البيت

والثانويـة أو الجامعـة في تعديـل سراويلهـم وامتصـاص ثـورة الصبـاح الجنسـية، يكـون هـو مـع موعـد مـع طبـق يعـادل ضعفي وزنـه شـحمًا، هـذه المتعـة السـهلة مـا ثمنهـا يـا تـرى في هـذه الحيـاة الذئبـة؟

هـي تريـد ذلـك وسي عـلال يهملهـا كتحفـة في البيـت القديـم، أيمـن لا يجبرهـا عـلى شيء لكنـه يأخـذ منهـا مـا يريـد، وقـد يطلـب منهـا مـا يحتاجـه كبطاقـات شـحن الهاتـف، مـصروف الجيـب، والهاتـف الـذكي نفسـه هديـة منهـا.

ولكنهـا لا تشـبع - يقـول أيمـن- وهـذا ينهكـه كشـاب يحتـاج إلى طاقـة للدراسـة، ينهكـه أنهـا تمتـص كل رحيقـه بخـبرة عقـود مـن الجنـس مارسـتها مـع سي عـلال حـين كان مفتونًـا بهـا، ومـع آخريـن حـين أحالهـا عـلى التقاعـد معتقـدًا أن الجمـر يخبـو، ناسـيًا أن بعـض الثـورات العشـقية تبـدأ متأخـرة في سـن الأربعـين.

يدخـل رشـيد حامـلًا معـه عصـير أفـوكا طازجًـا في كـؤوس الاسـتعمال مـرة واحـدة، يبـاع قـرب مسـجد مجمـع الأحبـاب في محـل يضـع شـعارًا لـه: عصـير مـن أجـل صحتـك ورجولتـك، عصـير أفـوكا مـع خليـط مـن بـودرة الجـوز واللـوز والفـول السـوداني، وبعـض حلويـات الكريـم شـانتي في علـب بيضـاء بأشرطـة ذهبيـة، يضعهـا عـلى الطاولـة في غرفـة أيمـن ويدعـوه لشربها مازحًـا كعادتـه، ولكنـه يبـدو منهـكًا كعامـل ضيعـة زراعية رغـم ضحكاتـه الهيسـتيرية أحيانًـا، كؤوس اسـتعمال مـرة واحدة، وقلـوب مسـتعملة كأنهـا مشـتراة مـن سـوق المتلاشـيات، وبـدأ

يحـكي لأيمـن عـن يومـه:

- زوجـات المهاجريـن تحـف والله تحـف، كانـون لا يـبرد أبـدًا، والجميـل فيـه أن خـبزه طـازج دومًـا، تصـور خـبز تنـور طـازج وسـاخن، كانـت تنتظـرني بلهفـة، رغـم أني أعلـم أني لسـت الوحيـد في لائحتهـا، طبعًـا فـأول شروط العمـل ألا تطالبهـا بالوفـاء، ولكـن عليـك أن تمثـل عليهـا دور الرجـل الـذي يغـار كي يبقـى للعلاقـة طعـم الحميميـة كـسرٍّ لا يعرفـه إلا أنتمـا، لا يمكـن لنارهـا أن تنتظـر شـهرًا كي تنطفـئ، وهـي لا تنطفـئ، قتلتـني المجنونـة، ولكـن جيبهـا العامـر يشـفع لهـا، ورنـة دمالجهـا الذهبيـة موسـيقى جـاز بالنسـبة لي، سأسـحبها منهـا دملجـا دملجـا...

- هل مررت بالبار؟

- نعـم نعـم، شربـت بعـض البـيرة البـاردة في بـار قـصر السـلام.

- الأمر واضح، فلسانك منطلق يتحدث في أكثر من موضوع.

- أخـبرني أنـت كيـف تسـير أمـورك، كـم بلغـت لائحتـك؟ لا تنـس أنـك طالـب، حـدد جدولـك جيـدًا، وخـذ منهـن أكـثر ممـا تعطـي، هـن بائسـات لكنـك لسـت مسـؤولًا عـن بؤسـهن، أنـت تحتـاج إلى المـال والمتعـة، كل امـرأة تحتضـن بركانًـا يحرقهـا، عليـك أن تنظـر في عينيهـا كي تشـم الرغبـة الكامنـة فيهـا، هـي مسـتعدة لتدفـع أي شيء مقابـل المتعـة، يحتجـن الحـب والاهتمـام، أنـت سـتمنحهن الاهتمـام فقـط فالحـب لا يبـاع في القنـاني، وسـتمنحهن رائحـة الرجـل الاسـتثنائية، الـتي لا مثيـل لها

والضرورية لحياة المرأة، أغلبهن تزوجن لأسباب اجتماعية، كي لا يبرن ويتأخرن عن قطار الزواج، يقبلن أي رجل مهما كان، يبحثن عن وضع أسري يبدو في الظاهر متماسكًا، لكنه ليس كذلك، هناك حرمان وجوع وعطش، وعليك أن تروي هذا العطش بمائك النادر، ماء الحياة.

- أنا ليست لدي لائحة، حتى الآن ترضيني راضية.

يشير بأصبعه إلى السقف، ويعني الطابق العلوي حيت ترقد راضية.

ارتمى رشيد في فراشه قرب أيمن كجثة هامدة، وراح أيمن يفكر كيف انتقلت علاقته برشيد من المواقع الافتراضية إلى الواقع، كيف التقيَا في موقع الدردشة وتعارفَا حين أخبره رشيد بكل تفاصيل حياته وعلاقاته مع النساء، وسر تشبثه بعبارته الشهيرة: الأربعينيات هن النعيم.

استسلم أيمن للنوم وهو يتثاءب، وانقطعت سلسلة أفكاره بعد أن غطى رأسه بملاءة خفيفة وعدَّل وضع وسادته كأنه يطرد الصور من فراشه، هو ليس عامل جنس لتكون له لائحة.

ونام بيت الطلبة محتضنًا قلوبًا حائرة لا يمكننا إدراك حيرتها، قلوبًا ناشئة على مرمًى من الجمر الكامن تحت الرماد.

هو الليل سيد المسافات الطويلة في الحياة، لكنه ليس دائمًا حالك الهدوء، فظلامه الموحش لا يعني السكون

دائمًا، فهناك قلوب مغتالة حلمًا ترتمي ولا تنام، وتنام ولا تستريح، هناك قلوب يومية الفزع.

أسامة لن يعود الليلة، يختفي نهاية الأسبوع بمدينة أكادير الساحلية، ويعود يوم الإثنين ليرتمي في غرفته يعمل على حاسوبه، هو من أوائل الطلبة رغم غيابه المستمر، أكادير مدينة عاهرة، تعرض نفسها على الأرصفة والكورنيش، تحتفي بالعلب الليلية والبارات، تطحن الروح وتصنع منها عجينة المتع العابرة، والسهرات البراقة الخاطفة، المال سيد الموقف.

في أكادير فقط يستطيع أسامة أن يعيش حياته الثانية الموازية لحياة الطالب الجامعي المجتهد، حياة صخب ومال وعلاقات غريبة، كيف يحصل على ملابس من بوتيكات مارينا أكادير، من أين له كل هذا الترف؟

حين باح لأيور تلك الليلة لم يذكر كل شيء، قال فقط أنه يرافقهم، يرافقهن، يستمتعون بشبابه وابتسامته، أيور لا يستطيع أن يدرك أن أصحاب الجيوب العامرة لهم نزعات غريبة، وأن برجوازية الجيب تجعل للجسد وضعًا وجوديًّا راغبًا في الاحتراق شهوة وبؤسًا.

أيور كعادته لا ينسج عن الآخرين أفكارًا بل يكتفي بتعريفهم في ذهنه حسب ما قالوا عن أنفسهم فقط، في حدود ما قالوا عن ذواتهم، لا يتخيل حياتهم بعيدًا عن أقوالهم، إنه منشغل بنفسه عن الآخرين، لكنه ينصت لهم جيدًا، ويؤلمه أن يحكي أسامة عن نفسه بجنون وسرية

مربكـة، غلاميـة فظيعـة لا يريـد أيـور أن ينسـجها عـن طالـب جامعـي يبـدو لـه عاديًّـا طيلـة أيـام الأسـبوع، كأي رجـل، ولكـن تلـك البـذرة مـن الشـك تنمـو بسرعـة رغـم الجفـاف الـذي يمنـع المـاء مـن الوصـول إليهـا.

أحيانًـا نفضـل ألا نعـرف عـن الآخريـن تفاصيـل حياتهـم كي تبقـى الصـورة الـتي نسـجناها حولهـم صحيحـة، ونسـتطيع بسـهولة أن نتعايـش معهـم بعيـدًا عـن نظـرة الغرابـة والاختلاف المريـب.

كل إنسـان يسـير بخطـى متثاقلـة لصنـع حياتـه كمـا يريدهـا هـو، صحيـح أننـا لا نحصـل دائمًـا عـلى مـا نريـد، لكننـا نختـار مـا نريـد ونحـاول الوصـول إليـه، تلـك الرغبـة المتحركـة إيجابًـا وسـلبًا داخلنـا، ترتفـع وتنخفـض كزئبـق داخـل محـرار الوجـود.

أحيانًـا ننتـشي بـكل مقاطـع الحيـاة ونسـتطعم كل السـاعات والثـواني، وأحيانًـا نسـتبطئ مـرور الوقـت في انتظـار وقـت أجمـل قـد لا يـأتي.

أحيانًـا لا نفكـر، نعيـش فقـط، كل يـوم يشـبه الآخـر، ولكـن هـؤلاء المتعبـون مـن الوجـود يكرهـون الروتـين ويكرهـون التكـرار، يبحثـون عـن شيء جديـد دائمًـا، شيء لا يعرفـون ملامحـه بالضبـط، ولكـن يبحثـون فقـط.

قـد يكـون سر امتـلاء أسـامة طيلـة الأسـبوع هـو خـواؤه يومـي السـبت والأحـد.

يسـمونه «تعمـار الـراس» ولكـن التسـمية ليسـت صحيحـة، إنه

إفـراغ، فـلا يمكـن أن تمتـلئ بالفـراغ والنسـيان والغيـاب والسَّـكر واللاوجـود، الامتـلاء يكـون فقـط باليومـي والعـادي والحضـور.

وبعــد أن يعــود أســامة للجامعــة يصبــح نشــيطًا، يبعــث في رفاقــه حيويــة خاصــة، تجــده في القاعــة إن حــضر يناقــش المحـاضر ويطـرح أسـئلة في عمـق المـادة، وتجـده في المقصـف يتنـاول قهـوة سريعـة التحضـير بـين حصـة وحصـة، ويعـرج عـلى المكتبـة ليسـتعير منهـا كتبًـا ومراجـع.

وفي السـاحة بـين الإدارة والبـاب الرئيـسي للجامعـة حيـث الحلقـات الطلابيـة، يبقـى واقفًـا يسـتمع لخطـب المناضلـين مـن الطلبـة عـن التعليـم والديكتاتوريـة، حقـوق الإنسـان والطبقيـة، كل فصيـل فـرح بمـا لديـه مـن مرجعيـات وخلفيـات، الطلبـة الصحراويـون يناقشـون الحكـم الـذاتي والانفصـال التـام، طلبـة الحركـة الأمازيغيـة يدافعـون عـن الحقـوق اللغويـة والثقافيـة، فصيـل العـدل والإحسـان المسـتولي عـلى الاتحـاد الطـلابي لـه طريقـة خاصـة في بنـاء المنهـج، الطلبـة الثوريـون وتـشي جيفـارا يحملـون صـور المعتقلـين والشـهداء.

أسـامة يعـرج عـلى كل الحلقـات، وهـو مقتنـع بـكل مـا يـروج في كل حلقـة، مقتنـع تمامًـا، كل مطالبهـم مشروعـة وحقيقيـة، ولكـن مـا لا يفهمـه هـو سر الـصراع بينهـم، فـكل فصيـل ليـس خالصًـا تمامًـا، خصوصًـا الطلبـة الأمازيـغ والصحراويـون، الكثـير منهـم يجـد نفسـه مـزدوج الانتمـاء، فالمنتمـون لتخـوم الصحراء هـم أمازيـغ في لغتهـم ولباسـهم وعاداتهـم، هنـاك شريـط بـين منطقـة سـوس ودرعـة والصحـراء فيـه قبائـل أمازيغيـة تعيـش

حيـاة البـدو الصحراويـين، وهنـاك صحراويـون يعيشـون مـع الأمازيـغ في القـرى والمـدن ويتحدثـون الحسـانية. الهويـة الـتي تصـاغ في الحلقـات هويـة مترفعـة عـن الواقـع، والـصراع وليـد جهـل بالأمـور عـلى الأرض والواقـع، العنـف الجامعـي كمـا يعتقـد أسـامة وليـد الجهـل والتعصـب والبنـاء الخاطئ لهويـة مزيفـة لا تؤمـن بالتعـدد والاختـلاف.

هويـة عصبيـة تتكـون مـن عصـب واحـد، لغـوي فقـط، أو ديـني فقـط، أو عـرقي فقـط، دون أن يعلمـوا أن الهويـة متعـددة في داخلهـا ومتحولـة وأن قـوة الإنسـان لا ترتبـط بالهويـات الصغـيرة المحـدودة بالعـرق واللغـة والمـكان، الانتمـاء ليـس انتمـاءً واحـدًا بـل هـو انتمـاءات كثـيرة متداخلـة كخليـط غـير متجانـس إلا حـين تقبلـه بـكل ألوانـه وأطيافـه.

أسـامة تعجبـه خطابـات الحلقـات والفصائـل الجامعيـة كلهـا ويجـد فيهـا نفسـه ومطالبـه، ولكـن لا يتقبـل الـصراع الطـلابي الـذي يخـرج مـن السـاحة الفكريـة ويصـل إلى العنـق والإجـرام والقتـل، إنـه مرتـاح جـدًّا في عـدم انتمائـه لأي جهـة، فالأيديولوجيـا كمـا قـال أحدهـم تعطيـك الحقيقـة ولكـن مـن وراء زجـاج، وحـين ينتمـي سـينظر إلى الآخـر المختلـف كعـدو أو عـلى الأقـل كمنافـس في السـاحة الأيديولوجيـة والسـوق السـياسي.

لذلـك يفضـل أن ينتمـي لجسـده، كآخـر وحـدة انتمـاء يؤمـن بهـا.

تكـون تارودانـت مدينـة لعينـة أحيانًـا، في صغرهـا لعنـة وفي

فضائحها لعنة، فهي لا تستر كالمدن الكبيرة أخطاء ساكنيها، إنها قرية في هيئة مدينة بأسوار حزينة، تخفي وتظهر، تستر وتفضح، وهذا ما يخيف أسامة دائمًا، هذه المدينة الملعونة قد تسحقه يومًا لذلك يهرب إلى مدينة أكادير، ليعيش حياة أخرى لا يفهمها غيره، فأكادير عالم بلا خرائط، ليست لديها ذاكرة، عكس هذه المدينة التي تحتفظ بالماضي كله حتى ماضي الأشخاص والغرباء عنها.

-١٠-

صباح الإثنين دائمًا بطعم العمل والدراسة، صباحات الإثنين كلها كذلك، مصابون باكتئاب يوم الإثنين، يهرول الكل نحو مقرات عملهم ومقاعد الدراسة إلا المعطلون عن العمل، يستمر الأسبوع عند الطلبة عاديًّا، تتناوب عليهم فيه أوقات فراغ ودراسة ومساءات دافئة أحيانًا وباردة أخرى.

إلا أن إثنين ياسين ليس كباقي الأيام، ففيه يلتقي كريمة بعد الخامسة عصرًا، هو أول لقاء له بها بعد تلك الجلسة التي بدت فيها كريمة غريبة ومحمومة، نزقة وخائفة.

السور ثابت كعادته ولا يتحرك، إنه هنا منذ عصور مضت، بدأ يتفتت، شفراته تبدو أضعف من أن تصد عدوًّا وأساساته بدأت تظهر حجاراتها، ولكنه واقف كرجل يحرس التاريخ، أمام قصر السلام يمر ياسين رفقة كريمة، صامتين كبرجين من السور نفسه، فجأة بدأت تتحدث عن الدراسة كي تملأ الصمت بالثرثرة العادية، الفتيات خبيرات في ذلك، بإمكانها من فراغ أن تتحدث عن ضفيرتها التي ترفض الاستسلام للمشط هذا الصباح، عن اختيارها للحقيبة اليدوية التي تلائم لون مرتب الأوراق في مادة العلوم الطبيعية، عن شجارها مع أختها الكبرى التي تريد أن تفرض عليها ارتداء الحجاب باستمالة الأب إلى صفها واستقطاب الأخ الأكبر الذي بدأ يرخي العنان للحيته، وهو أمر ترفضه تمامًا، لا

تناقش الحجاب بقدر ما تناقش علاقة اللاتكافؤ مع بقية أفراد أسرتها الذين يحاولون جعلها سبورة أخلاقية يعلقون عليها وصاياهم الأخلاقية، ويحاولون فرض سيطرتهم على جسدها وفكرها، وهي تدري جيدًا أن ماضي الأخ الأكبر كان من أكبر مشاكل العائلة، هو الذي استيقظ ضميره فجأة بعد أن دخل مرحلة اكتئاب خطيرة حين تسبب في حمل كاذب لفتاة صاحبها، كريمة ليست متأكدة من أن الحمل كاذب حقًّا أم أن عائلتها هي الكاذبة، كانت أمها هي الأكثر تدخلًا في الموضوع أما الأب فلا يعلم شيئًا، اختصاصات حراسة الشرف دائمًا تقوم بها النساء، كان يؤكد لهم أنها فتاة ابنة دارهم أي أنها فتاة محترمة، وأنه ضحك عليها باستجلابها إلى بيت صديقه باسم الحب، ولكن الأم لم تقتنع بذلك، وقالت له إن حروب النساء جديدة عليه وأنها أعلم بحيلهن، حتى لو كنت عاطلًا عن العمل، حتى لو كنت نصف رجل فقط سترغب بك البنت، قالت له الأم، وما أدخله فترة الاكتئاب هو تفكيره في ابنه أو ابنته التي قد لا يعرفها لو كان الحمل صحيحًا، كان مستعدًا لتحمل مسؤوليته، وقوة الضغط جعلته يتدهور صحيًّا ونفسيًّا لولا عناية الله وبعض المهدئات القوية، هذا قبل أن يكشف له صديقه أن فتاته تصاحب آخرين غيره، وربما تسبب أحدهم بحملها واختارته هو؛ لأنها تعلم مدى صحوة ضميره وربما تعلم شدة غبائه على حد قول الأم، انتهت القضية بحمل كاذب حقًّا فقد كانت الفتاة تمثل دور الضحية، ولكنها كشفت له أن المرأة حداة ولا يمكن أن تثق فيها، وانتهت القضية بصمت مطبق

وبلحيـة منسـدلة وتغيـير جـذري في المدونـة الأخلاقيـة، الـتي ستطال الابنـة الصغـرى كريمـة باعتبارهـا الحلقـة الأضعـف التي تحتـاج حمايـة، فهـي عنـوان شرف العائلـة وأي خلـل أو شـبهة ستسـقط عـرش الأخـلاق داخـل العائلـة، أمـا الأخـت الكـبرى فكانـت تخـاف عـلى سـمعة العائلـة مـن أجـل زواجهـا القريـب.

دخـل معهـا ياسـين في نقـاش عـن عائلتهـا وعـن فرضيـة الحجـاب، وكان نقاشًـا عاديًّـا شـبه عـام يعتمـد الـكلام الرائـج عـادة في أوسـاط الثانويـة، لا شيء حميمـي في نقـاش عـلى الرصيف العـام، لا أحـد يحـاول إقنـاع الآخـر، كأنهـا حفلـة مـلء الفـراغ.

- أنت لا تحبني يا ياسين، قالت.

رد عليها ياسين متسائلًا:

- وما الحب أصلًا؟

- الأمـر واضـح جـدًّا، أن تحـب شـخصًّا يعـني ألا تسـتطيع إمضـاء اليـوم دون أن تفكـر فيـه، أن ترغـب في البقـاء معـه مـدة طويلـة..

- دعي الأمر للوقت فهو كفيل بكل شيء.

- أنـت قـاس جـدًّا، يجـب أن تعلـم أنـك تملـك قلبًـا مـن حجـر، لـو أني فقـط أملـك مثلـه لتعادلنـا، ولكـني أحبـك بجنـون أنـثى تضـع كل البيـض في قلـب رجـل واحـد.

- هنـاك مشـاعر لا نملـك إزاءهـا شـيئًا، نحـن لا نصنعهـا، لكـن نجدهـا في داخلنـا، كوليـد في الأحشـاء، مـا نفعلـه هـو أننـا نرعاها حـتى تكـبر فقـط.

- هل ستحبني يومًا؟

- ...

كان شموخ كريمة ينكسر جملة بعد جملة، كيف لأنثى تملك في قلبها من القصائد مقدار كوكب ألا تفهم ما بين السطور والكلمات، هي تعلم أن هناك هامشًا لقول لا أحبك، أشد فراغًا من هوة سحيقة قد تردم بفلسفة حب تولد للتو، والمرأة هكذا غالبا لا تستسلم بعد أن تفرد جناحي الحب على قلب رجل؛ لذلك ارتدت قناع ابتسامة كأنها في حفلة تنكرية وقلبت رصيف النقاش ورمت بآخر جملة في سلة المهملات العاطفية.

قفزت من الفرح المفاجئ الذي انتابها وقالت له:

- أنا أحبك وهذا يكفي.

وعادت إلى ضفيرتها الطويلة تفتلها بين أصابعها في توتر مخفي بإحكام، وهي تردد اسم ياسين وتقول إن أجمل ما في اسمه هو رنة السين التي تصدح في الكون حين تردد اسمه في حلمها ليلًا.

وبضحكة خفيفة قال لها:

- يا مجنونة يا هبلة.

قالها تحببًا فقد كان يعزها وينظر إلى جمالها الطبيعي، بدون مساحيق ولا تسريحات، لم لا يحبها ويلبي رغبتها في علاقة حب كتجربة أولى لهما، فالحب في أيامنا عبارة عن تجارب ندخلها بملء إرادتنا، والحب في الثانوية عملية

واضحة المعالم، فلان مع فلانة وفلان ترك فلانة وانتقمت منه بالدخول مع فلان في علاقة وهكذا.

وسرعان ما تخلى عن ابتسامته الخجولة البلهاء وانخرط في جو الفرح الذي خلقته كريمة، صدق بسرعة مسرحيتها، ومن يدري وحدهن الفتيات لديهن تلك القدرة على قلب الطاولة بكعب عال وبتوتر عاطفي شديد العدوى، رغم شحوب الموقف وسرعة الانفعال إلا أن الاثنين صدَّقَا وضعهما الجديد كشاب وشابة منخرطين في جولة حب حول الأسوار.

أزالت وزرتها ووضعتها في حقيبتها المدرسية وبقيت في كنزة صوفية خفيفة بلون فستقي غامق، كانت أكثر إثارة، هكذا بدت له حين طلبت منه مسك حقيبتها حتى تزيلها، حركاتها كانت قوية ومحسوبة على الإثارة الأنثوية التي تشتغل دائمًا بالتوازي مع الحركات العفوية العادية الأخرى، فالأنثى حين تعدل وضع ساعتها اليدوية يدور كل شيء حول معصمها، أما حين ترسل شعرها إلى الوراء فالجغرافيا تصير مبللة بالسواد، تصير مرقصًا للأغنيات؛ لذلك فكل حركة من كريمة تجعل ياسين محط اندهاش خصوصًا أنه خارج للتو من مراهقة قروية جلفة نحو حنان رطب الوقع على جسده، فبالنسبة لشباب القرية ابنة المدينة كانت حلمًا، بنت المدينة التي تفهم الحب وتفهم الخروج والجولات والمواعيد والرحلات، أما بنت القرية فرهينة ما بين فخذيها ورهينة فكرة الزواج بأقرب رجل، وفي أقرب فرصة.

الحواس تفعل فعلها في ياسين.

ربما سيلعن الحب بعد قليل ويضمها في حنان زائد خصوصًا أن الشمس قد غابت، وأن مناطق مظلمة يعرفها العشاق الصغار بدأت تبدو له ملجأ سحريًّا، وضع يده على كتفها فشعر بها تهتز تحت يديه، دون أن تتحرك أو تستجيب ولكنها تعلم أنها البداية فقط، جلسَا تحت شجرة الفلفل الأسود أمام باب العمالة في جهة السور قرب مقر الباشوية القديم، ليس على الكرسي الحديدي بل على قاعدة السور، فالكرسي مضاء بمسالط شبه عملاقة وضعتها البلدية لتضفي على السور حضورًا سينمائيًّا في الليل.

جلسَا جنبًا لجنب وساد صمت طويل، وضعت يدها في جيب سترته الذي إلى جهتها، واتكأت على كتفه، وهو شارد يفكر.

لا هو لا يفكر، هو جالس فقط تدور في ذهنه سيناريوهات الرغبة والحب والقبلة وكل أفلام فاتن حمامة وبليغ حمدي، ساد صمت وضربات قلب تزين المسرحية بنوتات الشهقة اللذيذة المعلقة إلى العيون، والشفاه المنتظرة، ينسى الآن كل محفوظاته في مسجد القرية، وثنائيات الحلال والحرام، وسيحفظ فقط رحلة صداقة جميلة وعشق محموم، وسيفعل ما يفعله الشباب عادة، قبلة سريعة وأخرى أبطأ قليلًا وقبل مسترسلة أشد بطأ...

بتلك اللهفة السريعة كاحتلامات ما قبل الفجر، يتخلص من ثقل الجسد وثقل اللحظة ويرتخي فجأة في عنف لذيذ.

شجرة الفلفل الأسود مبللة بالمطر واحتكاكها بالسور الترابي

القديـم جعـل تربتـه تتطبـع بحمـرة غامقة.

هـدأ ياسـين ورفـع بـصره إلى المـكان، واحتضـن كريمـة في مـا يشـبه الحنـان، أو ربمـا فيمـا يشـبه الإحسـاس بالذنـب، وهـي لا تعـرف مـا حـدث بالضبـط وربمـا لـم تـدرس فصـول الذوبـان مـن قبـل.

هـو لـم يـرد أن تنتهـي الأمـور هكـذا، لكـن غوايـة امـرأة تنجـح دائمًـا خصوصًـا إن احترفـت الإصرار، جعلـت أضـواء المدينـة تتلـوى في عيونـه، والسـور معـروف باندماجـه مـع الفصـول.

لحظـات مـا بعـد هـذا اللقـاء غريبـة جـدًّا، حـين يكـون الجسـد منهـكًا باللـذة الخفيـة تحـت الملابـس، بـدت لـه صغـيرة النهديـن بـين أصابعـه الغليظـة، مراهقـة طائشـة، وبـدا لـه السـور شـابًّا حقـير الشـهوة، أصبـح عاريًـا مـن حضـوره ولكنـه ظـل ممسـكًا بيدهـا لحظـات قبـل أن يقومَـا في صمـت ويسـيرَا إلى جنـب كالعائديـن مـن الجحيـم.

قالت له شبه غاضبة:

- كنت بعيدًا عني، كأنك في عالم آخر.

كأنهـا أشـعلت حرائقـه القديمـة، بـدا في دهشـة كالمخـدوع؛ لأنـه عـزف نوتـات خـارج الفرقـة الموسـيقية، كان يغـني خـارج اللحـن، والأغنيـات الثنائيـة تحتـاج دومًـا للحـوار بـين العيـون، للمشـاركة. كان في عالـم آخـر حقًّـا وكان عليـه أن يصطحبهـا ببـدء شـديد، ولأنـه لا يرغـب في ذلـك كان يـسرح وحـده ملتهمًـا شـفتيها النديتـين.

في عالـم المتعـة هنـاك معـادلات جديـدة للحشـمة فيهـا تسـاوي هـذه الأخـيرة دائـرة فارغـة، وربمـا هـذا مـا أربـك ياسـين وأربـك حسـاباته لهـذا المسـاء، وجـرأة كريمـة أقـوى ممـا توقـع.

- لم أشبع منك.

قالت في حسرة.

لـم يكـن يتوقـع أن ينتهـي يـوم الإثنـين ببقعـة في سروالـه الداخـلي، ولا بتجربـة جسـدية مراهقـة، ولكـن للمتعـة خطـط أخـرى مباغتـة وهجوميـة النزعـة، ولـم يكـن يعلـم أن اللاحـب مـن طرفـه والحـب مـن طرفهـا سـيفتح البـاب لضيـف آخـر يحمـل سـلاح الشـهوة وأن العطـش العاطفـي ترويـه الحـركات الجسـدية.

وكان نادمًا،

الخطيئة دائمًا خطيئة يتلوها الندم.

ولكنـه نـدم لذيـذ لا يـدع لـك فرصـة التذكـر، فكلمـا حاولـت أن تتذكـر بغضـب يشـتعل الجسـد مـن جديـد ليمنحـك تلـك اللـذة خـارج الزمـن، ويوصـد أبـواب العـزوف ويفتـح أبـواب الرغبـة في التكـرار.

ودعهـا قـرب بـاب الخميـس وعـاد محاذيًـا للسـور وجلـس في الجهـة المقابلـة لحـي سـيدي العـربي وبقـي هنـاك طويـلًا شـارد الذهـن، ولكـن البـرد القـارس جعلـه يعـود للبيـت ليغـير ملابسـه وينظفهـا وينـام دون أن يتحـدث كثـيرًا إلى أيـور، ولكنـه لـم ينـم حقًّـا، ظـل طيفهـا يـراوده ويعيـد جسـده إلى قشـعريرة الجنـس

ويمنعه النوم بسهولة.

الشهوة قرار عميق وهوة سحيقة لا تردم، وكلما أرضيتها قالت هل من مزيد؟

احتضن وسادة الاحتياط، وضع عليها رجله اليمنى ونام بقلب حائر وجسد معذب، وروحه بعيدة جدًّا لا تتساءل.

أيور كعادته غارق في رواية جديدة مع إبراهيم الكوني ورباعيته الطويلة: الخسوف، مع الشيخ غوما والتفاصيل الدقيقة للصحراء الليبية، دائمًا ينام مغتالًا من طرف رواية عميقة.

الأجساد مسكونة بالخطيئة والأرواح تدفع الثمن.

الأجساد مخدوعة بالشهوة، والعقل مكبل اليدين، هكذا تبدو الأمور أحيانًا خصوصًا حين يكون الجسد منفصلًا عن مملكة العقل، الحقيقة أن الجسد غالبًا ما يكون كذلك، في الصباح الباكر وياسين يستيقظ لأداء صلاة الصبح، أشعر بالخديعة، أشعر أنه مزدوج الشخصية فكان بعض الإحباط يرافقه حين اتجه إلى الحمام الشعبي للاغتسال من الخطيئة، وهو يتذكر دائمًا شفتيها الرطبتين والتهامه التفاحة القديمة، فيحتار حقًّا في شأن قوة داخلية تدفع إلى الجنس وتسمى الشهوة، قوة قاهرة لا مناص من التحايل عليها دون مواجهتها.

أيور المسكون بالصمت، لم يطلب أن يرافق صديقه للحمام كالعادة، فهو يقدر شرود ياسين ويمتهن حرية

السـكوت، يراقبـه عـن بعـد وينتظـر منـه الـكلام.

تكـون التجـارب الأولى دائمًـا بطعـم النـصر والظفـر، لكـن مـع شـخصيات كياسـين تكـون النتيجـة تعطيـل الـروح وهذيـان الجسـد، فـورة بـين الإقبـال والامتنـاع، زحمـة في القـرارات بـين النعـم والـلا، تكـون اللـذة مغمـورة بالنـدم، رغبـة حارقـة ولهفـة شـبابية جارفـة، ويقـين قديـم بالخطـأ.

لـن أعيـد الكـرة، ليـس مـن حقـي احتضـان فتـاة ضعيفـة أمـام شـهوتها، ليـس مـن حقـي، حـرام مـا أفعلـه، حـرام، حـرام، يكفـي أنـه حـرام. يقـول في نفسـه وهـو عائـد مـن الحمـام البلـدي قـرب سـاحة أسـاراك.

العـاشرة وزخـات مطـر مـارس وبعـض الريـح وغابـات مـن الأمطـار وأيـور في زاويـة قـرب القسـم الـدراسي رفقـة أربعـة زمـلاء يتحدثـون عـن المـواد الدراسـية والعـروض والتماريـن والواجبـات وأمزجـة الأسـاتذة.

أسـتاذة الفرنسـية الأنيقـة تسـبب لهـم الانتصـاب داخـل القسـم فهـي تظهـر نصـف سـاقيها، يكرهـون القيـام للسـبورة في حصتهـا، نظـرا للحالـة الفيسـيولوجية الـتي يكونـون عليهـا، كأنهـا باريسـية الصنـع، مثـيرة دومًـا بشـعرها الأشـقر، عليهـا أن ترحمنـا قـال أحدهـم، هـذا اعتـداء علينـا نحـن المسـاكين، ويضحكـون، وهـا هـي قادمـة تـضرب الأرض بكعبهـا العـالي كراقصـة فلامينكـو إسـبانية، يمثـل أحدهـم دور المغمـى عليـه بعـد أن شـم عطرهـا، ويدخلـون القاعـة في فـرح عـادي ينتظـرون الـدروس الروتينيـة عـن الحقيقـة والمجـاز.

يـوم الثلاثـاء لا يمنـح إحساسًـا بالاختـلاف، إنـه محايـد/ مسـالم، وعـادي، هكـذا أيـور في زمـرة الطلبـة بعيـدًا عن الشـاعر في داخلـه، قريبًـا مـن الطالـب، أسـوار الثانويـة مألوفـة وحنونـة أحيانًـا، المراحيـض المتسـخة، الناظـر بوقفتـه البوليسـية كأنـه حـارس الأخـلاق الأزلي، تتلبسـه مسـئولياته فيحسـب نفسـه أمـين الآداب العامـة داخـل مملكتـه.

ثلـة هنـا وثلـة هنـاك، تكـون سـاحة الثانويـة في حيويـة وقـت تبـادل القاعـات، تمـر كريمـة قـرب قاعـة الثانويـة حيـث يجلـس ياسـين، ترميـه بغمـزة عميقـة وترحـل مبتسـمة رفقـة صديقاتهـا، غمـزة واحـدة تشـعل جسـده وتـترك لـه حرائـق جلديـة صعبـة الإطفـاء، وتقـف قـرب القاعـة تحـدث أيـور عـن قصيدتـه الأخيرة.

- أنت تكتب كأنك ستموت غدًا.

- كيف عرفت أني أكتب؟

- تستكثر علينا التمتع بقصائدك.

- لا إنهـا ليسـت حـتى قصائـد، مجـرد خواطـر أكتبهـا وقـت الفـراغ.

- بل هي عصائر حزن تقطر بالجمال.

- لستُ حزينًا.

- ولستَ سعيدًا، على كل أبلغ سلامي لياسين وقبله لأجلي.

- مبلغ سلامك.

كان ياسـين يراقبهـا مـن الداخـل، عـبر زجـاج النافـذة الشـاحب

وهـو ينظـر إليهـا نظـرات سـارحة، يلتهمهـا عـن بعـد، ويخـط عـلى دفـتره خطوطًـا عشـوائية بالقلـم الحـبري الأزرق، دوائـر وعلامـات مبعـثرة عـلى ورقـة فقـدت شرعيـة الكتابـة المنظمـة كأنهـا سـاعة حـرب، قتـلى مـن الطرفـين ودمـاء زرقـاء وقلـوب مسـهمة، شـارد ذهنـه، نظراتـه ضائعـة يريـد شـيئًا لكنـه لا يعلـم بالضبـط مـاذا يريـد، يفكـر هـل سيسـتمر في علاقتـه بهـا أم يقطـع حبـل الخطيئـة ويرتكـن للضمـير.

ولكـن نـارًا مشـتعلة، لا يمكـن تجاهـل نـار مشـتعلة تربـكك، إمـا أن تطفئهـا أو تحرقـك، أو ترميـك بالـشرر فتصيـب بـه بعضًـا مـن رغبتـك.

-١١-

يستيقظ أيمن على الساعة التاسعة تمامًا، كانت ليلته مرهونة لدى قبيلة الكوابيس، استيقظ مذعورًا وخائفًا كأنه سقط للتو من حفرة مظلمة، صعد مباشرة إلى السطح حيث غرفة الغسيل التي يلتقي فيها براضية، بعد أن سمعت خطواته ونقره على الباب كما يفعل دائمًا، نقرتين خفيفتين ثم نقرة واحدة أخرى، التحقت به.

حكى لها حلمه المزعج، كانت بطنه تنتفخ حتى تكاد تنفجر، فيستيقظ وهو يضع يده على بطنه يتحسسها، وكلما عاد للنوم يتكرر معه نفس الحلم، ينتفخ بطنه وينفجر، يكاد يموت من الفزع.

عانقته راضية وهي تبتسم، كأنها تحضن ابنًا لها، ولأول مرة يشعر بأنها أضخم منه بكثير، يشعر بأنها كانت من الممكن أن تكون أمه، وتذكر أمه وآيت جرار ورائحة الحناء ولكن أمه الشتوكية وعصبة رأسها المعقودة على جبينها، رائحة صدر راضية ليست كرائحة صدر أمه، فقد شم فيه الكثير من الشبق والقليل من الحنان، والآن هو بحاجة إلى الحنان لأنه خائف من كابوس متكرر قضى مضجعه.

قالت له:

- أنت رجل وتخاف من الأحلام؟

وبـدأت تمـدح رجولتـه كعادتهـا حـتى جعلـت منـه أفحـل مـن سـنه، وارتمـت عـلى الأريكـة اليتيـم في غرفـة الغسـيل ، فهـي لا تسـتقبله في غرفتهـا احترامًـا لـسي عـلال ولبيـت الزوجيـة، وهـذا هـو منطقهـا في تفسـير ذلـك.

هو كان بحاجة لأنثى في هيئة أم.

وهـي كانـت بحاجـة لرجـل، لأي رجـل. ولكنهـا لا تريـده طفـلًا يخـاف مـن الكوابيـس الليلـة، فهـي قـد تفقـد شـهيتها لجسـده الصغـير إن شـعرت أنهـا تعامـل طفـلًا، لكنهـا تعـرف مـن أيـن تـأتي بالشـغف، مـن سـنين كبـت طويلـة تفعـل فيهـا مـا يريـده الآخـرون فقـط، تـرضي الآخريـن، هـا هـي أخـيرًا قـد اقتنصـت لنفسـها شـابًّا مـن المكتريـن الـذي يحضرهـم سي عـلال لكـراء البيـت، تمـارس معـه مراهقتهـا المؤجلـة، وتذبـح معـه مـا تبقـى لهـا مـن رغبـة، تزوجـت مبكـرًا وفـق التقاليـد، وتعـرف أن لـسي عـلال مغامراتـه خـارج السريـر، فهـو يبقـى بعيـدًا عنهـا لأيـام طويلـة دون أن تشاكسـه رغبتـه بهـا، وبعـده السريـري يـزداد تصدعًـا مـع الـولادة والأولاد والمسـؤوليات اليوميـة، حـتى أصبحـت مجـرد محظيـة في بيـت السـيِّد يداعبهـا أحيانًـا كي يذكرهـا فقـط أن في بيتهـا رجـل، وكانـت تشـعر بالغـبن وهـي تداعـب جسـدها المكتـنز في وحدتهـا البـاردة، وكانـت تطعـم خيالهـا دائمًـا بشـباب الحـي الذيـن تسـمع عـن مغامراتهـم، وكانـت تريـد مغامـرة محسـوبة المقـاس، وآمنـة بالقـدر الـكافي.

غرفـة الغسـيل واسـعة بهـا حمـام بلـدي وصالـون صغـير فيـه تقـضي راضيـة وأيمـن حميميـة اللقـاء بعـد أن تحكـم إغـلاق

الباب الحديدي للسطح، تحسبًا لدخول الأولاد من المدرسة فابنها في السادسة عشر من عمره، ويفهم معنى الجنس.

تطعم أيمن بيديها بيضًا مسلوقًا وخبزًا بالعسل والسمن البلدي وتلقمه زيتونًا بين الفينة والأخرى، وحين تكتمل الطقوس تدس في جيبه أوراقا نقدية، تضعها في سرواله المنزوع قبل أن تناوله إياه.

ولأول مرة تسأله عن زبونات المحل، وكيف يعاملهن زوجها، تقول له إن جاراتها يأتينها بأخباره، ولكنها لا تهتم، هو أصلًا لا يشبع نهمها؛ لذلك تفكر أنها في الأيام المقبلة ستدنس سريره بعد أن ترسل أبناءها لقضاء العطلة عند أختها في أكادير، هذا ما ستفعله بالضبط، ستدنس سرير الزوجية.

حقدها على زوجها أصبح يخيف أيمن، والمتعة التي كانت تولد الطمأنينة أصبحت تبعث على القلق.

الخطيئة دائمًا يتبعها الندم، فصمتًا آل العشق المحرم، وأيمن ينزل من أعلى دركة دركة، ويدخل غرفته منهكًا، يتحسس سرواله ليأخذ منه ورقة نقدية من فئة ٢٠٠ درهم، يتذكر رشيد الذي ورطه في اللعبة وأدخله المجال: «الدومين» كما يسميه، لم يعد يستطيع أن يركز في دراسته ولا أن يعيش حياته، إنه يعيش على إيقاع رغباتها، جنونها وشهوتها التي لا تنتهي، كحفرة كلما أخذت منها تكبر، أصبح يضحي بالصباحات الدراسية من أجل المتعة فوق سطح البيت، مقابل بضع وجبات وملابس ونقود وهاتف نقال.

- إني أبيع نفسي.

هـو يعـرف أنـه يبيـع نفسـه، لكـن يتخلـص منهـا؟! وأي سـلطة لجسـدها عليـه، إنـه دهلـيز نـتن، مقعَّـر وبؤرتـه هـي الأعضـاء الجنسـية، أجـواء قاتمـة الصابـة المظلمـة لمدخـل البيـت، إنـه يشـعر بالغـرق، غـرق في قـاع العهـر الذكـوري، شـيئًا فشـيئًا يتحـول المنظـر إلى لوحـة شـديدة السـواد، ويفقـد أيمـن كينونتـه واسـتقلاله، ويصبـح جسـده في خدمـة جسـد برجـوازي لسـيدة مكتـنزة الـثروة وفقـيرة الإشـباع، تواطـأت الظـروف ضـده، الحاجـة، الغربـة، الفقـر، الرغبـة، ولـم يكـن في حاجـة للتفكـير، كان منسـاقًا فقـط، وشـيئًا فشـيئًا تحـول جسـده إلى ورقـة متعبـة، ملوثـة بالاسـتغلال الطبقـي، والفـوضى والحقـد، وملوثـة بالخـوف.

لا يمكنـه أن يغـادر قـارة راضيـة بهـذه السـهولة، هـي مـن سـتقرر نهايـة القصـة، هـي مـن سـتحدد مـتى ترميـه كقطعـة غيـار قديمـة، وسـيحدث هـذا حـين سـيصبح أشـد حزنًـا وخوفًـا، وحـين سـتتعب هـي مـن محاولـة اسـتنهاض أشـيائه المنكمشـة والمرعوبـة.

الجسـد يخـتزن لغـة الرغبـة في أروقـة كالعـروق ويعمـل وفقها، وتلـك الرغبـة حـين تنكسـر كأعـواد يابسـة بحكـم القلـق والرتابـة، يـنزع الجسـد نحـو التراجـع والمـوت، المـوت السريـري الـذي جعـل راضيـة غاضبـة، وتتفـوه بالاحتقـار والـكلام السـاقط مـن علـو الفشـل، سـيصبح أيمـن شـيئًا فشـيئًا عبـدًا بامتيـاز، وسـتضيع ملامحـه في سـطور الاختنـاق.

أي ملعـون سـيكون أيمـن وهـو يحمـل فشـله السريـري ويرحـل دون ورقـة بنكيـة في كرامتـه.

ككيـس بلاسـتيكي مسـتعمل، كالـواقي الذكـري الـذي يرميـه في دورة الميـاه، سـترميه راضيـة في دهاليـز الإهانـة، فـلا فائـدة مـن جسـد متعـب وحزيـن وبائـس الغريـزة.

في عالم المتع يكون الحزن خطيئة.

والمجد للجسد الشبق والأعضاء المحمومة.

عـاد أيمـن إذن لغرفتـه، ودخـان السـجائر بداخلـه، رمـادي مرتبـك، يسـمع ضجيـج دخـول الطلبـة إلى البيـت.

إنـه منتصـف النهـار، يلـج ياسـين المطبـخ ليعـد أكلـة سريعـة لـه ولأيـور الـذي ارتمـى عـلى فراشـه ووضـع وسـادة فـوق رأسـه الـذي يؤلمـه منـذ اسـتيقظ فجـر هـذا اليـوم، ولـم يـبرح مكانـه إلا عندمـا نـاداه صديقـه لتنـاول الغـذاء.

لكنـه شـعر بمغـص في معدتـه بعـد أن تنـاول لقيمـات قليلـة فقـام إلى المغسـل ليفـرغ معدتـه، اصفـرَّ لـون وجهـه وامتقـع، غسـله بالمـاء البـارد وعـاد لينـام، قـام ياسـين بإعـداد إبريـق مـن الأعشـاب الطبيعيـة المطهـرة للمعـدة والأمعـاء، وضـع فيـه الشـيح والزعـتر وورقـتي زيتـون ومسـحوق قـشر الرمـان وحبـات حلبـة، ناولهـا أيـور الـذي شربهـا وغـط في نـوم عميـق لـم يسـتيقظ منـه إلا مسـاءً حـين أدرك أنـه تغيـب عـن الـدرس لأول مـرة، رغـم مرضـه شـعر أن غيابـه كارثـة وراح يبحـث في اسـتعمال زمانـه لـيرى أي الحصـص ضيـع اليـوم، لـم تكـن لديـه سـوى

حصة تربية بدنية ونشاط في النادي الأدبي للثانوية.

عاد ياسين سريعًا بعد السادسة ليطمئن على صديقه، حتى أنه نسي موعده مع كريمة التي استوقفته عند الباب الكبير فاعتذر لها لاستعجاله العودة للبيت، حين دخل وجد أيور يصلي الظهر والعصر جمعًا، وآثار النوم بادية عليه، انعكست عليه بالراحة والهدوء، قلَّ مغص المعدة والإسهال الحاد والانتفاخ المعوي، وقررًا الخروج للتمشية على أرصفة تارودانت الضيقة.

خاف ياسين على صديقه خوفًا أبويًّا قل مثيله؛ لذلك عانقه بشدة حين رآه واقفًا يعد الشاي في المطبخ قائلًا:

- الحمد لله على سلامتك.

وضع قطع الكرواسان التي أحضرها لتناولها مع الشاي بعشبة شجرة مريم الذي أعده.

هي الأرواح تتآلف وأيور لا يمكن لأحد ألا يحبه، إنه يوحي دومًا بالهدوء والطيبة، شكله، قصره، ملابسه العادية، مشيته، وحتى ابتسامته، أو ربما هي ابتسامته بالضبط ما يجعله محط فرح، إنه يبتسم بعينيه البنيتين كأنه الوارث الشرعي للصمت، وأكثر حديثه بعينيه وحواجبه المستقيمة.

لكنه مسجل رسميًّا في لائحة الحزانى، لو انتخبه شعب المتسولين ذوي العاهات العاطفية المستديمة لحول بلدتهم إلى جنة من الشعر والروايات الدامعة، وكل الأشجار ستعلق لافتات البوح الشفيف بأن الوطن يبكي، يبكي بحرقة، يبكي

الماضي والحاضر، أما المستقبل فيبدو من قبيلة الضباب المسموم المعلق في الفراغ، سيمطر موتًا على شعب الأموات الذين لا يجدون لحدًا يأويهم، كما لا يجدون وطنًا يحتويهم.

أيمن أيضًا مسجل هذه الليلة بسجل المفقودين من ذوي الأعطاب التاريخية في الذات، حين تُضغط النفس البشرية تنتج أكوامًا من الحزن، يراق على أرصفة المدينة ويكفي لسقي أشجار الليمون الكاذب مدة عقد من الحزن، ما أجمل الليل، إنه يجعل الحزن أسهل، حين يتعاطف السواد مع السواد، والصمت يحضن الموج، والكآبة ترتدي فستان عرس وتموت بين الزغاريد، إنه فرح الموت ورائحة العنبر المفقود في المقابر.

لا بحر في تارودانت ليغسل بمائه المالح قلوب منكوبي الوجود، وبائعي الجسد، ماء البحر لا يستطيع أن يعالج جروح القلب الغائرة، لا يستطيع قتل الدود الأرضي الذي تسلل عبر الكفن المترب المليء بالطمي والحنوط.

حين تحزن تضعف بالقدر الكافي الذي يجعلك تتقي من الذاكرة أسوأ اللحظات لتعينك على تخفيف حدة حزنك، ليس تمامًا، إنها الذاكرة المستعادة إبان حرب الحلول العاطفي، ذكرى متوارية منذ زمن قرب الغدة الباكية للعين، هناك ترقبه منذ آلاف السنين العاطفية لتنفلت ذات حزن بالغ الترف كحزن أيمن وهو يحمل جسده بين أضلعه اليتيمة، يحتاج أبًا الآن، يحتاج أن يخرجه من بين القبور المتراصة

في قريـة آيـت جـرار بتزنيـت، يحتـاج سـورًا قويًّـا يتـكئ عليـه مـن شـدة الفقـد، لمـاذا يختـار الوقـت اللحظـات الـتي يكـون فيهـا الجسـد عرضـة للتلـف ليجتهـد في التذكـر.

بـدت المدينـة لأيمـن منزوعـة الشـهوة، فاضلـة وفاسـدة، شـجرة الكسـتناء المعمـرة ترفـع سريـدة باليـة مـن الصـوف، تـسرب صوفهـا خيطًـا خيطًـا، كمـا يتـسرب الفـرح مـن قلـب أيمـن هـذه الأثنـاء، يتـسرب عـبر مجـاري التاريـخ.

المدينـة ترتـدي دومًـا مقاسـات أكـبر مـن فهـم الإنسـان وتـترك لـه مجـال تطريـز حقيقـة تناسـب حاجتـه البيولوجيـة للسـلطة، المدينـة سـمكة كبـيرة تلتهـم المـاء والأسـماك الصغـيرة الملونـة كقلـوب الأطفـال؛ لذلـك تجدهـا مبتهجـة بأضـواء متنوعـة، كلمـا قتلـت روحًـا بـدت أجمـل، تحـاول أن تطحـن روح أيمـن الملطخـة بفعـل محـرم، روحًـا شريـدة كورقـة تـين في خريـف الانتكاسـات النفسـية.

تذكـر والـده، الرجـل الأربعينـي القـوي بسـاعديه المعرورقتـين مـن شـدة العمـل بالحقـل، ضربـات الفـأس عـلى الأرض، قـوة اليقـين وعظمـة الـشرف، ورحيـل مبكـر بأزمـة تنفسـية مـن سـوء اسـتعمال مبيـد للحـشرات الضـارة بحقـل الطماطـم، ومـات الوالـد، بـدا أيمـن قويًّـا كابـن أوسـط، لكـن الذكـرى تحجـرت في الداخـل، حـتى بائـع التـين يذكـره بالصبـار المحيـط بالمقـبرة، يسـيل كعصـير الفاكهـة كـدم المـوتى المتبقـي في العـروق، وكان كلمـا هـمَّ البائـع بقطـع الثمـرة يتمـنى أن يترفـق السـكين بهـا.

المـوت، إننـا لا نبـكي الأمـوات بـل نبـكي أنفسـنا، قيمتنـا

الوجوديــة بعدهــم.

والأشياء الأخرى التي تزعجنا أن نبقى وحيدين في حياة غابة لا تقبل إلا الاجتماع، أن نبقى فيها كديكورات الصالة المتوارثة عبر الأجيال التي لا ينتبه لها أحد، كثوب الموبرة القوي الذي طاله مقص الحفيدة التي درست الخياطة في المعاهد ووجدت فيه فرصة للتجديد دون أن تعلم أنها مجرد فتاة طائشة من جيل طائش يعتقد أن الحياة تدور حوله فقط دون اعتبار للتاريخ ولا للماضي ولا للمستقبل، كمفتاح المدينة القديمة الذي فقد أبوابه، ما قيمة مفتاح في غياب الباب؟ كذلك نحن حين نكون وحيدين يرافقنا بعض ظلنا فقط.

كان أيمن وحيدًا، دون نقط مرجعية يهتدي بها، دون صديق، دون لذة تنتشله من غياهب التأمل الجارف وهو يحوم حول النافورة كبعوضة تحوم حول النار، والبئر السحيقة التي رمى فيها جسده الفتي، بئر راضية التي بدت قبل الآن البئر الوحيدة التي لا ينضب ماؤها في صحراء قاحلة.

الحياة قاحلة كصحراء الجنوب في عيني أيمن المتعبتين، ملؤها العطش والشمس والرمال الحارقة والبرد القارس، والأفاعي السامة الجائعة والسحالي البنية اليابسة على عمودها الفقري، لا حياة، لا شجر سوى أحراش حزينة نصف ميتة، كثبان ضخمة متحركة غادرة تخنق وتقتل، تضيع خرائط المكان وتتوغل بك في الحيرة وتسير بك عكس اتجاه السواحل، في الحياة كل شيء يعاديك حتى الوقت يسير ببطء حين تحتاج سرعته ويسرع حين تتأخر عن الركب،

علامة طريق واحدة تقودك تسمى الأبوة، عطف الأب ليس سرابًا بصحراء، ليس واحة تستريح فيها، إنها مدينة تولد فيها، بنافورات كثيرة وحدائق خضراء ومقاهي ومسارح وقاعات سينما ومحلات تجارية ومسابح عمومية ومدارس ومستوصفات، العطف هو تلك النقط التي تعجم الحروف الحزينة لتوضح أصل الفرح فيها.

وراح يحادث نفسه: «سامحني والدي، أنا لست رجلًا بما فيه الكفاية، فليرحمك الله ولترقد بسلام في قبرك، أحتاجك اليوم، أحتاجك اليوم أكثر».

ترقد دموع مترفة الحضور بمقلتيه، ولكنه يكابر، عليه أن يكابر وهو وحيد تحت الضوء الخافت للمصباح العمومي، يضغط على شفتيه المرتعشة ويبلع غصة ثقيلة وحادة، ويمسح بعنف ماء العين عن خدِّه، هو لن يبكي، كل نباتات الحديقة تقول إنه لا يبكي، وتخفي الخبر عن سلطان المدينة، فالحرج المضاعف للقلوب الضعيفة يكون أكبر حين تعلم أن شابًّا في العشرين يبكي نفسه في عمق الليل وعمق الألم، وعمق الاحتياج لأناس تحت التراب، ما أقسى أن ترغب بقلب مخفي بإحكام في قبر بأقصى الزمن.

عاد أيمن متثاقل الخطى للبيت وارتمى على فراشه ونام من شدة التعب، تعب داخلي؛ حيث لا رغبة له في الكلام ولا التفكير ولا أي شيء، استسلم للفراش دون أن يغير ملابسه ودون أن يزيل حذاءه، نام على نفس الوضعية حتى الصباح.

-١٣-

يـوم جديـد لنفـس العالـم، لنفـس الروتـين، الدراسـة والبيـت والجـولات المسـائية بمسـحتها الحزينـة، ومـرت أيـام عاديـة جـدًّا في نظـر الجميـع، لكـن أيـام المراهقـين والشـباب ليسـت عاديـة، ياسـين الـذي كان مراهقًـا لطيفًـا، لـم يعـد يسـتطيع كبـت جمـاح الأيـام السـاخنة؛ لأن الجسـد، الجسـد، الجسـد يفـور ويثـور كشـعب يـذوق طعـم الحريـة. انفجـرت فيـه عيـون الجنـس قبـل الحـب، الوجـه تملـؤه بثـور حـب الشـباب ويكتسي حلـة جديـدة كل يـوم، شـعر اللحيـة ينتـشر في مناطـق جديـدة مـن الوجـه ويبعـث عـلى الفخـر بالرجولـة، الوجـه فقـد ملمسـه الطفـولي، القلـب أيضًـا، ولـم يعـد ينظـر في عينيهـا فقـط، بـل ينظـر إلى كل شيء فيهـا، التاسـعة عـشر مـن العمـر حارقـة جـدًّا وطائشـة، مـا زالـت تجـر خلفهـا طفولـة مهترئـة ومراهقـة صعبـة، صعبـة جـدًّا، ضغـط الفقـر والحاجـة والجسـد والجنـس والقبـل والعنـاق والأحـلام والعلاقـات. والصداقـة لا تعـني شـيئًا غـير التعـاون في الحصـول عـلى لـذة. البنـت أي بنـت مجـرد لعبـة، معظمهـم يفكـر بهـذه الطريقـة، حـتى ياسـين يفكـر بكريمـة هكـذا عـلى مـا يبـدو، لكـن الأمـر تغـير تمامًـا، خليـط غـير مجـد مـن المشـاعر الـتي لا رأي لهـا أمـام الرغبـة وكلمـة الحـب لا تخـرج مـن القلـب بقـدر مـا تسـيل مـن الجسـد.

وكلمـات الحـب اسـتهلكت حـتى أصبحـت سـلعة رائجـة بـين

الطلبـة؛ كأريـد، أحبـك لدرجـة الجنـون، أصبتيـني بالجنـون، ارحمـي قلـبي الضعيـف ...

كان يفكـر فيهـا بالتبـاس شـديد، فمـرة يلبسـها ثـوب الأمـيرة ويقـرأ لهـا شـعر الفرسـان، ومـرة يعريهـا في نـزق ويمـد يـده لجسـدها، ولـم تكـن هـي إلا صـورة مفصلـة لفتـاة في ذهنـه، ولكنهـا كانـت المرجـع الواقعـي لأحلامـه، وكذلـك لاحتلاماتـه. سـألته ذات يـوم في رسـالة هاتفيـة، كيـف يفكـر فيهـا؟ وكان شـيطانه مسـتيقظًا حـين قـرر أن يكـون طائشًـا هـذه المـرة، فقـال لهـا إنـه نائـم ولـم يـبرح فراشـه بسـبب الـبرد القـارس في المدينـة، وأنـه تحـت غطائـه الصـوفي المعـروف بالحمـل -الحمـل يصنـع يدويًّـا في بعـض القـرى المغربيـة مـن صـوف الغنـم ووبـر الماعـز- قـال أيضًـا أنـه يـدفئ يديـه بـين رجليـه محتضنـا أشـياءه، أخبرهـا ذلـك بـشيء مـن النشـوة والطيـش والفـرح، ولكنـه أضـاف أنهـا سـيدة أفـكاره حـين يتعلـق الأمـر بالحـب الطاهـر أيضًـا.. واضـح أنـه يهلـوس وأنـه يعيـش الرغبـة والمراهقـة، كـم مـرة حاولـت تقبيلـه ورفـض؟ وكـم مـرة شـعر بأنهـا ترغـب بـه وأنهـا خائفـة؟ وكـم مـرة عاشًـا لحظـات خـارج الحيـاء المعتـاد؟ لكنـه لـم يفهـم كيـف تجـرأ وأرسـل لهـا رسـالة تتضمـن كلمـة أشـيائه؟ وكيـف لـم تجبـه مـدة يومـين بسـبب الخجـل؟ ولكـن حـين راسـلته، أعـاد الكـرة وقـال لهـا:

- أريـد أن أضمـك إلى صـدري وأن أشـعر بـك ترتجفـين بـين ذراعـي...

أصبـح الجنـس معطًـى لغويًّـا منفصـلًا عـن الواقـع، بدخـول

عالـم الاتصـالات ومواقـع التواصـل.

بـدأت فـترة الامتحانـات العصيبـة، شـهر يونيـو دائمًـا مرهـق، الأعصـاب مشـدودة والأدمغـة منتفخـة مـن كـثرة الإعـداد والـدرس والتخزيـن في الذاكـرة، والضغـط يولـد الانفجـار.

اسـتمرت علاقـة ياسـين بكريمـة طـوال السـنة، يخرجـان مـرات في الأسـبوع بعـد الثانويـة، يتجـولان حـول السـور حـتى المسـاء، يجلسـان عـلى حافتـه قـرب بـاب أولاد بنونـة هنـاك في الظلمـة الخفيفـة لمـا بعـد غـروب الشـمس، اسـتحوذت عليـه كريمـة بـكل حضورهـا الأنيـق والثائـر، رغـم خجلهـا الفطـري كانـت تعيـش معـه بـكل كيانهـا، صحيـح أنهـا استسـلمت لرغبـة أختهـا الكـبرى في وضـع الحجـاب لكنـه كان مجـرد غطـاء للـرأس زادهـا جمـالًا، خصوصًـا حـين تختـار ألوانًـا مضـادة للـون بشرتهـا الفاتـح، ياسـين رغـم كل احتياطاتـه السـابقة انبهـر بهـا حـد الجنـون، للجسـد منطـق آخـر، وهـي راهنـت عـلى ذلـك منـذ البدايـة، جعلتـه يـذوب حبًّـا وهيامًـا وعشـقًا، لا يمكنـك مقاومـة أنـثى في بدايـة ثورتهـا العشـقية، فكلهـا نعـرات جسـدية أينمـا وضعـتَ يـدك تشـعرها بالتوتـر والنشـوة، فالاكتشـافات الأولى للجسـد لا تنـسى، وتظـل مطبوعـة في القلـب والذاكـرة وتبقـى كسـائقي الرغبـة المثـيرة في كل لحظـة تذكـر أو لحظـة لقـاء.

وياسـين أيضًـا كان يكتشـف نفسـه مـن خلالهـا، كأنهـا أداة للتعـرف عـلى جسـده وكـم كان يخـتزن مـن فيلـم في يديـه وشـفتيه، وتحـت كل شـعرة جديـدة مـن شـعر جسـده، مـا زال يكـبر ويكـبر معـه عالمـه.

خفَّت لقاءاتهما بسبب الامتحانات لكنهما ظلَّا على تواصل عبر الهاتف والتطبيقات الاجتماعية الأخرى خصوصا الفيسبوك، هاتف ياسين اشتراه بثمن مناسب من أيمن الذي حصل على هاتف جديد من راضية أو من غيرها، هاتف أيور وحده بقي تقليديًّا يستقبل المكالمات والرسائل فقط.

- مساء الخير أيور.

- مساء النور ياسين. لقد حضرت وجبة طعام ، تفضل بالجلوس.

- آه جيد، أنا جائع جدًّا.

- تفضل كل إذن. لا أستطيع البقاء للدراسة في هذه الغرفة التي تزكم الأنوف، الجو حارٌّ جدًّا، أفضلُّ أن أسهر خارجًا تحت أي مصباح عمومي لأدرس، كما أن الجو الجارجي يكون معتدلًا، على الأقل يسمح بالتركيز قليلًا على هذه الأوراق، دروس التاريخ طويلة جدًّا، واقتصاديات الدول الكبرى متشابهة ولكنها متمايزة في جوهرها، فاقتصاد ألمانيا ليس هو اقتصاد فرنسا، كما أن كثرة الخرائط تتطلب الكثير من الرسم والتوطين، الأمر يحتاج وقتًا ولم يعد لدينا وقت كثير.

- لا تقلق، أنت تستعد طوال السنة تحتاج فقط إعادة استذكار ما درسته.

- ربما أخطأت في توجهي للشعبة الأدبية، لو كنت مثلك فقط، أنكب على تمارين الرياضيات والفيزياء..

- الأمـر ليـس كمـا تتصـوره، الدراسـة عمومًـا تحتـاج تضحيـة كبـيرة، للحصـول عـلى تمـيز مـشرف، أمـا الباكالوريـا فسـتحصل عليهـا عـلى كل حـال.

فتـح ياسـين هاتفـه، وبـدأ في تصفـح رسـائله وتـرك أيـور مسترسـلًا في حديثـه ولـم ينتبـه إليـه حـين غـادر البيـت مودعًـا، وجـد رسـائل كريمـة في علبتـه عـلى الواتسـاب، قلـوب حمـراء كثـيرة وجمـل حـب وتحرشـات شـقية،

- مسـاء الحـب، اشـتقت إليـك.. أخذتـك مـني الكتـب، لـن تفلـح بـدوني..

- مساؤك قُبَل، ماذا تفعلين؟

- لا شيء، فقط أعد العشاء، وأنت؟

- أنا مع أيور بالبيت.

لكنـه انتبـه إلى أن أيـور قـد خـرج في الوقـت الـذي كان يطالـع فيـه رسـائله،

- لكنـه خـرج الآن، سـألحق بـه بعـد قليـل. سأراسـلك ليـلًا، إلى اللقـاء.

- سأنتظرك لا تنم دون أن تكلمني.

بقـي في البيـت مـدة كافيـة أعـد العشـاء وتركـه عـلى المائـدة الصغـيرة بغرفتهمـا، دخـل عنـد أيمـن ليسـلم عليـه، كان يدخـن في غرفتـه، جعـل منهـا مدخنـة واسـعة، لفيفـات حشـيش وأعقـاب سـجائر مرميـة في الغرفـة عـلى الفـراش وفي المنفضـة،

هالـه الأمـر فبقـي مندهشًـا مـن حالـة أيمـن الـذي فقـد كل حـس بالنظافـة.

طلـب منـه أن يسـمح لـه بتنظيـف الغرفـة أو أن يسـاعده عـلى ذلـك، لكـن أيمـن لـم يجبـه، جمـع ياسـين أعقـاب السـجائر ومسـح الطاولـة، وعلـق الملابـس عـلى المشـاجب وراء البـاب، وجلـس مقابـل أيمـن:

- هل تريد كوبًا من الشاي؟

- نعم، شكرًا

- لا داع للشـكر نحـن أصدقـاء، هـل أنهيتـم امتحانـات الجامعـة؟

- نعـم لكـني لـم أفلـح في شيء، تنتظـرني الـدروة الاسـتدراكية في كل المـواد.

- الله المعـين. سـأخرج الآن، لدينـا امتحانـات كثـيرة هـذا الأسـبوع.

- اعتن بنفسك وحضِّر جيدًا فأنت تستحق النجاح.

حالـة أيمـن لا تطمـئن، إنـه يائـس، لا يسـتطيع أن يركـز في شيء، وهـو منـذ فـترة عـلى هـذه الحـال، أصبحـت لديـه لائحـة مـن ثـلاث برجوازيـات عـدا راضيـة، تلـك حقيقـة أيمـن، لا يمكـن إخفاؤهـا أو تجنبهـا فهـي حياتـه، هـو لا يخـبر أحـدًا؛ لأن الحقيقـة لا تصلـح دومًـا للعـرض الجماهـيري، فـأن يكـون هـو بالوحـدة الـتي يريـد وباختياراتـه الخاصـة جائـز، ولكـن مشـاركة الآخريـن ليـس إنسـانيًّا، الإنسـان في حضـور الآخـر مقـترنٌ بـه،

عاشـقٌ ومحـبٌّ ومحـترمٌ عـلى الأقـل؛ لذلـك يصمـت ويعيـش عالمـه وحـده دون إحـراج الآخريـن وإجبارهـم عـلى تقبلـه كمـا هـو، فهـم سـيبذلون جهـدًا عـلى الأقـل في تجنبـه ومنافقتـه إن لـم يجـرءوا عـلى معارضتـه.

علاقاتـه بالنسـاء الكبـيرات جعلتـه ينضج كأنـه رجـل في الأربعين مـن عمـره، ولكـن شروده يـزداد يومًـا بعـد يـوم، كل مـا يـراه أمام ناظريـه هـو البيـدر المهجـور في قريتـه بآيـت جـرار، تـتراءى لـه بقايـا التـبن الـتي تحملهـا الريـاح بعيـدًا، تنقلهـا مـن مـكان إلى آخـر، يراقـب ذلـك وهـو جالـس عـلى صخـرة مسـطحة قـرب البيـدر، كانـت تسـتعمل لتوضـع عليهـا صينيـة الشـاي الضروريـة أثنـاء عمليـة درس القمـح الـتي توافـق بدايـة الصيـف، يظـل يتابـع قـش التـبن وهـو محمـول في الهـواء، يصعـد شـيئًا فشـيئًا إلى أعـلى، ليلامـس السـماء، وهـو يراقبـه وينقطـع عـن اللحظـة والآن، ينفصـل عـن محيطـه شـيئًا فشـيئًا حـتى يلامـس السـماء الصافيـة، والتـبن المعلـق عـلى أشـجار الأركان الصلبـة.

علاقتـه براضيـة ميكانيكيـة، هكـذا يجـب أن تكـون في أصلهـا، إنهـا آمنـة بمـا فيـه الكفايـة لتسـتمر، صحيـح أن راضيـة عرفتـه عـلى زوجـة أسـتاذ الرياضيـات وهـي تعلـم أنـه يقابلهـا مـرات كل أسـبوع، ولكـن هـي صديقتهـا وتوفـر لهـا السريـة التامـة حـين تريـد أن تغـير طعـم أيمـن بطعـم شـاب آخـر مـن المدينـة؛ لذلـك تسـمح لـه بالعبـث بعيـدًا عنهـا، نسـوة مـن صنـف المعتقـلات الجنسـية هربـن للتـو مـن بيوتهـن البـاردة، يبحـثن عـن دفء آخـر العمـر في أجسـاد بـدأت تنضـج عـلى إيقـاع الفقـر والرغبـة والحاجـة.

لم يلجأن للرذيلة؟

أيمن يعلم جيدًا شغفهن بالجنس، لكنه يظل يطرح السؤال على نفسه، وأحيانًا عليهن، ويكون الجواب دائمًا غياب الزوج عن السرير أو حضوره غير الكافي، هكذا يبررن تضامنهن في شبكات مساعدة جنسية كأنها حفلات جمع التبرعات العاطفية، عرف أيمن سر المهنة وتخلص من خوفه وضعفه واحتياجه القديم لصدر كصدر أمه، وجعل راضية مدمنة عليه، مدمنة حد المرض، كأنه عرف أكوادها السرية للنشوة، ما زالت تمتصه كأنه رحيق عسل في قوارير الذهب.

ها هو ذا أيمن بلائحة لا بأس بها، راضية وزوجة أستاذ الرياضيات، زوجة الفلاح صاحب ضيعة البرتقال ومحاضن الدجاج، هذه الأخيرة التي عرفها بأغرب طريقة، فقد وقفت أمام محل الحاج علال، وأشارت إلى أيمن بأصبعها من وراء زجاج السيارة المعتم، كانت ترتدي عباية خليجية ونظارات سوداء عريضة، طلبت منه رقمه لتتصل به، ومن شدة انبهاره لم يصدق أنها ستفعل، لكنها اتصلت به في المساء وقالت له إنها هي من سيتصل به دائمًا ومنعته من أن يبادر هو بذلك تحت أي ظرف كان.

اتصلت به، أعلنت إعجابها به، ليس به بل بجسده، قالت له إن الحاج يذهب في رحلات لمراكش؛ لأن لديه محاضن أخرى للبيض وإنتاج صغار الدجاج، وأنها ستتصل به في الوقت المناسب لتأخذه معها إلى هناك، على أساس أنه عامل في الضيعة، وهذا ما حدث فعلًا، أرسلت سائقًا

ليحضره ذات مساء، وكانت قد أعدت العدة وقدت قميصه من كل جانب.

بقدر ما كان يملك من حاسة سادسة لشم الرغبات بين أفخاذ النساء بقدر ما كانت لهن ملكة التعرف على الرجل المناسب للمهمات السرية، في هذا العالم: «الدومين».

يالمدينة تارودانت، في صغرها نقمة، تتأرجح على ميزان الستر والفضح، ولكن الضيعات المحيطة بها تمتهن كل أساليب التستر، الضيعة واسعة كبحر لجي، والفيلا تقع في أقصى اليمين بعيدًا عن رائحة الاسطبلات والمحاضن.

دخلها أيمن وفي عقله ترن زغاريد حزينة، عقد بسرعة مقارنات بين حياته وحياتها، كل الرخام في المداخل وعلى السلالم، دربزين الألومينيوم اللامع، السجادات والزرابي التركية، التحف اليدوية من مدن مختلفة، تمثال متوسط لأبي الهول المصري، حاضر بكل فرعونيته، كل هذا وسيدة جائعة.

مع الوقت استطاع أيمن أن يغيب عقله، ألا يفكر أبدًا، منساق كمعزاة نحو هاوية سحيقة، بدأ ينسحب من شخصيته ليدخل في الفراغ، الدومين لا يسمح لك بالتفكير فيه من داخله، الدومين عالم خاص جدًّا، أنت جزء منه وبعض في كله، جشطلت (اندماج حسي مدرك)،

أنفاس أيمن تتلوث بالحشيش يومًا بعد يوم، تجربة الانتشاء الأولى كانت عادية بقدر كبير من اللذة، ألذ من بطن أي أنثى قد يصادفها يومًا، هل سيتحمل كل هذا

الانسـحاب مـن شـخصيته دون مسـاعدة خارجيـة؟ مسـتحيل، كان يتأرجـح بـين الدخـول والعـودة، وكانـت سـيجارة واحـدة كافيـة بـأن تجعلـه يلتهـم راضيـة تلـك الصبحيـة بشـكل وحـشي طمأنهـا عـلى قوتـه وحضـوره.

ولكـن الريـاح أمامـه دائمًـا تحمـل تبنًـا عليـه أن يراقبـه وهـو يطـير في الهـواء.

-١٤-

بيت الطلبة لم يعد يعاني نقصًا في المؤونة، راضية إن رضيت ترسل بين الحين والآخر أطباقًا من الثريد، والمسمن والكثير من الفطائر، عدا أنها تضغط على سي علال ليصبر على دفع ثمن الكراء، وهذا جعل الطلبة ينعمون ببيت مريح أكثر من أي وقت مضى.

الفئران الصغيرة تأكل من جسد أيمن، تتناول مع كل حصة جزءًا من دمه، من شخصه، من كرامته، هو لم يفكر في ذلك؛ لأنه وسط الدومين، ونظام الأشياء هنا لا يقبل الحنين ولا الضجر ولا الحزن السخيف قاتل المتعة، ولا أسئلة الحرام العادية، منساق فقط دون طرح للأسئلة العقيمة.

كان كريمًا مع الجميع، خصوصًا ياسين وأيور، هو اعتاد عليهما في هذا البيت، هناك روابط غير أسرية تنشأ بين الطلبة، تتقوى مع الوقت حتى يصبح الواحد منهم أخًا للآخر، يتقوى به ضد الحياة القاتمة لشباب في غربة. هذه الروابط تظهر حين يختفي أحدهم وقتًا أطول من المعتاد، أو حين يستعد أحدهم للرحيل بعد إنهاء دراسته.

التحق ياسين بأيور في الحديقة العمومية لكنه لم يجده هناك، فعاد للبيت لينتظر عودته.

فضَّـل أيـور الذهـاب للحقـول المجـاورة لتارودانـت، حيـث أشـجار الزيتـون خصوصًـا، ليراجـع دروسـه تحـت ضلالهـا بعيـدًا عـن حـر يونيـو المبكـر سـيبقى هنـاك سـاعات قليلـة قبـل أن تغـرب الشـمس ليعـود للمدينـة للبحـث عـن عمـود كهربـاء يسـتضيء بـه ليـلًا.

تحيـط بتارودانـت حقـول أشـجار الزيتـون، أشـجار معمـرة قديمـة تتخللهـا سـواقي شـيدت في المرحلـة الاسـتعمارية.. يرتـاد أيـور هـذه الحقـول أحيانًـا، هـي مرعـى للأغنـام ومرتـع للصبيـة ومـكان للنزهـات العائليـة، لكـن النشـاط الأهـم هـو لقـاء العشـاق مـن الشـباب والشـابات، يمكـن التميـز بـين تلـك العلاقـات فالثنائيـات تختلـف في نـوع العلاقـة وأهدافهـا، هنـاك مـن يبـدو منـذ الوهلـة الأولى غريبًـا عـن المـكان تمسـك بـه صديقتـه الخائفـة الـتي لا بـد أنهـا في الإعـدادي وهـو في الثانـوي، يجلسـان قـرب جـذع شـجرة عاديـة، يتبـادلان الـكلام فقـط وبعـض اللمسـات والابتسـامات المرتبكـة، يتنـاولان البسـكويت ويشربـان الرايـب جميلـة، مـن شـدة أناقـة الشـاب الـذي أخـذه الفـرح وهـو مـع حبيبتـه يبحـث عـن مـكان يرمـي فيـه العلـب الفارغـة دون أن يفسـد منظـر المـكان، يكتفيـان بالـكلام، إنهمـا رائعـان رومنسـيان، طَـرَقَ الحـب قلبيهمـا للتـو.. ربمـا.. يرحـلان قبـل غـروب الشـمس.

وقـد تجـد ثنائيًّـا آخـر يبحـث عـن شـجرة معينـة اعتـادًا الجلـوس إليهـا، أخفيَـا بـين جذوعهـا بعـض قطـع الكارتـون، ليسـتويًا عليـه.. تجلـس الفتـاة أولًا معتدلـة ويهـوي الشـاب قربهـا متكئًـا عـلى منكبيـه قربهـا، هـذا النـوع عـادة يحمـل روايـة

بين يديه أو ديوان شعر نِزاري بالضرورة، بعد ألفة يقتربان من بعضهما، يمسك يدها ويقبلها وهي تتمنع وتنظر حولها وتعاتبه.. لا يغادران مع غروب الشمس بل بعده بقليل، حين يغض ضوء النهار الطرف عنهما يقطفان بعض القبل ويرحلان، لا بد أنهما من الشعبة الأدبية.

النوع الثالث يأتي قبل غروب الشمس بساعة تقريبًا، الشاب يبدو واثقًا من نفسه يمسك يدها طول الطريق المؤدي إلى سيدي بورجا، يختار الحقل المزروع بالذرة لينزرع فيه معها، من حسن حظه أن فلاح الحقل غير موجود، تأخذ الفتاة من حقيبتها بعض السندويتشات وقنينات البيبسي كولا وتناوله في سعادة ما أحضرته من بيتها من أجله، نوع خاص من الفتيات، فالفتاة التي تحضر كل شيء منزليًّا هي شبه ربة بيت، تبدو سخية، هو ضاحك فرح يعاملها بلطف كبير، إنهما مستعدان للبقاء هناك إلى ما بعد غروب الشمس، يأكلان، يشربان، ينخرطان في جمل جسدية عميقة القبل، وقد يتخففان من بعض الملابس، كأن يتخفف هو من سروال الجينز ويبقى في شورط ويتركها تداعب شعر أطرافه.. ويستمران في الجمل العاشقة لسيناريو ممسرح منذ عرفًا معنى الجسد، يمكثان مدة ثم يرحلان لكن بهدوء أكبر دون ضجيج وكفيه على دراجته، لا يحضنها ولا تمسك به فقط يسيران نحو المدينة..

النوع الرابع من الثنائيات يحفظ سوره عن ظهر قلب.. هذا الثنائي يأتي مع غروب الشمس، يختار شجرة رباعية الجذوع، يضع دراجته الهوائية بين جذعين ويضع فوقها

الجاكيت وكيس المأكولات كأنه يصنع خيمة، يأخذ سيجارته ينفخ فيها ويشرب من قنينة المشروب الغازي المعدلة مزاجيًّا، هي خليط من المشروبات، هي تتوسد فخذيه أو بطنه وهي مستلقية على ظهرها وبين فينة وأخرى يطعمها قبلة طويلة تكاد تخنقها، يحل الظلام فينطلق الجسدان في حفلة شهوة مستمرة حتى ما بعد العاشرة ليلًا... مخلفان وراءهما أوقية ذكرية مستعملة، أن تبقى في الحقل إلى وقت متأخر يستدعي منك نوعًا من الحماية كأن تكون رفقة ثنائيات أخرى من نفس النوع أو أن تكون عالمًا بخريطة الحقول والممرات والأشجار وأن تحمل معك سلاحًا خفيفًا وبالطبع لا يجب أن تخاف الثعابين والحشرات وحتى العقارب...

الشهوة تمارس حقها في الهوامش، في وطن يصعب فيه الجهر بالقبل، وتمنع فيه المرأة من حقها في التعبير عن الحب، وطن لا يؤسس لشيء غير انتخابات مزورة تجعله ظاهريًّا من الساعين للديمقراطية، لا دستور للحب ولا مدونة عشق.

غاب أيور عن الحقل وعن المدينة والتجأ لمكان منزو قرب باب تارغونت في اتجاه ضاحية بوتاريالت، هناك بقي يتجول وحده حتى منتصف الليل، رغم خطورة المكان وانتشار تجار الحشيش بالتقسيط، وتجار ماء الحياة، الظلام دامس، لا يسمع غير خطواته وكأنه وحده يسير على هذه الأرض، تهتز مدارات تفكيره ويجمع شتات تعبه وإرهاقه، يجمع شتات حياته ويرتب شريط ذكرياته، يحتاج أيور الكثير من الوقت وحده، ككل الشعراء، الانعزال ضرورة حياتية بالنسبة له،

فيه يبني عش صوره وفيه تفرخ لغته، لكن الانعزال يبقى غامضًا ومؤلمًا، اقترب من قنطرة واد سوس ثم استدار وعاد أدراجه، شعر بنسيم عليل لمنتصف الليل يداعب جسمه، وراح يفكر في كل شيء، لكن بترتيب مريح، لا تتزاحم الأفكار في ذهنه بل تتراقص في رشاقة أمامه، وراح يكتب في الهواء قصائد من نسيم، تلك الدودة الحزينة تمشي بخفة على ورقة التوت اليابسة مخافة أن تكسرها أو أن تزعج الجيران، ولكن حزنها ثقيل لا تقوى على حمله، والورقة هشة حد الموت، والغابة كبيرة لا تعترف بمشاعر دودة متشردة تحمل قفة يأس بين جنبيها؛ لذلك قرّرتْ أن تنكمش وتلتف حول نفسها ثلاث لفات وتنتظر الصياد الطائش أو الجندي ببرود أو جيش سليمان ليخلصها من حزنها، يبقى حزن أيور معلقًا في الفراغ لا أصل له ولا عنوان، كأنه رواية كتبها جندي مجهول أسقطته طائرة ورقية في عمق واد يحترق، لم تعد لديه أعصاب، يملك فقط تلك العروق التي تشبه خطوط ورقة توت يابسة مر عليها جرار ضخم كالمشاعر، في حديقة بيت مهجور في مدينة الحرب الأهلية, قوي في ضعفه وصمته وسهوه، يرتوي من الشمس ويشرب بقية الأمس.

هذه اللحظات الوجودية تجعل من أيور شخصا آخر.

ضبط هاتفه على إعدادات تسجيل الصوت وراح يهذي:

متعب أنا كقطار بخاري

يستعد للفظ آخر زفرة فحم

وليستقر في المحطة القديمة

خارج بلجراد
حيث كان الثلج يغطي أموات الحرب.
لتصدأ جنباته وتنمو بين أقراصه الحشائش
ليلعب فيه أطفال المدارس في حصة التاريخ
لتقول لهم المعلمة
صاحبة النظارات السميكة
المدججة بالمناهج والثقافات.
أني كنت هنا
وأني هويت ذات يوم وأويت لركن قصي من العالم
كي أرتاح قرب الثلج
وقرب ذكريات الرصاص والفحم.
متعب أنا
كصديق يحمل كرة سيزيفية الثقل
عمِّر وهو يحارب الصمت.
حتى أهلكته الحروف
ها هو يبوح
بين يدي آخر الفرسان في قلبه
ها هو كرؤيا يتجلى أمامه
كما يتجلى المعنى

وها هو يلفظ آخر آلامه بين يديه
وهو يسقط صريع الكلام
ويسفك ما تبقى من دماء الذكرى
ها هو يموت ليحيا
متعب أنا
كطبشورة منسية في مكتبة المدرسة
في العطلة الصيفية
تحجرت على حكاياها واشتاقت لشغب الضجيج
وتمنت لو كتبت قبلًا كل أشعار الفرح
لو شرحت أكثر
لو صارت غبارًا
متعب أنا
ضعني هناك
وعد إلى السطر
سأقوم بدوري جيدًا
سأقبع هناك حتى تنهي كل قوافيك
ولن أسقط إلا تعثرًا بقارئة حزينة
تهوَى النقط السوداء.
سأحرس الحزن كي لا يشبح

أو يشيخ.
سأجعله يحتفل كل يوم بجرح جديد.
متعب أنا
يا حبيبي
كثدي أنهكه الورم
كتبن باسه الشرر
فاتقد ما به من ألم.
أيها الفلاح الذي فقد أرضه
أنا مثلك مثخن بالوهن
وعتلتي وفأسي فقدا شهية الحرث
وكفزاعتك القديمة
المنزوعة الهيكل
أرتمي قرب الزريبة
وأنتظر مرور الطيور لتنتقم من فزعي.
أنا هنا مثلك
أخذت الوقت وجمدته بين يدي
وأقف وإياه كالصنم.
أنا متعب
كبقايا الزيت على جنبات القناني

كسرٍّ تقادم في دولاب الذاكرة.
مثقلٌ كسلال معصرة الزيتون
التي تنتظر أن تفرغ ما في جوفها من حزن
قطرة قطرة
وحرقة حرقة.
أنزوي قرب كانون الجمر
وأدفن الصمت في الرماد
وأشتهي البقاء وحدي
أُناجي أنفاس حنيني
وهوسي بتركيب علامات الضجر على قصاصات الأيام.
متعب أنا
كبرسيم أخضر ظل في بقعة الشمس
لا هو يابس النهاية
ولا هو طري البداية.
متعب أنا
لو تعرفين حقيقتي.
معلق إلى السماء
كخيط عنكبوت معلق إلى الثريا.
الثريا نحاسية يعلوها الصدأ الأخضر

هي أيضا حزينة

معلقة منذ القرن الثامن عشر في هذا القصر

المهندس على النمط الفيكتوري التعيس.

قديم الطراز تسكنه الأشباح.

وتسكنه الحكايا والقبل الباكية.

وربما تسكنه أرواح الشعراء الحزانى

كاتبي القصائد الدامية.

كبودلير

كانتصار دوليب

كالسيَّاب يسمع طرق الريح.

كم أنا متعب، لقد كنت طوال اليوم أبيع نفسي في سوق الأسئلة المستقاة من نافورة الألم.

كم أنا متعب وأنا أجول السوق حاملًا نفسي فوق نفسي، وأجر ذاكرة مهجورة في رحم التاريخ.

على الجدار الداخلي لقلبي أكتب لحن الموت وأردد أغنيات الصداع النصفي الذي يؤرقني منذ قرن أو يزيد.

أريد أن أبيع أيضًا أرق المزمن المعتَّق المخثَّر داخل جمجمتي ،

لا أحد يشتري أشيائي، حواملي وأسندَتِي، روتيني الساكت على عذاباتي ويومياتي الهجينة التي لا تعرفني

أنا متعب حبيبتي

ضميني إليك أُشفَى من أمراضي المزمنة المتعلقة بأنفاسي

أريد أن أتنفسك وأشم العالم الحي بين عينيك

أريدك والآن سمرائي.

أنهى تسجيلاته قبل الدخول عبر باب الزركان، الذي يحمل تاريخًا يعود إلى ق ١٦ الميلادي، وكانت تدخل عبره وفود العبيد القادمون من بلاد السودان، مرَّ عبر حي بن يارة ومنه إلى سيدي أحساين محاذيًا للجامع الكبير، ومنه إلى ساحة الأندلس ثم مر عبر الصابة المظلمة ودلف إلى البيت، وجد ياسين في انتظاره، تبدو عليه علامات القلق، اعتذر منه، ونام بعد أن تناول عشاءه البارد.

نام وهو يفكر في ياسين، ما أجمل أن يكون في العالم شخص لا ينام حتى يطمئن عليك، ما أجمل قلب ياسين، لكنه لن يحدثه الآن فهو متعب يبحث عن نقطة نوم، وقد نام دون أن يغير ملابسه.

انشغل ياسين بحديثه عبر الشات مع كريمة، ومع غير كريمة، فمنطق العلاقات الافتراضية لا يحميه الوفاء التام، هذا الإدمان النوعي على الشات الليلي يجعل منه محترفًا للسهر رفقة أسماء نساء، مجرد أسماء أغلبهن مستعارة، وهو أيضًا يملك شخصية افتراضية توازي شخصيته العادية، يملك أصواتًا متعددة لجسد واحد.

ومن ليست لديه أصوات في داخله تهمس له، تحدثه،

تـصرخ في جوفـه، وتنازعـه التأمـل والتفكـير، وقـد يحلـو لهـذه الأصـوات أن ترتفـع في أوقـات غـير مناسـبة كحفنـة يقظـة قبـل النـوم مبـاشرة، الأصـوات كثـيرة في داخـل كلٍّ منـا، يجـب فقـط ترتيـب حواراتهـا وضبـط أوقـات حضورهـا وتوزيـع الصمـت بينها بديمقراطيـة وعـدل، ولكنهـا ليسـت كائنـات منصاعـة للقانـون والقيـم، إنهـا أصـوات فقـط، مجـرد أصـوات هلاميـة لا تسـتمع ولا تحـترم الآخـر وتتزاحـم في الـكلام ورفـع مسـتوى الضجيـج الداخـلي، وإذا عدنـا لتاريـخ هـذه الأصـوات الكائنـات نجـد أنهـا تكونـت بالضبـط مـع البلـوغ، حـين أصبـح لدينـا شيء نخفيـه عـن الآخريـن، أفـكار شريـرة، أحـلام سـاخنة، أمزجـة غـير ثابتـة وغـير مفهومـة. كل هـذه الأشـياء تحتـاج عمـلًا سريًّـا وحـوارات داخليـة، والحـوارات تحتـاج كائنـات تتحـاور، فحـين تشـاهد أنـثى لا تسـتطيع لمسـها تعمـل في ذهنـك سـيناريوهات كثـيرة وتحدث جلبـة وصراخًـا في داخلـك، إقليـم في جسـدك يريد قضـم نهدها، وإقليـم يريـد الاسـتقلال التـام ونسـيانها، وإقليـم يريـد الحكـم الـذاتي عـلى شـفتيها، وإقليـم يريـد اسـتعمار كل جسـدها.

حـكام هـذه الأقاليـم يسـتوطنون داخلـك ولكـن المديـر العـام مهـووس بالكبـت فتبقـى أصواتهـم دون صـوت، هـم أيضـا يكـبرون مـع الزمـن ويصبحـون أكـثر ديكتاتوريـة ككل الحـكام، بعضهـم يسـتيقظ ليـلًا في غفلـة منـك ويسـتعمل جسـدك ويفرغـك مـن رحيـق الحيـاة في متعـة لذيـذة لا تنتبـه لهـا إلا وأنـت غـارق صباحًـا في مـواد لزجـة، وبعضهـم يرتـدي قبعـة الحكمـة ويعيـدك لرشـدك غالبًـا في النهـارات المعتدلـة المـزاج فتنصـاع للحاكـم الأكـبر وتبـدو راشـدًا، هـذه الكائنـات الموازيـة

لـك مجـرد أفـكار تتناطـح ذهنـك ومخيلتـك، وتـثري شـخصيتك بوجهـات نظـر متباينـة، وهـذا مـا يشـكل وجـودك، تكون شـخصًا عاديًّا تتجاذبـه الحيـاة، هنـاك كائـن جميـل داخـلي يعجبـني أكـثر يسـتيقظ فقـط أمـام فـم تـوتي وعيـون لوزيـة ونهـد متوسـط الحجـم نافـر.

هـذا الكائـن يعـبر بشـفافية ويكـثر مـن التبسـم الجميـل، حـتى حـين يهـزه جسـد مثـير أو فكـرة لذيـذة يلاعبهـا بلطـف ويمررهـا عـبر اعترافـات بسـيطة، فكثـيرًا مـا يتجـه نحـو فتـاة في الشـارع أو في الثانويـة ليخبرهـا أنهـا جميلـة جـدًّا، وحـين تسـأله: ومـاذا بعـد؟ يقـول لهـا فقـط أردت أن أقـول لـك: كـم أنـت جميلـة وينظـر إليهـا في تمـسرح يربـك حسـاباتها، وحـتى حـين تقـول لـه مـاذا تريـد مـني؟ يخبرهـا أنـه لا يريـد شـيئًا يريـد فقـط أن ينظـر إليهـا وأن تعـرف أنهـا جميلـة في عيونـه، فـلا تملـك إلا أن تضحك مـن طريقتـه وفي ضحكتهـا يـزداد تعلقـه بهـا، فيطلـب منهـا ألَّا تغيـب عنـه وأن تعطيـه صفحتهـا الفيسـبوكية، ويسـتمر الحـوار بينهمـا في عالـم الخيـوط العنكبوتيـة، وسرعـان مـا يتحـول مـن حـوار بـين الأعـين إلى حـوار جسـدي عـام في ليـال خاصـة؛ حيـث تتفـق الرغبـات عـلى صنـع وهـم كبـير يسـاعد الجسـدين عـلى التـوازن الهرمـوني، كأن كائنًـا آخـر يتدخـل ليصاحـب كائنًـا مثلـه في جسـدها، فالـذي حدثهـا صباحًـا ذات يـوم مطـير ورومنـسي ليـس هـو الـذي سـيحدثها عـبر الشـات الافـتراضي في ليلـة جاحـدة يبحـث فيهـا عـن الخـلاص الجسـدي، يبحـث فيهـا عـن قمامـة وهميـة وحضـن لغـوي بـين ملامـس الهاتـف والحاسـوب، وهـي أيضًـا لا تعـرف نفسـها بعـد جمـل سـاخنة تفتـح شـهيتها

للـكلام، فتـنزل المفـردات مـن العيـون نحـو قـرارات مظلمـة تـروض الصـدر وتلامـس شـعيرات العانـة، وتفتـح أبـواب النعيم ، تخلـق وهمًـا بالنشـوة وتعيشـه حـد التماهـي، وتجعـل الأنـا مكتفيـة بذاتهـا وبآخـر هنـاك عـبر أسـلاك الشـبكة العنكبوتيـة وصـور متـواردة ووصـلات فيديـو وتسـجيلات مـن عمـق الشـبقية اللاسـلكية، وحـتى حـين يلتقيـان صباحًـا لا يـدركان بعضهمـا كأن غربـة تقـف بينهمـا كأنهمـا يحتاجـان لوسـيط مسـاعد إلكـتروني ليمـررا رغبتهمـا في العنـاق عـبر الجمـل، قـد يلتقيـان حقيقـة ولكـن سـينتظران الليـل ليبـدآ طقسـهما اليومـي وكأنهمـا عاشـقان لا يفترقـان، كثـير مـن الفتيـات المحافظـات نهـارًا يمارسـن عمـلًا عشـقيًّا محترفًـا كل ليلـة.

تمنحهـن اللغـة قـوة عاهـرة لممارسـة سريريـة عـلى شاشـة الهاتـف، تشـتغل الأصابـع عـلى الشاشـة الحساسـة كما تشـتغل عـلى الجسـد، تلمـس بخفـة وتمـرر بلطـف وتضغـط بقـوة وعنـف في ذروة الجمـل الـتي تقـال قبـل القـذف، ثـم تصمـت، إيقاعـات متراتبـة وكأنهـا فاعليـة سريريـة، اسـتراتيجية لغويـة إلكترونيـة سريـة تمارسـها كائنـات تسـتيقظ ليـلًا فقـط، فالكائـن اللطيـف الـذي ابتسـم تحـت أشـعة الشـمس ولـم يكـن يرغـب إلا في التعبـير عـن نفسـه أمـام لوحـة جمـال أنثـوي أمـام بـاب الثانويـة تسـتولي عـلى أراضيـه كائنـات أخـرى ليليـة وتسـرق منـه فتاتـه البيضـاء ذات الأخـلاق العاليـة، يلاعبهـا فيسـبوكيًّا ويهـدم دفاعاتهـا الوهميـة، ويجعلهـا عاريـة وراء هاتفهـا الـذكي، ذكي لأنـه ينقـل الأحاسـيس أيضًـا ويجعـل لمسـة عـلى زر لمسـة حقيقيـة يحسـها الآخـر عـلى شـفتيه أو خـده أو بطنـه أو يبالـغ في الملاعبة

ليحيها في مناطق حميمية الحضور، أزرار تنتصب لها الخيام والخلايا وتفعل فعل التقبيل والعض والقضم والضغط، يسهل خداع الجسد ولكن اكتشاف الانخداع بالجسد هو الأمر المريب، في رحلة كتلة عضوية تكونت في كيس الصفن نحو الانعتاق تحدث روايات تستدعي لها اللحظة كل الإمكانات التخيلية والرؤى الحلمية، فيصبح العضو مركز الكون وبؤرة الحكاية، إليه تتجه كل المفردات والجمل، وتلك الفتاة أو الفتى الذي يستقيم في الصباح كذات أخلاقية تنكر عهر الليلة وقد استطاعت أن تقهر اللحظة عبر الخيال والأزرار، متعة قد تتدخل أبسط المشاكل التقنية في شبكة الاتصال في منعها أو التشويش عليها، يصبح العضو ملك المحادثات الساخنة وتصبح الكتلة المنوية محاطة بجيش الخلاص اللحظي الذي يبدو آنذاك أبديًّا، ولكنها اللحظة، سيرة من الخيال والهرمونات وقاعدة جسدية من الأعضاء التناسلية، وهنا لا نقصد التناسل إلا من باب العادة.

تلك الفتاة المحافظة حين تلعب دور العشيقة المعشوقة، تمارس حريتها في التمتع بجسدها رفقة شريك بعيد عنها، فهي بذلك في مأمن من رقابة العائلة والآخرين، وفي مأمن من الخوف والفضيحة خصوصًا إن دخلت عالم المتعة باسم مستعار، إنها تقف على بعد اشتهاء وتترك لملامس الحاسوب أن تعيث عشقًا خياليًّا على جسدها، وربما يتسرب العشق لقلبها فتصبح منهوكة القوى وتخرج أخيرًا للبحث عن الحقيقة، تبحث عن حقيقة رجل من لحم ودم ولبن، وتستمر حكاية الألف كلمة وقد تتوج بليلة، ذلك أننا

تسكننا كائنات متعددة لا نأمن قرارات كل واحد منها، ولكن القرار المؤلم لفتاة هو الخروج عن جدران الافتراضي، فهي لحدود ذلك تقول إنها تمارس حقها في الرغبة فقط والاشتهاء، والله لا يحاسب على الرغبة في القيام بالجريمة بل على الفعل، وهي إلى الآن لا تتجاوز تخوم الأسلاك الشهوية للإنترنت والأثير الهاتفي الفاضح، هي حتى الآن تمارس رغبة فقط على غرار المجموعة القصصية للطيفة لبصير، تحلم وتمارس فعلًا لغويًّا ينقاد له الجسد وتستجيب له الغدد، ولكن الفقيه يقول إنها خلوة، خلوة عبر النت؛ حيث الذَّكر يحدِّث أنثى غريبة عنه. هذا المنكر السري الذي لا يستطيع أحد تكهنه. فهي لا تمارس الرذيلة باسمها بل باسم مستعار، وهكذا تبقى القبيلة مصونة لا يمسها وسخ، ولكن الوسخ الوحيد هنا يمس روحين وجسدين يعبثان وراء الشاشات؛ روح تتعذب بالقلق وجسد يحترق بأنصاف المتع، سلطة القبيلة تفعل فعلها القارس وتفرض الحضر عبر الأنا الأعلى؛ لتقوم بتدعيم سلطتها على الفرد من خلال الجنس والمتعة. الجرأة وراء الشاشة تزداد حتى تنفجر خارج جدران الفيسبوك وداخل جدران بيوت مظلمة من الحجر والطين والآجور.

ينام ياسين بعد منتصف الليل بساعات، والهاتف فوق صدره.

-١٥-

صباح ثقيل، ضباب كثيف وحرارة مرتفعة، اضطراب في طقس المدينة التي من العادي أن تكون مشمسة في يونيو، طقس أثر على الناس وعلى الحركة،

أيتها السماء لا تمطري ماء

فالأرض عطشى للحب

أمطري

قبلًا

كي ينبت العشق.

السماء لا تمطر شيئًا، مكفهرة كأنها غاضبة، ولكنها لا تمطر، منحبسة الغضب لا تجرؤ على الانفعال، يستيقظ ياسين متأخرًا، يتناول فطوره على عجل فهو يعلم أنه يضيع وقتًا ثمينًا في السهر ليلًا والبقاء في الفراش حتى الضحى وقت الامتحانات، أما أيور فقد عاد من الخارج بعد أن شعر بالجوع، عاد من فترة مراجعة امتدت من الفجر حتى الضحى، لا يعجبه حال ياسين؛ لذلك بقي صامتًا وهو يتناول فطوره، صمت أيور ثقيل جدًّا، كهذا الصباح، لا يدري كيف ينبه صديقه لضرورة مراجعة حياته التي بدأت تتدهور بسبب الهاتف اللعين، وتلة الفتيات الافتراضيات.

- أرجـوك ياسـين، أنـت تقلقـني بمـا تفعـل، حـاول أن تجـد لنفسـك وقتًـا للدراسـة، لا تتراجـع عـن أهدافـك بهـذه السـهولة، أنـت تغضبـني حقًّـا، وتعـرف أن غضـبي قـاسٍ جـدًّا.

قالها أيور في غضب

ثرثـر ياسـين أكـثر مـن نصـف سـاعة وهـو يعلـم أن ثرثرتـه فارغـة وأن كل مـا يقولـه خـارج المنطـق، أصبـح مدمنًـا عـلى الهاتـف والفيسـبوك، ولا شيء يـبرر إدمانـه في هـذا الوقـت مـن السـنة الدراسـية، لا شيء يـبرر تضييـع الوقـت؛ لذلـك بقـي أيـور صامتًـا، طيلـة اليـوم واليـوم المـوالي، منكبًّـا عـلى دفاتـره لا يعـير انتباهًـا لياسـين الـذي بـدأ يشـعر بـأن صديقـه يعاتبـه بشـدة، شـدة تـزداد يومًـا بعـد يـوم، أخـذ مذكـرة أيـور وفتحهـا عـلى آخـر صفحـة فيهـا، وكتـب لـه رسـالة:

أشـعر بالحـزن يـا صديقـي، لا أريـد حـتى تلـك السـحابة مـن عـدم التفاهـم بيننـا، أنـا أعـرف أني أبالـغ.. لكـني فعـلًا أريـدك وأريـدني بخـير.. لا أكـون بخـير أبـدًا وأنـت صامـت وأعـرف أني جـزء مـن أسـباب قلقـك هـذه المـرة.. صمتـك قاتـل وأنـت تعلم مكانتـك عنـدي، أنـت لا تتخيـل السـيناريوهات والسـيناريوهات المضـادة المتكـررة والمعـادة والمسـتعادة، ولا تعلـم حجـم خسـائري العصبيـة وأنـت واقـف كتمثـال مـن البرونـز البـارد لا تنفعـل ولا تغضـب ولا تحـزن، لا أعـرف لـك موقفًـا ولا وجهـة نظـر، إن كنـت غاضبًـا فاسـحب غضبـك مـني، وإن كنـت حزينًـا فاسـحب شمسـك الغاربـة عـن أفقـي، فأنـا أكـره اللـون البرتقـالي للرحيـل، وأحـب أصفـر الـشروق وشـعاع الصبـاح.

عندما عاد أيور بعد الظهر رآها فوق فراشه وقرأها وكتب تحتها رسالة ثانية:

لا تحزن يا صديقي، أنا لست غاضبًا ولا حزينًا، أنا في نقطة من اللاشعور بمعنى نفي الشعور، قد نسميها الحياد، السبب هو تركيزي الكامل على الامتحانات النهائية، حذرتك أكثر من مرة من طريقتك في التعاطي مع هذه الظروف، ومن غرابة تعاملك مع نفسك، وأظنني أوصلت رسالتي كما يجب، وقد أغلقت هاتفي وقطعت اتصالي بالعالم الافتراضي رغبة مني في عدم تشتيت مجهوداتي، هذا كل شيء يا صديقي الغالي.

بعد أسبوع انتهت الامتحانات وانتصب الفراغ قائمًا، غادر الكثير من الطلبة وبقي أيور ينتظر نتائج الباكالوريا، ياسين يعيد الامتحان في دورته الاستدراكية، أيمن قرر البقاء في تارودانت والعمل مع سي علال في المحل، أما أسامة فقد اختفى منذ بداية يوليو، لكنه اتصل بأيمن ليحتفظ له بغرفته بالبيت ريثما يعود من رحلته.

بدأ أيور يهدأ شيئًا فشيئًا، مع مرور الأيام وتأخر ظهور نتائج الباكالوريا بدأ الغضب ينسحب منه، التوتر الذي يجعله نشيطًا ومتحفزًا طيلة العام الدراسي وينهك أعصابه، بدأ يستسلم للراحة والهدوء، الأمر غريب حقًّا، كيف ينسحب الغضب من فكر الإنسان ومن جسده.

اللحظات التي تشعر فيها بأن غضبك بدأ ينسحب من جسدك كانسحاب المطر من الغيم، تفكر ما الداعي

للغضب أصلًا، وتتذكر تلك المقولة التي طال ما تتردد بين الأصدقاء، لم الحزن حين يكفي الغضب، ولم الغضب كله حين يكفي بعضه، ولكنها تظل لحظات محايدة وباردة، كالعودة من الجحيم، تمسح عنك عنف الإحساس كما تسمح المرأة مواد التجميل عن وجهها بعد دخولها للبيت. لا ندري تمامًا كيف يكون إحساسها وهي تزيل قناعًا من المساحيق التي غطت بها عيوب بشرتها وزينت بها لون شفتيها ورموشها الاصطناعية، هل تعتقد المرأة حقًّا أنها تتجمل بخيوط البوليستر وشعر الماعز؟ وإن وقع رجل في غرام أشيائها الاصطناعية ألن يكون مجرد حبٍّ بلاستيكي يزول بزوال أسبابه؟ لا ندري حقًّا كيف يكون الحوار بين المرأة ومرآتها، تلك النظرات المتبادلة.

يستسلم أيور للواقع كما استسلم زوج نيكول كيدمان في فيلم «الآخرون». لم يكن يريد أن يشرح لها أكثر؛ لأنها لن تفهمه أبدًا، وتحتاج لتجرب بنفسها، لن يقنعها بأنها ميتة وأنها مجرد شبح يسكن بيت الأحياء الذي كان بيتها القديم قبل أن تعتزل الحياة، رحل كالغضب فقط، وتركها عرضة للتجربة، انسحب حاملًا محفظته العسكرية مرتديًا سرواله الأخضر ذاهبًا لمقر وفاته إبان الحرب كجندي مقتول. ينسحب منك الغضب ثم القلق وتبقى عاريًا أمام نفسك، تتساءل كيف فعلت هذا وكيف فعلت ذاك؟ تجد الوقت الكافي لتلوم نفسك على قرار اتخذه جسدك بدلًا عنك، تجد وقتًا لتقول في داخلك إنك قد تسرعت حقًّا وغضبت، أو تحاول تبرير غضبك ولكن الأمر لا يعدو تقريعًا صريحًا

للـذات الغاضبـة مـن طـرف ذات أخـرى هادئـة، ربمـا هـي محاسـبة الـذات أو الـذوات الـتي تعيـش داخلنـا.

الشـعراء فقـط يعتقـدون أن أشـياء أخـرى تسـكنهم، ذوات أخـرى ترافقهـم، أحلامهـم الجميلـة بتغيـير العالـم وجعلـه جنـة، يـداري أسـامة أحلامـه عـن الريـح كي لا تذروهـا، فمـا أخـف أحلامـه، إنهـا صغـيرة كابتسـامة طفـل عذبـة بصـوت رنـان، وكخصلـة امـرأة في الهـواء، إنهـا كبقايـا التـبن في مخيلـة أيمـن، مـا هـذا الحـزن الـذي يلـف العالـم ويمتطـي صهـوة الريـح؟ مـا هـذا الصمـت الكئيـب الـذي عمَّـر قلـب أيـور بعـد انسـحاب الغضـب العـام والتوتـر الروتيـني الـذي أنهـك أعصابـه؟ أيـور يفكـر في مسـتقبله وفيمـا سـيفعله بشـهادة الباكالوريـا.

حـين بلـغ بـه الحـزن مـداه أخـذ تلـك المذكـرة المشـتركة بينـه وبـين ياسـين وكتـب عليهـا رسـالة جديـدة:

إنهـا الأشـياء المريضـة ذاتهـا تحـدث، علينـا أن نعـترف حبيـبي ياسـين أنهـا أشـياء مريضـة، مـاذا يعـني أن تقـوم مـن فراشـك وتعـود إليـه بعـد نصـف سـاعة؟ مـا معـنى أن تفقـد شـهية الأكل والـكلام وحـتى رد السـلام؟ مـا معـنى أن تعـود لـك شـهيتك ليـلًا وتلتهـم كل مـا في المطبـخ مـن حلويـات وفواكـه وبقايـا طعـام العشـاء؟ إنهـا ألاعيـب تمارسـها الـذات عـلى الـذات، أصبحـت مـن فصيلـة الدمويـات البـاردة، أتلقـى الموجـات وأنسـج منهـا قطنًـا أرتديـه بأناقـة، فتبـدو الدواخـل المحطمـة ناصعـة الحضـور كعارضـة أزيـاء هجرتهـا الخطـوات، ولكنهـا تكابـر بابتسـامة بلاسـتيكية، كسمسـار عقـارات أعلـن إفلاسـه وبـاع

منزلـه، ولكنـه مـا زال يقطـن فيـلا قيـد البيـع، كشـاعر مفلـس الاسـتعارات كلمـا طلبـت ديوانـه قـال قيـد الطبـع.

بقـي أيـور وياسـين يلـوكان أيامًـا صعبـة بـين الانتظـار والترقـب والتجاذبـات اليوميـة، بـين القلـق والسـويعات القليلـة للفـرح، وكان لياسـين الوقـت الـكافي ليرافـق كريمـة، وربمـا لأنـه شـعر بقـدوم العطلـة أراد أن يبقـى معهـا أطـول وقـت ممكـن، يلتقيان بعـد العـصر ليجلسَـا في مقهـى بعيـدًا عـن الأعـين الراصـدة حـتى يقـترب الغـروب فيسـيرا في الطـرف الشـمالي للسـور؛ حيـث الأضـواء الخافتـة لا تفضـح العشـاق، يضمهـا إليـه في الظـلام، كذلـك يفعـل مجـرى الـوادي الوعـر يـزداد كل سـنة ليقـترب مـن السـور كأنـه العشـق الأبـدي بـين المـاء والـتراب، يومًا ما سـيصل النهـر إلى قاعـدة الأسـوار ليهدمهـا، ليقبلهـا ربمـا، ولكنهـا حتمًـا تـذوب رغبـة فيـه.

علاقـة ياسـين بكريمـة الافتراضيـة تجـاوزت المرحلـة السريريـة، ولكـن علاقتهمـا الجسـدية واقعيًّـا لـم تقطـع أشـواطًا كافيـة تجـاه الالتحـام، اسـتطاع أن يعريهـا تمامًـا مـن ملابسـها، كمـا اسـتطاعت أن تعريـه مـن أفـكاره، ومـا يحـدث عـبر الإلكترونـات شـبقي جـدًّا، وهـا هـو ياسـين يحـاول أن يـردم الهـوة بـين الافـتراضي والواقعـي، ويجعـل كلامـه أكـثر سـخونة في حضرتهـا.

يحـدث عـبر التاريـخ أن يخـرج الـوادي الوعـر عـن طوعـه ويفيـض عـلى جنبـات السـور ويـسري دفءٌ لذيـذ عـلى قاعـدة الأسـوار الطينيـة المبللـة بمـاء النهـر العاشـق وبمـاء مطـر متأخر جـاء في غـير موعـده، مطـر أواخـر يونيـو جـاء ليـودع النـاس، إن

تارودانـت مدينـة لا تعـرف الاعتـدال في الطقـس، تأخـذك بـين فصـول أربعـة في نفـس اليـوم، وربمـا لهـذا السـبب كان لأبنـاء المدينـة أكـثر مـن أربـع أمزجـة في اليـوم.

- هل تحبني؟ قالت كريمة.

- أموت فيكِ.

- لا، أجبني فقط هل تحبني؟

- نعم.

- نعم ماذا؟

- نعم أحبك

- لم تحتاج كل هذه الطاقة لتقول كلمة بسيطة؟

- ألست مرتاحة معي؟

- أنـا مسـتمتعة ولكـني تائهـة، كل مـا أفعلـه يعجبـني فعلـه فقـط، لكـن شـيئًا مـا في داخـلي يحتـاج أن تكـون معـه، أن تحتضنـه كما تحتضنـني، أحيانًا أشـعرُ بـأني فارغـة تمامًـا، وكلما طرحـت السـؤال عـلى نفـسي، مـاذا نسـمي الـذي بيننـا؟ أعـود إلى رسـائلنا فـلا أجـد شـيئًا غـير الـكلام السـاخن الـذي يصهرنـا، ولكـن مـاذا عـن تلـك الوحشـة الـتي أحسـها في داخـلي؟ قليلـة هـي كلمـات الحـب الـتي تدفئـني بهـا، بـل منعدمـة ولا تقولهـا إلا حـين أسـألك أو حـين تغيـب عـن نفسـك في خضـم اللهفـة.

- أرجـوك كريمـة، هـذه أول مـرة تحدثينـني هكـذا، أنـت لا تخبرينـني بدواخلـك وأنـا لـن أسـألك مـا دمـت أراك بخـير أمامي.

- عليك أن تشعر بي، صدقني أنا أشعر بأني ملعونة، ملعونة ترتدي قناع الحب، ولكن الشيء الآخر في داخلي يعرف أني لست محبوبة بل معشوقة فقط، وتبقى مساحة شاسعة من التيه داخلي، أتبعثر فيها كلما افترقنا وفرغنا من طقوسنا، أنا أقرأ كثيرًا عن الحب ولكني لا أشعر به، أشعر فقط بالرغبة تسري في عيونك كلما التقينا، ولا أشعر بحبك.

- تعرفين أني أحن إليك ولا أستطيع أن أعيش في هذا الخراب دونك، أنت وحدك تبررين فراغ هذه المدينة.

- أنت تقول كل شيء عدا كلمات الحب، أنت حريص تمامًا على تسمية المسميات بأسمائها، تأتي إليَّ فرحًا ونمضي وقتًا طيبًا، وهذا كل شيء.

- لم تقولين هذا الكلام الآن بالضبط؟

- ربما لأني كبرت قليلًا، واكتشفت أني ملعونة، وقد اكتشفت أن الاحتياط واجب على كل عاشق وعاشقة، الحب يسحب من الرجل نسبة مهمة من الواقعية الضرورية للحياة الصحية نفسيًّا، ويعطل عند المرأة حاستها السادسة التي تخص الإحساس بالخيانة العظمى للجسد، فيعيشان أزمة بلاهة يسمونها حبًّا أبديًّا، دعنا من هذا الحديث الآن وأخبرني عن أيور كيف حاله؟

- إنه بخير، لديه الوقت الكافي ليمارس القراءة والصمت.

وصمتَا معًا، كأن الموقف كان ينتظر فقط كلمة صمت لينتهي، ولكنها بدت كبيرة وشهية، ورأى أمامه تاريخًا من

القبل واللمسات، كانا يكتفيان بقبل خفيفة حتى صارَا مع الوقت حفرتان من الشهوة والغنج والشبق، لا يمكنه أن ينظر إليها بالرومنسية الحالمة التي تريدها هي؛ لأن العلاقة منذ البداية تأسست على غدر الجسد للروح، والشيء في داخلها الذي لم تستطع تسميته هو الروح، الروح تحتاج أن تحضنها روح أخرى عبر نظرات من نوع خاص لا تشتعل شهوة، ربما كانت تقصد ما قرأته في «ذاكرة الجسد» وأرادت أن يضمها بحنان فقط دون شهوة.

لأول مرة يشعر ياسين بأنه سيفقد شيئًا، ينتابه خوف صغير من أن تبتعد عنه كريمة، خوف صغير جدًّا، لكنه حارق، لا يريد أن يفقدها والآن بالضبط، ظل يتشبث باللاحب ولكن هناك روابط تبدو أقوى، يصنعها الجسد مع الجسد، نوع من الاعتياد والألفة، خليط من الرغبة في التملك، قد لا تسمو هذه الرغبة إلى منطقة الحب ولكنها تظل قوية وجارفة.

تعلم اللجوء إلى الصمت من أيور، بدل أن يثرثر في ارتباك كما توقعت كريمة، بقي صامتًا ينصت إليها في برود، كانت نظراته شاردة ومشوشة، فيها من الغش في النظر ما فيها، كان واضحًا في علاقته بها، وفي علاقته بنفسه، الآن حتى الحقائق البسيطة الواضحة تختلط أمامه وتبدو صورًا مشوشة تحركت يد المصور في آخر لحظة من التقاطها، ولكنه لجأ إلى الصمت كآخر قلعة ضد اللافهم وضد الانفعال اللحظي.

استمرت كريمة تنتقد تفاصيل كثيرة في علاقتها به، وهي

لـم تفكـر مـن قبـل في فلسـفة هـذه العلاقـة ولـم تقـف لحظـة لتقـول مـا قالتـه الآن، كانـت منجرفـة فقـط ومصممـة عـلى الإيقـاع بـه في شـباكها، لكـن الشـباك الْتَـوتْ عليهمـا معًـا، غرقَـا معًـا في بحـر اللـذة الحلـو، ولـم تجـد وقتًـا لتفكـر في الإطـار العـام لعلاقـة شـاذة في نظرهـا، في نظرهـا فقـط لأنهـا علاقـة عاديـة في عالـم الثانويـة الـذي تلعـب فيـه المتعـة داخـل الملعـب وتوضـع المشـاعر في مقاعـد الاحتيـاط في انتظـار أن ينضـج المراهقـون بمـا فيـه الكفايـة ليفهمـوا معـنى الحـب، هـذا إن كان العمـر ينفـع في معرفـة ماهيـة الحـب.

الحـب، إنـه شيء لا يُـدرك معنـاه، يُعـاش فقـط، وكل مـن حـاول تلمُّـس شـكل الحـب يفقـده، كأنـه يقـول أنـا هنـا ولكـن لا تسـتطيعون رؤيـتي.

عـادَا معًـا عـبر البوابـة الجديـدة الـتي فتحتهـا البلديـة مقابـل الـوادي «الوعـر» ودخـلَا إلى المدينـة عـبر حـي «جنـان عزيـزو» ثـم «جنـان حميمـو» ومنـه إلى «مجمـع الأحبـاب» المعـروف بـ«فـرق الأحبـاب» ومـرَّا قـرب معهـد التعليـم الأصيـل:

- لـم لا تـأت لزيـارة أيـور سـيكون بالبيـت؟ خاطـب ياسـين كريمـة

- دعها لوقت آخر لقد تأخرت في العودة للبيت.

- هيا لا تكوني عنيدة، ترين أيور وتخرجين مباشرة.

- ألن تعد لي شايًا؟

- عـلى الرحـب والسـعة، وهـل يوجـد أغـلى منـك لأعـد لـه

شـايًا؟

- إذن دعنا نرى الشاعر الذي أعشقه.

- سأشعر بالغيرة.

- شعور غير مبرر.

- وهل تبرر الغيرة؟

دخلـت كريمـة عـبر الممـر المظلـم، فانتابهـا إحسـاس غريب، حـتى كادت تعـود أدراجهـا لكـن ياسـين أمسـك بيدهـا حـتى لا تسـقط في الدرجـات الثـلاث للسـلم، هبطَا إلى البيـت ودخـلَا إلى الغرفـة، لـم يكـن أيـور هنـاك، كان قـد خـرج للتـو للتـنزه، كانـت دعـوة ياسـين لكريمـة بريئـة في البدايـة ولكـن الصمـت والهـدوء بالمـنزل جعلـه يفكـر في مخططـات أخـرى،

في المطبـخ كانـت غلايـة المـاء تعلـن بصفيرهـا أن درجـة الحرارة بلغـت المائـة، ولكـن الشـاي لـم يُعَـد، انهـرق المـاء عـلى جنبات الغلايـة حـتى انطفـأ موقـد الغـاز تحتـه، فـأسرع ياسـين وهـو يعـدل ملابسـه لتوجيـه زر إطفـاء الموقـد نحـو الصفـر، رغـم أن رائحـة غـاز البوتـان انتـشرت قليـلًا في المطبـخ، ثـم عـاد ليكمـل ارتـداء ملابسـه وهـو ينظـر إلى كريمـة الـتي تـسرع في لـم شـعرها بمقبـض بلاسـتيكي أزرق.

- ماذا لو دخل أيور فجأة؟ قالت.

- لقد وضعت القفل من الداخل.

- إذن كنت تخطط لكل شيء؟

- ربمـا، لا يوجـد رجـل لا يخطـط للأمسـية رفقـة امـرأة جميلـة، مـا أشـهاك.

- أيها الأحمق أين الشاي؟

- كنتِ بركانًا أحمر.

- وكنتَ شديد اللهفة، أخاف أننا أخطأنا التوقيت.

- كيف ذلك؟

- المهم الله يسر.

-١٦-

وهـو يسـير في المدينـة كان التـبن يتطايـر قربـه، التـبن الـذي كان يخـترق عالمـه في القريـة وهـو يسـاعد جـده في ذر الشـعير، كان الأمـر سـحريًّا بالنسـبة لـه وهـو يراقـب كيـف يحتفـظ البيـدر بالحبـوب الثقيلـة وتـذرو الريـاح التـبن الخفيـف، وكان يعيـش حالـة مـن الدهشـة الجميلـة وهـو ذاهـب إلى محـل بيـع الملابـس، كلفـه سي عـلال اليـوم بالاعتنـاء بالمحـل طيلـة اليوم؛ لأنـه سـيذهب لسـوق الجملـة لإحضـار السـلع الجديـدة، عليـه إذن أن يبقـى في المحـل طـوال اليـوم، سيسـتقبل الزبونـات ويسـاومهن وسـيحاول قـدر المسـتطاع رفـع الثمـن حـتى يسـتفيد مـن هامـش الربـح دون إذن الحـاج عـلال.

الزبونـات كريمـات جـدًّا مـع شـاب ريـاضي وسـيم وحالـم، وعـارف بخبايـا الأربعينيـات، تدخـل المـرأة إلى المحـل وتطلـب طقمًـا داخليًّـا بلـون قرمـزي وتقـول لأيمـن أنهـا سـترتديه لنفسـها فقـط أمـا زوجهـا فـلا يسـتحق، فهنـاك رجـال لا يقـدرون النعـم الـتي منحـم الله إياهـا، أيمـن يعـرف جيـدًا كيـف يـواسي امـرأة محرومـة، سـألها عـن أولادهـا وزوجهـا في اهتمـام بالـغ، وطلـب منهـا أن تصـبر عـلى حياتهـا معـه مـن أجـل أولادهـا فقـط، ومـن أجـل صورتهـا أمـام النـاس.

قالـت لـه إن المـرأة يمكـن أن تصـبر عـلى كل شيء، وفي كل زمـان ومـكان، مـع مُعـدم أو مع غـني، في كـوخ أو في قـصر، لكنها

لا يمكن أن تصبر على سرير بارد، فالحياة قصيرة جدًّا على أن تضيعها في المشاحنات مع زوج يهملها بسبب المشاكل، رغم أنها تحمل كل هم البيت حتى مصروف اليوم تتكفل به؛ لأنه فقد عمله. «ولكنه ليس رجلًا رغم ما فعلته من أجله يذهب ليرافق بنات الجامعة، لو فعلت مثله لخربت بيتي ولكن ها أنا صابرة حتى يفعل الله خيرًا». تقول ذلك وتعتذر من أيمن لأنها أفرغت ما في قلبها عليه وهو بعيد عن مشاكلها الزوجية بحكم سنه.

دفعت مبلغًا محترمًا مقابل قطعتين.

وهي في الحقيقة دفعت ثمن إنصاته لشكواها، كأن البائع هنا طبيب نفسي يحسن فن الاستماع ويأخذ مقابل صبره، من أجل إكرامية طيبة، كان أيمن يعرف كيف ينصت، وكان يدفع المرأة للصبر ولا يدعوها للابتعاد عن زوجها، يبدو نصحه لها أخويًّا ولكنه بين ثنايا كلامه يمرر تلك السموم التي تجعلها تعود مرة أخرى لتتحدث إليه وتشتري قطعتين جديدتين بنفس الثمن وبلون مختلف.

- عليك أن تهتمي بالأولاد لأنهم قطعة منك، وإن كان هو لا يدرك هذه النعمة التي أمامه فسيدركها آخر، ولكن الأهم هنا هم الأولاد، هل تستطيعين التخلي عن أولادك مثلًا؟!

- لا، مستحيل.

- إذن اصبري، واعتبريني بئر أسرارك، أنا هنا وقتما تريدين، ورقم هاتفي عندك اتصلي حين تحتاجينني.

هـي سـتتصل ليـلًا حـين يشـتد بهـا الحـال، فالهاتـف ليـلًا يتحـول لمخـدع أصـوات تمـرر الجنـون العاطفـي.

أيمـن اعتـاد مثـل هـذه الحكايـات، هـي ليسـت أول ولا آخـر امـرأة تـأتي إلى المحـل لتجـرب لباسًـا جديـدًا وتغـير لباسـها التقليـدي، وهـو يـدرك أن بعضهـن لسـن صادقـات تمامًـا، وأن الهجـر السريـري ليـس دائمًـا حقيقيًّـا ودافعًـا فعليًّـا للبحـث عـن اللـذة في محـل بيـع الملابـس النسـائية، في إحـدى المـرات جاءتـه امـرأة ثلاثينيـة تشـتكي لـه حـركات زوجهـا المقرفـة في السريـر، وكيـف أنهـا عافـت مظهـره؛ لأنـه لا يمـارس الجنـس إلا وهـو سـكران، تلـك المـرأة أثـارت أيمـن بحكايتهـا ووصفهـا لعالمهـا السريـري، فلـم يمـض يومـان حـتى كان أيمـن في سريرهـا وكانـت كاذبـة، لـم تكـن متزوجـة أصـلًا بـل مطلقـة تعيـش مـع أمهـا في بيـت قديـم بحـي «أولاد بنونـة» وكانـت أمهـا عجـوز عميـاء لا تـدري مـا يحـدث في البيـت.

كانـت ليلـة واحـدة فقـط انجـرف فيهـا أيمن بشـدة، لم تسـتمر العلاقـة فـلا فائـدة مـن امـرأة ثلاثينيـة تعمـل بمطعـم شـعبي لتسـد رمقهـا ورمـق أمهـا العجـوز، ليسـت مـن نـوع البرجوازيـات التعيسـات، إنهـا امـرأة لعـوب ثرثـارة ولا مـال لديهـا، فقـد ظلـت تسـاومه وتـراوده عـلى قطعـة ثـوب حـتى فقـد فيهـا نصـف ثمنها.

لا فائـدة مـن امـرأة جميلـة وفقـيرة، وفـوق ذلـك ثرثـارة – قـال في نفسـه- البرجوازيـات الكبـيرات التعيسـات هـن الجميـلات.

أصبـح أيمـن محترفًـا في فـن الحـب والعطـف، يجعـل المـرأة تفـرغ جعبتهـا مـن الـكلام كأنـه طبيـب نفـسي، لكنـه لا ينـسى أن

يأخذ أجرته على حسن الإنصات، إن الأزمة أزمة حوار، وقد تعلم من الكبيرات حسن الصبر وحكمة التريث، الطبخات السريعة لا تكون مغذية ومفيدة، الطهو يكون على نار هادئة ويحتاج وقتًا طويلًا، حتى المرأة لا تثق في رجل سريع الانصهار، الوصفة السحرية هي الانتظار والتثاقل واختيار الوقت المناسب لرمي الصنارة، الصياد لا يكتسب تلك الهيبة أمام البحر من التسرع والغرور بل من التريث والتواضع أمام الأمواج.

نتائج امتحانات الجامعة كانت متواضعة جدًّا؛ لذلك قرر أيمن البقاء في تارودانت كي لا يواجه أسرته الصغيرة في القرية، رغم الأخبار السيئة التي وصلته عن أخته المراهقة، لكنه كان قد فقد كل رغبة في الانفعال، والنخوة التي كانت رأسمال كل قروي ضاعت مع كل لفيفة حشيش ولفة شارع، هكذا دون أن يدري فقد أيضًا الرغبة في الدراسة واستسلم دون مقاومة للفشل الدراسي.

لا تستطيع أن تقنع شخصًا ميتًا بأنه ميت، هذا بالضبط ما حدث لنيكول كيدمان في فيلم «الآخرون» كذلك لا تستطيع أن تقنع شخصًا غير راغب في الحياة بأن الحياة جميلة وتحتاج فقط القليل من النضال ضد الأيام.

أسامة لم يعد من أكادير.

ربما لن يعود من مدينة العهر الجميلة.

فقد أيمن الاتصال به منذ أسبوع، لكن الأمر بدا عاديًّا، منذ أن فقد الرغبة في التواصل مع نفسه فقد الرغبة أيضًا

في شد حبل الصداقة مع الآخرين، يحتفظ فقط بابتسامته لأيور، ما زال يحفظ المودة العميقة له ويعانقه بحب كلما التقاه في البيت.

لكنه لم يعد منذ أن أنهى الامتحانات ودون أن ينتظر النتائج رحل إلى أكادير، هو يعلم أنه سينجح، معدلاته دائمًا مرتفعة ويتربع على عرش اللائحة دائمًا، فكان لا ينتظر صدور النتائج ليعلم أنه من الناجحين، لقد اختار شعبة يفهم جيدًا مساراتها ويستطيع أن يضبط دروسه بسهولة.

أغلق أيمن المحل بعد العشاء بقليل، وعاد إلى البيت، به رغبة جامحة في أن ينغمس في الوحل الأربعيني حتى النخاع هذا المساء، كان شيء في داخله يتأجج ويشتعل وكان يفكر في راضية خصوصًا أن الحاج لن يعود الليلة.

تحجج بترك المفاتيح للحاج في بيته ليصعد للطابق العلوي، دق الباب ففتح الابن الأوسط خليل الذي طلب منه الدخول وألح عليه كي يساعده في إنجاز واجباته المدرسية، براءة الطفل جعلته يدخل ويجلس في الصالة الخارجية، في الوقت الذي ذهب فيه خليل لإحضار كتبه ودفاتره دخلت راضية فرماها أيمن بغمزة حارة جعلتها تفهم أنه على نار هادئة ويكاد ينفجر، في المرات القليلة التي كان فيها أيمن هو الذي يبادر باللهفة كانت راضية تشعر بأنوثتها تستيقظ كأنها فتاة مراهقة تصاحب رجلًا لأول مرة.

بسرعة أنهى خليل تمارين الرياضيات بمساعدة أيمن الذي حذره من أن يعلم الحاج أنه ساعده كي لا يعاقبه المعلم،

هكـذا اسـتطاع أن يجعـل حضـوره سرًّا بينهمـا، بعـد تنـاول العشـاء الـذي أعدتـه راضيـة والـذي كان عبـارة عـن لحـم بقـر مشـوي، توجـه أيمـن إلى بيتـه ليغـير ملابسـه، ويصعـد للسـطح حيـث سـينتظر راضيـة.

بعـد سـاعة تقريبًـا، كانَـا في غرفـة الغسـيل عـلى الأريكـة الوحيـدة هنـاك.

- هل نام الأطفال؟

- كيف لا ينامون وقد وضعت لهم منومًا قويًّا في الحليب.

- ألن يؤذيهم الأمر.

- لا أبدًا، بل هو مفيد لهم ولنا.

فكـر أيمـن أن الأمـر بسـيط جـدًّا ولكـن تبنًـا بـدأ يتـذرى أمامـه فـسرح بخيالـه مـرة أخـرى، بقـي مـدة يداعـب تـبن البيـدر إلى أن نبهتـه راضيـة الـتي أنهـت مكالمـة مـع زوجهـا، وتأكـدت أنـه لـن يعـود الليلـة وأوصتـه أن يبتعـد عـن عاهـرات إنـزكان كي لا يصـاب السـيد، مـن أجـل صحتـه فقـط أمـا هـي فلـن تلتقـط منـه شـيئًا مـا دامـت الأسرة متفرقـة بينهمـا وبـاردة حـد الصقيـع، منـذ أن أصبحـت تعاملـه كأب لا كـزوج فهـي عـشرة عمـر كمـا صرحـت لأيمـن وهـو أبـو أولادهـا رغـم كل شيء.

بـدأت تبـدي بعـض العطـف عـلى سي عـلال ربمـا بسـبب السـنين الـتي قضتهـا معـه رغـم العـذاب والمشـاحنات، ورغـم أنـه اغتصـب بغـير قصـد شـبابها وتركهـا بعـد أن انفلـت عقالـه وأغرتـه مراهقـات مـا قبـل العشريـن.

عـاد أيمـن مـن رحلـة التـبن ونظـر إلى راضيـة الأم ورغـب في التهامهـا، سـيرضع مـن الحنـان كمـا احتـاج دومًـا، كلمـا كان الجسـد أشـد بؤسًـا كان الفعـل العشـقي عنيفًـا، عـادة حـين تكون رفقـة امـرأة لا تعـزف كل ألحانـك دفعـة واحـدة، فهنـاك نسـاء لا يحتجـن جوقـة المعهـد الموسـيقي ليفهمـن الحـب، تعتمـد عـلى قيثـارة بأوتـار حساسـة لمعـاني الـدفء، وتقفـل الجمـل بقبلـة خفيفـة ولا تضـع القيثـارة عـلى الأرض بعـد العـزف، بـل خذهـا بحنـان بـين ذراعيـك، ولكـن مـع امـرأة كراضيـة ورجـل كأيمـن يصبـح العـزف شـعبيًّا بضربـات قويـة عـلى الـدف وعـلى الـردف، تهـتز لهـا قوائـم السريـر في غرفـة الغسـيل ، فهنـا لا نتحـدث عـن كاماسـوترا الحليـب والنبيـذ بـل عـن حـرب طـرق وحـوادث جنسـية، إنـه مزيـج مـن الاشـتهاء والرعشـة والفـوضى والقـرف أيضًـا، بقـدر مـا تكـون بعـض العلاقـات مقرفـة بقـدر مـا تكـون شـهوانية وتمـس حيوانيـة اللإنسـان في العمـق، ومـا الجنـس إلا ممارسـة الإنسـان لحيوانيتـه في أبهـى حللهـا.

بقـدر كرهـه لهـا كان يـضرب عميقًـا كأنـه يـدق مُديـة في حقـل شاسـع ليربـط هنـاك حرمانـه الأزلي المحكـوم برفقتـه، وكاد يبـكي، لكنـه منـذ علـم قواعـد اللعبـة لـم يعـد يسـمح لشـخصه بالحضـور إلى مقـر العمـل، كان بعيـدًا عـن ذاتـه، يجـول في حقـل راضيـة، فحـين أنهـت مكالمتهـا لـسي عـلال عـلى مسـمع منـه، وبمجـرد أن وضعـت هاتفهـا انحـدرت عيناه عـن وجههـا وانتشرتَـا حـول صدرهـا العامـر، وكاد يبـكي، هـو لا ينظـر إلى عينيهـا الحارقتـين المحروقتـين بالشـهوة والخيانـة كي لا يـرى فيهمـا زوجهـا المسـافر، ينظـر فقـط للحقـل الشاسـع

عـبر منعرجـات كثـيرة، كانـت تشـعر بأنـه تـزود بلفافـة أخـرى أو بقـرص فياجـرا ولأول مـرة تخـاف منـه ومـن هيجانـه، لكـن الأمـر كان شـهوانيًّا في قمـة العنـف وأعجبهـا هـذا الخليـط مـن الخـوف والرهبـة والمتعـة والـشر واللعـاب والـدم والخـدوش والسـيلان.

وكاد يبـكي حـين فكـر أنهـا حقـل شاسـع جـدًّا وأنـه ضـاع فيـه بحمـق، خصوصًـا حـين عـرف أن بجـوار الحقـل بيـدر مهجـور، وسـطه بقايـا تـبن يتـذرى الآن أمامـه، ويدخـل عينيـه الدامعتـين في سريـة تامـة، التـبن حـارق يشـتعل داخـل العـين، ولكنـه لا يشـعر بـه بـل يتتبعـه حـين يعلـق بشـجرة الأركان ذات الأشـواك والثمـار الصفـراء، لا يمكنهـا أن تـرى سـهوه في ظلمـة خفيفـة بغرفـة الغسـيل.

ونـزل أيمـن مسرعًـا ليرتمـي في غرفتـه بعـد أن دخـن لفيفـات جديـدة مـن الحشـيش، قتـل نفسـه ونـام، اللفيفـة الأخـيرة همسـت في أذنـه ألا يحـزن، قالـت لـه:

الآن أنت هنا ... الباقي مجرد أدب ككل حكاية عادية.

ولدت ذات يوم

بعـد سـنوات فقـدت طفولتـك، كـبرت وأصبحـت رجـلًا في عـشر سـنوات بعـد أن فقـدت والـدك

ترعى الغنم..

تحرث الأرض وتركض خلق اللقالق.

اللقالق تحب ديدان الأرض حين يقلبها المحراث.

تصعد أشجار الزيتون

وتجني الحبات المتساقطات

وتبيعها لصاحب المعصرة التقليدية

وكان يسمى بابا علي

كان الطفل داخلك مؤجلًا

يلعب في خوف

حيث لا حماية ولا أمن

حيث أفعى السواقي تتربص به

حيث عقارب الوقت تلدغه

ونحل الفوضى يطير قربه

مهددًا باللسع.

والغريب أنك كنت منسجمًا مع داخلك كل هذا الوقت

ورعبك الخانق المحتفل في الظلام داخلك الآن لا أساس له فنم وسط الدخان

وسط كومة التبن.

لو تحدثت الأريكة في غرفة الغسيل ماذا سيقول؟ سيحكي حتمًا حكايته مع بيت سي علال، منذ تكسرت قائمته وأخرج من الصالة الكبيرة، وفارق إخوته، كان حينها معززًا يستقبل عائلة سي علال وعائلة العروس راضية، وهو مغطى بأقمشة زهية الألوان، إنه يلعن تلك المؤخرة البدينة التي ارتمت

متهالكة فوقه ذات يوم وأهلكته، ولأننا في تارودانت لا نرمي الأشياء المستعملة بل نحتفظ بها في سطح البيت، البالي لا نفرط فيه، كذلك احتفظوا به في غرفة الغسيل وهي نفسها جلسة الحمام البلدي، بعد أن قطعوا القوائم الثلاث المتبقية وسووه بالأرض. فانبطحت الأريكة وانبطح الجميع معه، حتى القيم انبطحت.

أصبح شاهدًا على سيناريو خبيث، يراقب القلوب الأخرى المستعملة والمحالة على التقاعد العاطفي، يراقب الانبطاحات الكبرى ويشيح بنظره خجلًا مما يرى، لكن الخشب مع الأسف الشديد لا يستطيع أن يصرخ.

ها هو يراقب راضية تجمع خياناتها بسرعة خوفًا من ضربة البرد ولو أن الجو حار في يونيو تارودانت، ها هي تجمع بقاياها وتراقب البقع الزرقاء التي تسبب لها بها أيمن الذي كان أكثر من رجل اليوم، كان وحشًا كما رددت في داخلها وهي تبتسم وترفع كتلًا كبيرة من صدرها اعتزازًا وفخرًا، ربما تعلَّم جيدًا وأصبح محترفًا في ميدان العهر الشرس الذي لا يقبل مسحات الحزن إلا إن تولدت عنها جولات عنيفة من الهيجان.

تنزل راضية وهي تدندن في منتصف الليل، وتتجه للحمام لتغتسل من أدران الشغب المتأخر الذي تمارسه بعد الأربعين.

-١٧-

أسبوع آخر وينتهي يونيو، يرحل إلى الأبد حاملًا معه غباء المدينة التي تلحفت بجو خانق، لا يدري أيور لم يشعر بأن هذه المدينة أصبحت أكثر غباء، تبدو بليدة في لونها البني الذي فقد بريقه الآجوري الذكي، تارودانت بليدة، في جوها بلادة وعلى أرصفتها تسير كائنات بليدة أيضًا، حتى كلابها تبدو مسالمة وغير مهتمة بالفرح، الفرح ذكاء تصنعه المدن المرحة التي تحضن المرء بين أضوائها الصاخبة، لكن هذه المدينة وكلابها الضالة لا تتحرك ولا ترقص ولا تنمو، إنها مدينة بليدة توالت عليها الحضارات والممالك ولكنها ظلت صامتة كحجر.

إنها تعنون لانكسارات حقيقية طبعت جيلًا من الشباب، من العشاق خصوصًا؛ حيث لا حب ولا قصص دافئة، الإلكترون وحده يعيث فسادًا في الأدمغة، تحول كل شيء إلى رموز غريبة عن الذات وهم البشر، يستلقي ياسين عاريًا إلا من سروال قصير بسبب الصهد الذي يجعل الجسم دبقًا ويحتاج استحمامًا كل نصف يوم، ياسين يتعرى من نفسه أيضًا، يحمل هاتفه النقال ويغوص في حوار ساخن مع كريمة، الحوارات الساخنة لا تشرحها الكلمات بل حالة الجسد فيمكن لكلمة أن تكون ساخنة ولها وقع القبلة في وقت معين، ويمكنها أن تكون باردة جدًّا في وقت آخر غيره.

نسي حضور أيور الغارق في عتمة خاصة هذا الليل إلى جانبه،

وحين أراد أن يفتح معه حوارًا بدا كأنه يعتذر منه على غيابه في حضوره، الهاتف بين يدي ياسين لم يعد يكفيه، عليه أن يخطط للقاءاته مع كريمة بين جدران أربعة تحميهما شر البصاصين والبصاصات، وقد فكر أن يفاتح أيور في ذلك ولكن الخجل منعه، الحديث عن الجنس بين الأصدقاء ممارسة جنسية أيضًا؛ لذلك يستحسن تجنب كل ما يثير مشاعر الرجال في غياب أنثى حقيقية.

- ماذا تقرأ؟

- لا أقرأ شيئًا، رغم أني أحمل هذا الكتاب منذ ساعتين

- كيف ذلك؟

- ياسين هل تحب الله؟

- نعم أحبه وأحب رسول الله.

- أنا أيضًا أحب الله، وأثق بعدالته وأثق بأن كل شيء في هذا الكون الفسيح يدلل عليه، منذ أن أنهينا الامتحانات وأنا أقرأ عن الروح، أبحث عن معنى الروح ولم أجد، قرأت كل شيء عن الجسد والروح والموت وعن العائدين من الموت، عن تفاسير الروح في مختلف الديانات، ولم أجد شيئًا، بحثي عن الروح قادني لأن أجد الله، أن أشعر برعايته، قل لي فقط لم يحرم الله أشياء تبدو ممتعة؟

- مثل ماذا؟

- مثل الجنس، خارج الأطر الدينية طبعًا، الزنى.

- لا أدري، فقط أعلم أن الحرام حرام وكفى.

- وما القصد من تحريم شيء جميل، وبما أننا لا نستطيع كبح جماح شهواتنا؛ لأن من طبيعة الشهوة ألا تكبح.

- بما أن الله حرمها وهو الذي أودعها فينا فهذا يعني أننا قادرون على الامتناع عنها، وإلا فلم يخلق فينا شهوة ويدعونا لكبحها، لا بد أن الأمر ممكن ما دام النهي من عند الله.

- هل أنت روحاني في حياتك؟

- لا أظن ذلك، قد أبدو لك طيبًا ولكني لست كذلك، أنا أرتكب أخطاء كثيرة وما زلت أسير نحو الغرق، ولكني أدرك ذلك، أدرك أني أغرق في بحر من الطمي.

وصل الحوار بينهما درجة مفخخة وكأن كل واحد يحادث نفسه وليس الآخر، واصل أيور تأملاته في خضم الحديث، ولكن ياسين بدا حائرًا، كأنه فقد ذاته، لا يريد أن يجعل تجربته محل نقاش، ولا حياته محل تحليل، يريد أن يعيش فقط، أن يكتشف ولو عن طريق الخطأ كل شيء، وقال في نفسه أن ابتعاده عن أيور جعله يترهبن داخل قوقعة من الأفكار والتأملات، ولكن الأمر بدا له أيضًا عاديًّا جدًّا، فهو لم يناقش معه شيئًا جديدًا عن حب الله وعن الروح وعن الآخرة والحساب، ورغم ذلك استطاع أن يجعله مرتبكًا خصوصًا حين فكَّر أن علاقته بكريمة وصلت مرحلة غليان

الماء وانهراقه على موقد الغاز في المطبخ.

نام ياسين رغم زوبعة الأفكار التي أحاطت به، ترك الأفكار تغلي فوق رأسه ونام، وربما ستظل هناك تنتظره حتى يستيقظ لتهجم عليه من جديد، لكن طيف كريمة لا يترك له الفرصة ليفكر، الشفاه الندية تذيب القلق الوجودي، وحتى أفكاره عن الآخرة والصلاة تذوب وتبقى اللذة عاصمة للإحساس بالحياة، من أين تأتي تلك الحرارة التي تنبعث من الداخل لتملأ الجسد اشتعالًا، وتملأ الجمجمة فأفكار الشيطان النارية، هذا الدفء الذي يستحيل براكين كل ليلة، لا شيء يطفئ حرائقه غيرها، لا لقاء حول الأسوار ولا رسائل حب ولا لمسات ولا قُبل، بدأ يعشقها ويمرض بها، وهي بدأت تتراجع للوراء ويمد يده ليمسك بما تبقى له منها.

وبقي أيور يتأمل سقف الغرفة ويمروح على نفسه كي لا يعرق في هذا الجو الساخن، حين تملك فائضًا من الوقت وتمتهن سيرة الصمت تصبح رهبانًا أو فيلسوفًا، وفي أحسن حالاتك تكون شاعرًا، الشاعر إذن هو ذلك الراهب المتنسك داخل محراب الكلمات الذي يتأمل الحياة، حياته وحياة الناس وحياة الأشياء الأخرى التي تحيط به، وقد يقضي سنوات وهو يتأمل كلمة واحدة، فهناك كلمات قضى الإنسان عصورًا في تأملها خصوصًا الشعراء، كلمة حب مثلًا، كل ما قيل بسببها ومن أجلها قاله الشعراء، يقضون أعمارهم في ترجمتها على شكل قصائد، ولا يفلحون في ذلك، ففي الأخير يقولون إن أجمل القصائد لم تقل بعد، ويعيشون كطواحين دون كيشوط يدقون الماء في جدران الهواء.

ونـام بيـت الطلبـة يضـم أرواحًـا وأجسـادًا حائـرة تبتغـي الخـلاص مـن مخالـب الحيـاة، مـن مـآزق العيـش اليومـي، الجسـد متطلـب جـدًّا والـروح تعاقبـه بالضمـير.

إنهـا شـمس الظهـيرة الحارقـة، مدينـة الاشـتعال ليـلًا ونهـارًا، يسـتيقظ أيـور متعبًـا بسـبب الحـرارة المرتفعـة، ويتبعـه ياسـين الـذي نـام نومًـا متقطعًـا ذابـل العينـين، عصبيًّـا كأنـه لـم يـذق طعـم النـوم، أشـعث شـعره كأنـه كان في صراع مـع قطـط ليليـة في كوابيسـه.

- صباح الخير أخي أيور، كيف حالك؟

- الحمد لله حبيبي، قم لتتناول فطورك.

- سأستحم أولًا، يبدو أن الجو حارٌّ جدًّا اليوم أيضًا.

- أكـثر مـن ذلـك إنهـا موجـة غـير عاديـة مـن الحـر، أنـا ذاهـب للسـوق لأبحـث عـن عمـل، عـن أي عمـل كيفمـا كان، لقـد نفـذ كل شيء.

- متى ستعود؟

- ليـس قبـل التاسـعة ليـلًا، النـاس الآن في مثـل هـذا الحـر يخرجـون مسـاء للتسـوق.

خـرج أيـور مسرعًـا إلى سـوق الرحبـة القديمـة، مـا يمكـن أن يفعلـه هـو مسـاعدة الخضاريـن في محلاتهـم أو بيـع صنـدوق طماطـم بالتقسـيط أمـام محـل مـن محـلات الخـضر نفسـها، حـتى إن لـم يحصـل عـلى مـال سـيعود محمـلًا بكيـس مـن الخـضر المتنوعـة، وسـيقضي اليـوم مـع صاحـب المحـل يتنـاول

معـه وجباتـه الثـلاث.

فتـح ياسـين هاتفـه عـلى تطبيـق الواتسـاب ووجـد صـورة لكريمـة أرسـلتها مـع أيقونـات قلـوب حمـراء، صـورة لهـا وهـي مـا تـزال مسـتلقية عـلى السريـر بصـدر نصـف عـار وعينيهـا الناعسـتين،

- كم أنت لذيذة. قال لها.

- صباح الخير هل تناولت فطورك؟

- أنت فطوري اليوم سأتناولك.

- لا أيها الجائع أنا لست طبقًا.

- بل أنت كذلك.

واسـتمر الحـوار بينهمـا حـتى الثالثـة بعـد الظهـر، تحولـت الغرفـة الرطبـة برائحـة الهـواء الخانـق إلى وادٍ خصـب مـن الجمـال والصـور، ومـن فوهـة الهاتـف عـاش ياسـين مسلسـلًا مـن الرسـائل الحميميـة الـتي حولتـه إلى سـنديانة مترفعـة عـلى الواقـع، صـور كثـير ومبـاشرة مـن السريـر، ابتسـامات وضحـكات رنانـة تخـترق أعماقـه، لغـة تمـوج بـين درجـات حـرارة أشـد حـرًّا مـن شـمس الظهـيرة.

- لقـد خـرج أيـور للسـوق لـم لا تأتـين إليَّ، لننهـي مهزلـة الرسـائل هـذه؟

- أخاف أن تأكلني.

تصـادف كريمـة أيمـن في الممـر الضيـق، كان يرتـدي لباسًـا

داخليًّا وآثار الحشيش بادية عليه، فأسنانه التي لا يعتني بها كثيرًا بدأت تصفر ويعلوها القلاح، ابتسم في وجهها وتركها تدخل لغرفة ياسين الذي كان مستلقيًا ككومة نار، تفاجأ بها وبجرأتها، إنها مجنونة تمامًا وجنونها لا حدَّ له، الجمرة الخبيثة التي تسكن ما بين أرجلنا هي المجنونة، قالت له وهي نصف سكرانة.

في كاماسوترا الجنس الإلكتروني، وبين شعب الهواتف الذكية لا تحتاج النشوة تلك التحضيرات الحقيقية التي تستلزم وقتًا وديباجة عشق، أصابع اليد وهي تلامس الشاشة الحساسة تعتمر البدايات ويكون اللقاء فقط لطبع جواز السفر والرحيل بعيدًا في واد خصيب.

الرجل القديم منا سيعتبر الأمر إشباعًا وهميًّا للجسد، وسيضحك، سينقلب رأسًا على عقب من الضحك، سيقول في نفسه كيف بهؤلاء القوم يمارسون النكاح بهواتف نقالة وعبر شاشات تحمل صورهم وهم أنصاف عراة أو عراة تمامًا، سيضحك ملء شدقيه من جيل يكتفي بذاته من أجل جلب اللذة، ولكن الأمر ليس كذلك، لم نصل بعد لتلك المرحلة ما زالت الوسائط جسور عبور فقط للجسد، حضور في غياب على حد قول الشعراء، حضور عبر وسائط تخلق تواصلًا ضروريًّا بل آمنًا وبعده يتم اللقاء، لقاء بمعنى التشابك، بمعنى الموت.

صحيح أن الأوهام قد تستمر وقد يكتفي المرء بتلك اللذة الوهمية رفقة شريكه، ولكن ذلك لا يعدو كونه هروبًا

مـن الأطـر القويـة للمجتمـع الـتي ترفـض التجمعـات الجنسـية خارجهـا، إنـه الأمـن العاطفـي والمجتمعـي يسـمح بتلـك السـلوكات الـتي تجهـز اللقـاء الأكـبر، كمـا فعلـت كريمـة الـتي كانـت مجنونـة بمـا فيـه الكفايـة لتباغـت ياسـين في غرفـة نومـه.

غـادرت بسرعـة كمـا جـاءت بسرعـة، وتركـت المجال أمـام أيمن وياسـين لمـلء الجـو بالحديـث بينهمـا، وبالكثـير مـن الدخـان في غرفـة أيمـن، قـد يكـون دخانًـا وقـد يكـون تبنًـا مـذَّرى، أكـداس مـن الضبـاب فـوق بعضهـا بعضًـا، وقـد بـدا ياسـين أيضـا خـارج سـلوكه المعتـاد بسـبب رائحـة الحشـيش رغـم أنـه لـم يلمسـه، ولكنـه تنـاول ملعقتـين مـن المعجـون مـع كـوب الشـاي.

وبـين فـترة وأخـرى يرحـل أيمـن إلى قريتـه ليسـتمع لأنشـودة قديمـة وبعيـدة تتناهـى إلى سـمعه، صـوت امـرأة قرويـة مـن بلدتـه تغـني مواويـل حزينـة جـدًّا، وهـي تغـزل عـلى النـول سـجادة وتزينهـا بـآلاف الحكايـا، كمـا يسـمع صـوت جـده وهـو يـصرخ عـلى الأحصنـة والحمـير الـتي تـدور حـول البيـدر لتـدرس المحصـول مـن الشـعير، ولا يعـود إلا بتنبيـه مـن ياسـين.

- تبدو صديقتك صغيرة في السن. قال أيمن.

رد ياسين:

- نعم هي كذلك، إنها تدرس في نفس الثانوية

- هل أبوح لك بأمر؟

- تفضل.

- أنـا لـم أعـد أنظـر إلى جمـال الفتيـات الصغـيرات، لا تغريـني

الأحجـام الصغـيرة، تبـدو لي طفلـة ولا أسـتطيع أن أقربهـا، تعـرف بليـتي طبعًـا ولا أخفيهـا عنـك، أنـا أعشـق الكبـيرات فقـط، وحـتى الآن لا أسـتطيع أن أرى الجمـال في جسـد فتـاة أصغـر مـني، وأقسـم لـك حـين سـأتزوج سـأختار امـرأة كبـيرة ممتلئـة والأفضـل أن تكـون مطلقـة.

اندهـش ياسـين مـن كلام أيمـن الـذي بـدا أكـثر سـهوًا وهـو يتحـدث، ليـس مـن فـرط الحشـيش بـل مـن هذيـان غـير مـبرر ينتابـه بـين لحظـة وأخـرى، شـعر ياسـين بالتقـزز مـن أقـوال صديقـه لكنـه لا يظهـر ذلـك، فبـأي منطـق يتحـدث هـذا الرجـل، صحيـح أنـه يعـرف عنـه بعـض مـا يفعلـه؛ لأنـه لـم يعـد يخفـي الكثـير مـن أسراره، إلا سر علاقتـه براضيـة، فرشـيد كان يفضـح كل شيء في محاولـة لاسـتقطاب ياسـين أيضًـا للدومـين، أمـا أيـور فقـد بـنى بينـه وبينهـم جـدارًا مـن الصمـت، ولا يجـرؤ أي شـخص منهـم عـلى فتـح مثـل تلـك المواضيـع أمامـه، وخصوصًـا في حـضرة ياسـين، فياسـين يحافـظ عـلى رفيـق روحـه أكـثر ممـا يحافـظ عـلى نفسـه.

- الجمال أذواق لا تناقش.

قالها ياسين بتأكيد.

فأجابه أيمن متنهدًا متوسلًا كأنه يستعطفه:

- أخبرهـم بذلـك أرجـوك قـل لهـم إن الجـن في داخـلي يحـب الأحجـام الكبـيرة.

- من سأخبر؟

سأله باندهاش.

- أخبر أهلي وكل من يتجمع قرب البيدر.

- أي بيدر؟

- البيدر الذي يأتي منه كل هذا التبن.

سرعـان مـا انتبـه ياسـين إلى أن الرفيـق أصبـح يهـذي حقًّـا، وأنه بـدأ ينـوح نواحًـا عتيقًـا، وعـرف أن تأثـير الحشـيش مزمـن وليـس مرتبطًـا بهـذه اللحظـة، سرعـان مـا تجمعـت تحـت عينيـه كومـة مـن الحـزن مـن الـورق الخريفـي مرميـة في بركـة مـن دمـع غـدر بالمقلـة وتجمـع تحـت جفنيـه، هـو ليـس عـلى مـا يـرام قـال في نفسـه، وحـاول أن ينهـي هـذه الجلسـة النهاريـة الـتي لا مـبرر لهـا مـع هـذا الكـم مـن الدخـان المحيـط بقلبـه والـذي غلفـه وعزلـه عـن واقعـه.

اشـتغل أيـور في السـوق طـوال اليـوم، أفـرغ شـاحنة صغـيرة مـن صناديـق الخـضر، وبـاع صندوقـين مـن الطماطـم أمـام بـاب المحـل، كان يومـه مربحًـا، عـلى الأقـل سـيكون لديـه مـصروف لبقيـة الأسـبوع؛ لأن راضيـة مـا زالـت تنعـم عليهـم بالوجبـات بـين يـوم وآخـر، بعـد ذلـك ذهـب إلى الحمـام العمومـي ليغتسـل مـن أدران هـذا اليـوم الشـاق، وعـاد يحمـل سندويتشـات للعشـاء، لـه ولياسـين، ثـم ارتمـى عـلى فراشـه مـن شـدة التعـب.

-١٨-

يونيو ما زال متربعًا على كرسي الشهور، جاثمًا على قلب المدينة المختنقة بالشمس والغبار، الأحاسيس أيضًا مختنقة بالغبار وتميل نحو اليبس، يستيقظ أيور باكرًا ليتجه لسوق الخضر مرة أخرى فقد اتفق مع التاجر الذي عمل معه بالأمس على العودة للعمل، ارتدى ملابسه المتسخة وخرج مسرعًا، سيتناول فطوره مع صاحب المحل، كل وجباته ستكون على حساب المحل، من العيب في المدن الصغيرة كتارودانت أن تترك أجيرك دون طعام، فتكون مسؤولًا عنه حتى ينتهي من عمله.

ياسين نائم، لا يمكنه أن يستيقظ وقد أمضى الليلة في حوار مع كريمة عبر الفيسبوك، أصبحت تسكنه ولا يرتوي إلا بها، الحوار أصبح عالمًا من الغنج والقُبل التي لا تنتهي، كيف لا وقد أصبح لكل كلمة مدلول حسي على جسده وعلى جسدها، وأصبح للنقطة قوة العناق وللفاصلة ثقل تنهيدة بين خصلات شعرها الحريري الأسود، يطلب صورة لنهديها ليموت وينتهي، ويطلب صورة لردفيها ليُصلب على شجرة الشهوة، ويطلب صورة لكل بقعة منها ليبعث على شهادة قطرات تعيده للهدوء، يتمسك بخيط التواصل ليصنع سريرًا له ولها، سريرًا من أزيز الكلمات وبراغي اللذة والعادة السرية التي لم تعد من السرية بما يناسب المصطلح.

لو ولد ديوجين الكلبي في عصر الصورة كان ليخجل.

يطل ياسين على غرفة أيمن ليجدها فارغة فقد كان عليه أن يفتح المحل لاستقبال البضاعة التي سيحضرها الحاج علال؛ لذلك قرر أن يقوم بعملية تنظيف للبيت كله بما فيه غرفة أسامة التي قد ينبعث منها الدود بسبب الرطوبة، غاب أسامة شهرًا ونصف الشهر، غرفته مغلقة ولكنها ليست مقفلة، فقرر فتحها ليدخلها الهواء لم يدخلها الهواء أبدًا، الهواء رفض الدخول للغرفة، رغم أن الباب مفتوح على مصراعيه، ربما كان الصراع حادًّا بين عالمين عالم أسامة والعالم الخارجي، صراع بين هواء فاسد بداخل الغرفة وهواء جديد يريد طرده من مملكة الرطوبة والغياب.

أحيانًا ينخرط الإنسان في تنظيف بيته ومحيطه لكي ينظف داخله لا غير، فعمليات الكنس والشفط والغسيل هي ما تحتاجه بعض القلوب لتزيل درن الأيام، حين تتكدس الأحداث على قلبك ولا تملك مجالًا للتفكير فيها وإعادة النظر في حياتك، تكون صباحات التنظيف والترتيب فرصة لترتب فيها دواخلك أيضًا، وربما هذا سر هدوء ربات البيوت، وسر لهفة بعض الناس على الأشغال المنزلية، ففراغ البيت من ساكنيه والوحدة المرفقة بذلك تمنح سلامًا داخليًّا يسمح بالرجوع للوراء دون وجع ودون أداء فريضة الذكريات الحارقة.

اغتسل ياسين من ليلة العرق بماء بارد لينتعش، لكن الماء

البارد في بعض الصباحات يجعلك تتكس على غرور الرغبة والانتعاظ، سمع دقات خفيفة على الباب الحديدي، فأحاط وسطه بمنشفة متوسطة وما زال مبللًا بماء الاستحمام، منشفة زرقاء قديمة رافقته من بيته بالقرية، ياسين كبر قليلًا هذا العام ويبدو قوي البنية واسع الصدر والكتفين، بدأت علامات رجولة تتضح على جسده، بدأ يتجاوز تلك المراحل المراهقة ليستوي شابًّا مكتملًا ملامح الرجولة، فتح الباب فإذا بها راضية، تحمل صينية مغطاة بمنديل مطرز، شعر بالخجل منها فأمسك بطرف المنشفة كي لا تسقط من على جسده، ولكنه لا يجد طريقة لحمل الصينية، فدخلت هي بنفسها لتضعها في المطبخ في حين أسرع لغرفته ليرتدي فوقية ويعود ليشكرها.

لكنها التحقت به للغرفة.

تحتوي الصينية على طاجن من لحم الماعز، وطبق فواكه كله من التفاح الأحمر الشهي، قضم ياسين تفاحة كبيرة منه والتهمها في انتظار وقت الغذاء وعودة أيمن، هناك دائمًا تفاحة جديدة للقضم الأبدي، تحضرها أنثى الخطيئة في الصباحات الممددة على الأسرة الشوهاء.

شعر ياسين أنه فارغ من نفسه، ليس لأنه يخون كريمة، ففي عالم المتع لا خيانة حقيقية لتشير ضميرًا حيًّا، شعر بأنه لا شيء، وأنه لا يفرق شيئًا عن كلب الدوار المسعور، لكنه كان متعبًا فنام مرة أخرى، النوم يعيد ترتيب الأشياء في الذهن، وقد يصفيها ويختزلها في ذكرى مضت وانتهت.

اليـوم طويـل جـدًّا في تارودانـت السـاخنة، هـي مدينـة جنوبية عـلى كل حـال، مناخهـا قـاري، تشـتعل حـرارة في الصيـف وبـرودة في الشـتاء، اسـتيقظ ياسـين قبيـل غـروب الشـمس، فكـر في أيـور، فكـر في نفسـه، فكـر أنـه يحتـاج إليـه ليحـكي لـه مـا يحـدث معـه.

كل واحـد منهمـا يحتـاج الآخـر ليحـكي لـه حياتـه الداخليـة والخارجيـة، كأن الحـكي هنـا مـرادف للخلاصـات والنتائـج، كأنـه يقـول هنـا وصلـت حيـاتي فأيـن وصلـت حياتـك؟ الحـكي عمليـة وجوديـة خلقـت مـع الإنسـان، ومورسـت في كل مراحـل تطـوره، كذلـك اعتـاد ياسـين أن يحـكي في حديـث المسـاء تفاصيـل يومـه لأيـور، وأحيانًـا لا يجـد شـيئًا ليحكيـه، فيبـدأ في سرد برنامج الغد، وحـين تصـل بـك الرفقـة لدرجـة الحـكي عـن المسـتقبل، وتكـون قـد اسـتنفذت قصـص الحيـاة كلهـا، فاعلـم أنـك قـد بلغـت درجـة مـن الرفقـة الطيبـة وأن الصمـت في حضرتهـا مقـدس، هنـا يكفـي أن تجالـس صديقـك فقـط وتسـتمع لنبـض الحيـاة، تـوالي الحـكي والصمـت يسـمح بترتيـب الضوضـاء الداخليـة، وتبـادل الضغـط بـين الداخـل والخـارج.

أيـور غالبًـا مـا تكـون لديـه حكايـات داخليـة، فهـو يراقـب بدقـة كل التحـولات النفسـية في جهـازه الداخـلي، فيتحـدث عادة عـن فكـرة عـبرت ذهنـه أو إحسـاس خالجـه، أو موقفـه تجـاه شيء معـين، إنـه يسـافر عـبر الدواخـل وقطاراتـه لا تربـط بـين محطـات متتابعـة بـل تقـف كلمـا اشـتد الحنـين لمـكان معـين، أمـا ياسـين فيحـكي اليومـي المتكـرر ويـسرد الأحـداث الواقعيـة أكـثر، إنـه مرتبـط بالحركـة والأفعـال، فتشـعر في كلامـه مشـيًا وركضًـا، وتشـعر في حركاتـه نفسـها طقسًـا فرجويًّـا كأنـه حكـواتي

ساحة أسراك.

منذ مدة لم يتحدثَا معًا ولم يمضيَا الأماسي الصيفية معًا، رافق ياسين كريمة أكثر مما رافق صديقه، وربما لهذا السبب شعر برغبة كبيرة في أن يحكي له كل شيء، كل شيء مهما كان حميميًّا، فالاختلال داخله بدأ يصدر عناوين الخوف، وهذا الجبن والكسل والريبة التي بدأت تتسلل إليه تحتاج رفقة صديق لتهدأ.

لا يحتاج أي صديق بل يحتاج أيور فقط، فبعض الناس يختزلون الكثير من العلاقات، فإن الذي يعرف معنى الصداقة لا يحتاج لكثرة الأصدقاء، بل يحتاج حضور المعنى العميق للصداقة ولو مع صديق وحيد، وقد يغنيك هذا الصديق عن العشرات من العلاقات السطحية التي لا تؤثر فيك سواء استمر أو انقطع حبلها.

أيور يعود محملًا بالتعب، فيرتمي على فراشه غير مكترث بالعرق الذي يغسل جسمه طيلة الليل، فالحرارة المرتفعة في صيف تارودانت لا ينكسر حدها، تستمر ليلًا لتغرقك في العرق، نظرات ياسين المتوسلة جعلت أيور يفهم أنه يحتاجه ولكن التعب بلغ مبلغًا لا مفر له من النوم، وضع أيور بعض الخبز وبداخله قطع كبيرة من اللحم في صحن وأحضره لصاحبه ليتناوله على العشاء، كان مستأجره محتفلًا بعقيقة ولده الرابع وكان غذاؤهم وليمة حقيقية؛ لذلك أحضر منه بعض القطع وناولها ياسين.

كان الليل قاسيًا على وحدته، مزاجه لا يقبل محادثات

كريمة بل أشعر بنفور غريب منها، وخرج للتسكع وحيدًا في مدينة لا تنام صيفًا، فكر كثيرًا في راضية، كان يعتقد لحدود اليوم أن تلك التصرفات لا توجد إلا في الأفلام الجنسية التي كان يشاهدها على المواقع الإباحية، لكنه عرف أن سقوط الخجل مسألة ثوان فقط، كان نادمًا، الخطيئة يتبعها الندم غالبًا، يقول في نفسه إنه أصبح فارغًا من المرجعيات، فقد ذاته التي كانت محاطة بالخلق والدين والحياء.

تذكر كريمة ونسيها بسرعة كأنه أبعدها عن مجاله البصري بحركة من يده وهو يرمي السور بحجر كأنه ينتقم من سلالة الطين، لماذا يحيط الندم بكل هذه المتعة الذهبية للجسد، كل تلك الإطارات الدينية والاجتماعية لا تصلح إلا لحالات الندم، بل هي التي تخلق الندم، وهل سيكون حيوانًا إن لم يخضع لها، ألا يكفي الحب إطارًا لها، وهل كان حبًّا ما حدث؟ لم يكن حبًّا كان استفراغًا لسائل منوي يتحرش بالخصيتين، بالبيضتين الراقدتين في كانون ساخن، هذا كل شيء. كان يناقش نفسه كما يناقش أيور، ويقول له مستفسرًا: لم حرم الله الجنس؟ الله يعلم أن الشهوة قوة قاهرة، فلم منع عنَّا المتعة ولم خلقها فينا ليحرمها علينا؟ لكن الله لم يمنعها عنَّا بل أباحها في إطار شرعي، الرهبان فقط منعوها عن أنفسهم وحرم عليهم ذلك، الله يعلم أننا قادرون على التحكم فيها؛ لأنه يستحيل ألا نستطيع ذلك، الله أخبرنا بذلك، ولو لم يكن باستطاعتنا التحكم فيها ما منعها عنَّا، هذا برهان بالخلف. المسألة إذن محض إيمان فقط.

الكراسي الحديدية التي تحيط بساحة النافورة الملونة بدأت تذوب وتصير سائلًا أسود يشربه ياسين، شرب منه غرفة بيده فصار محزونًا أكثر من ذي قبل، حاصرته أفكار كثيرة جلها نابعة من الما وراء، سلسلة غير متراصة من الجمل الحزينة والمرتبكة والخائنة، يشعر بفراغ الجسد من المعنى، يريد أن يعود للبيت ليوقظ أيور من نومه ويجالسه.

عاد ياسين بعد منتصف الليل، لكنه لم يوقظ أيور الذي كان يغط في نوم عميق كطفل ممسك بمرضعته الزجاجية، ما كان يحتاجه هو أن يكون قرب صديقه فقط لا أن يكلمه كأنه رجل من طينة أخرى. وضع رأسه على وسادته وراح يفكر في حياته بعد البكالوريا، ستظهر النتائج بعد أيام قليلة، سينجح أكيد لكن ليس بالمعدل الذي يحلم به، استدار إلى جهة الجدار الرطب رغم الحر في المدينة، وراح يلاعب هاتفه المغلق، لن يفتحه الليلة كي لا تهجم عليه الرسائل وتنسيه تركيزه الذي استجمعه بعد حيرة كادت أن تعصف به وباتزانه. فقرر بعد إصرار وترصد أن يغلقه طيلة هذا الأسبوع وأن يختفي عن مجال كريمة البصري، سينزل إلى السوق رفقة أيور ليعمل في انتظار نتائج الثانوية، الحر منعه من النوم الهادئ وكذلك بعض الأفكار والهاجس التي ظلت تحوم فوق رأسه كأطياف ملتاعة وكأشعار هاربة من جحيم ديوان يحترق، نام رغم بؤس المقام التي عزف عليه هدوؤه المصطنع، سيعمل بتلك المقولة الشهيرة التي قرأها ذات يوم: إذا شعرت بالحزن فاذهب للعمل. عليه أن يخرج إذن من حالته وإلا كان عرضة للاكتئاب والإحباط.

للشـهوة مخالـب تنهـش بهـا الـروح كمـا تنعشـها بأجنحتهـا اللذيـذة، وبـين هـذا وذاك يكـون للجسـد وضـع اسـتثنائي بـين النضـوج والاكتمـال وبـين الشـعور بالحاجـة والتبعيـة للآخـر الشـهي، فدبيـب الفـرح الـذي يـسري في العـروق لحظـة العنـاق يسـتحيل نُقـطَ فـراغٍ بعـد النهايـة، لكنهـا نقـط تمتـلئ مـع مـرور الوقـت.

-١٩-

لهـواء الفجـر رائحـة خاصـة، إنـه الزمـن الوحيـد الـذي يبـدو نقيًّـا، لمـن يريـد أن يبـدأ مـن جديـد، يسـمع تهليـلات المـؤذن ونـداء الصـلاة مـن الجوامـع المجـاورة وبعـض الشـيوخ بجلابيبهـم البيـض ومسـبحاتهم الـتي تتحـرك في عفويـة بـين أصابعهـم، حبـات المسـبحة تتنـاوب عـلى المـرور بـين أصابـع الشـيخ كأنهـا اعتـادت لمسـاته، يبـدو أن فمـه لا يتحـرك لكـن قلبـه ينبـض بالذكـر مـع كل حركـة، لقـد سـلم روحـه لله وهـو عـلى قيـد الحيـاة، لا بـد أن سـنوات كثـيرة عـلى الكـرة الأرضيـة قـادرة عـلى تشـذيب الـروح والجسـد وجعلهمـا متسـاكنين حـد الاستسـلام لبعضهمـا بعضًـا.

إن المعادلـة الصعبـة في الحيـاة هـي كيـف تسـتطيع أن تقنـع الشـاب بحكمـة الشـيخ؟ وكيـف تسـتطيع أن تقنـع الشـيخ بعنفـوان الشـباب؟ فـالأول يميـل للجسـد والثـاني يعتمـد عـلى الـروح.

خـرج ياسـين بعـد أن توضـأ، انسرب بـين جانـبي درب «سـيدي أحسـاين» واندلـف إلى المسـجد الكبـير.

أمـا أيـور فقـد نـام حـتى السـابعة صباحًـا ليجـد نفسـه في السـوق يفـرغ شـاحنة صغـيرة مـن صناديـق الخـضر ويرتبهـا داخـل المحـل، أعـد عامـل آخـر فطـورًا وحليبًـا لتناولـه، بـراد

شـاي بالنعنـاع وخـبز وزيـت زيتـون، العمـل صباحًـا فرصـة للاسـتفادة مـن الراحـة بقيـة اليـوم، فحـين تسـتقيم شـمس الظهـيرة سيستسـلم الـكل للظـل والكسـل حـتى حركـة الزبائـن تخـف إلى مـا بعـد صـلاة العـصر، وأيـور كثـيرًا مـا يسـتغل الفرصـة ليقـرأ قصاصـات الجرائـد القديمـة الـتي يأخذهـا مـن بائـع النعنـاع والأعشـاب المنسـمة الأخـرى كالكزبـرة والبقدونس، قـال لـه ذات يـوم في اهتمـام:

- آه، أنـت تذكـرني بالسـبعينيات؛ حيـث كان للجريـدة معـنى، وكانـت تغـير عقولنـا وأموالنـا مقـالات ننتظرهـا بشـغف، أمـا الآن فالجرائـد لا تصلـح إلا للبيـع بالكيلوجـرام مـن أجـل ربطـات النعنـاع والبقدونـس.

فرد عليه أيور وهو يبدي نفس الاهتمام ودون أن يقاطعه:

- وهل كنت تقرأ الجرائد في الماضي؟

أجابه وهو يهمر بترتيب بضاعته.

- لا، كنـا نتحلـق حـول رجـل مـا زلـت أتذكـره في لباسـه العصري وقبعتـه بيريتـه البنيـة، ونسـتمع لـه حـين يقـرأ ويـشرح، يـشرح مشروعًـا لـم يسـتطع أن ينهيـه في أرض الواقـع، كان يقـول إن التعليـم هـو مفتـاح هـذا المـشروع الـذي كان واضحًـا في عقلـه فقـط، كانـت الدولـة تخـاف مـن كل مـن يحمـل جريـدة تحـت إبطـه خصوصًـا إن كان يجعـل النـاس البسـطاء مثلنـا يتحلقـون حولـه.

- وأين هو الآن صديقك؟

- لقد مات، لو كان حيًّا لأصابه الشلل بسبب غدر من يسميهم رفاق النضال، لقد باعوا أنفسهم وارتدوا على مشروعهم وتناوبوا على البلاد كما يتناوب الزبائن على العاهرة.

كان يتحدث ويملأ التبغ ويستنشقه، نترة نترة وتفيض من عينيه مفردات ملأت ذاكرته حسرة حسرة، المشروع كان واضحًا لكن الصراع كان كبيرًا، وكان الرفاق متحولين زومبيين، عامل الزمن كشفهم وكشف بؤسهم الداخلي، لم يتغيرون هكذا؟ سأل صاحب النعناع أيور وراح يرتشف ما تبقى في قاع الكأس من شاي أسود وهو يسب الرفاق بكل ما حفظه في السوق من كلمات لقيطة وعاهرة، يسب ويلعن الحكومة والشعب.

- لقد تناوبوا علينا، على الحكم. قرروا أننا أوباش ولا نستحق الحياة، ولكن بيع النعناع أفضل من بيع مؤخراتنا للتاريخ.

تفاجأ أيور بنبرة عبد المؤمن ووعيه السياسي، ولكنه تفاجأ أيضًا بخيار الصمت والاستسلام الذي يعيشه، رجل رقيق البدن لكنه قوي البنية، صحيح أنه أميٌّ ويتعثر في القراءة ولكنه يعي وضعه، طبقته، هامشه، وهذا كافٍ ليعي كيانه كإنسان فقير مهمش يصارع اليوم، ويدفع به عجلة التاريخ المعطلة التي توقفت عند رقبته، وفضَّل بيع النعناع على بيع أفكاره التي ورثها من جيل السبعينات، رغم أن رفاقه باعوا أفكارهم بثمن باهظ، باعوا النضال وتاريخه مقابل

فيلات وسيارات فارهة ومناصب في مجالس حكومية مستحدثة على قياس تاريخهم، يشاهدهم على شاشة التلفاز ويبصق عليهم ويفكر في أن يتبول على التلفاز الصغير في غرفته، يفكر في أن يبول عليهم، أن يشرب لترين من ماء الحياة ويبول بلؤم على غدرهم له وللوطن.

كلامه عمَّق في أيور رغبة في أن يجالسه كل يوم، علّه يسمع منه حكاية هؤلاء الذين يرتدون بزات أنيقة ويتفذلكون في حواراتهم التلفزيونية، هؤلاء الذين ما زالوا يضعون نضالهم وسنوات سجنهم في كفة والمال في كفة أخرى، فهو يريد أن يفهم الفرق بينهم مثلًا وبين بائع النعناع الذي ناضل مثلهم في يوم كان فيه الانتماء لليسار جريمة شنعاء، كي يفهم اليوم الذي صار فيه الانتماء لليسار تهمة ولعقًا للأحذية، بل أصبح الانتماء السياسي نفسه متبرئًا منه، اليسار الأعرج في المغرب، ضربه النظام بعصا المكنسة منذ فجر ولادته.

- اللعنة عليهم جميعًا.

- على من بالضبط.

- على السياسيين والعسكر، وعلى هذا الشعب الجاهل المريض الذي لا يريد أن يعي أنه مغبون في حقوقه، أنه مطحون، أنه جالس على قالب من السكر تحت مؤخرته، السكر لذيذ مع القهوة، لكنه ليس لذيذًا في هذا الاستعمال الورائي.

- الشعب يعيش دوامة اليوم، يريد أن يأكل ليعيش.

- إنهـا سـنوات مـن التدجـين، لكنـه شـعب قابـل للتدجـين، يسـتحقون قنابـل فوسـفورية ليتشـتت وعيهـم.

- حـتى شـباب الجامعـة مدجنـون ويكرهـون الحركـة السياسـية، كل مـا يفعلونـه بعـض الأنشـطة الجمعويـة ويؤكـدون بدايـة وانتهـاء عـلى أنهـم بعيـدون عـن السياسـة كأنهـا لطخـة خـراء سـيصابون بهـا في وجهوهـم.

- هـم أنفسـهم خـراء، أدمغـة مملـوءة بالرياضيـات واللغـات الجافـة، وفارغـة مـن الأدب والسياسـة، طلبـة الجامعـة خـراء قديـم.

- وما السبب في نظرك؟

- السـبب هـو التدجـين، هـو العنـف الرمـزي، هـو التحكـم في التعليـم لصنـع جيـل الضبـاع المريضـة، في الغابـة لا نريـد الكثـير مـن الأسـود، نريـد ضباعًـا فقـط، وقطعانًـا مـن الـكلاب البريـة الـتي يسـهل اقتيادهـا، ولكنهـم في دواخلهـم جثـث محنطـة، عقـول محنطـة، لا يفكـرون ولا يقـرأون ولا يتأملـون أنفسـهم، ونضالاتهـم لا تتعـدى المطالبـة لا تتعـدى المطالبـة بمعـدلات بئيسـة ترمـي بهـم إلى البطالـة، البطالـة ترمـي بهـم إلى الشـارع حيـث الجنـس والجريمـة والمخـدرات والحشـيش.

- هل يستحقق هذا الوعي يومًا؟

- لا أعلـم، مـع هـذه القطعـان والجمـوع الغفـيرة مـن الماعـز والـكلاب الضالـة لا آمـل شـيئًا.

قالهـا في عصبيـة وتنـاول التبـغ مـن جديـد ليمـلأه وينفـخ

فيه مستنشقًا دخانًا كثيفًا كذكرياته، لم يكن أيور يعلم أن بإمكان بائع النعناع أن يكون شقيًّا لهذه الدرجة بوعيه، وأن يحمل في ذاكرته وقلبه كل هذا التاريخ من الشؤم والغدر الذي تعرض له الوطن.

قال له:

- أتعلم معنى الحركة الوطنية؟

- لا.

- إنها أكبر كذبة في التاريخ، إنها مرحلة دموية حالكة السواد، لا تصدق ما يكتبونه لكم على كراسات التاريخ المزور في المدارس، إنهم يكذبون، الحقيقة ضاعت مع أصحابها، طمست ولن تظهر ثانية، لقد رحلت الحقيقة عن هذه البقعة من العالم ولن تعود أبدًا، فلا داع للنبش في قبر التاريخ عن وطن أكله الدود وأكله أولاد الحرام وباعوه بثمن بخس، فيلات معدودات وأرصدة مقابل مصالحة بائسة مع من؟ مع الجريمة، مع القتل والخديعة؟

- أرجوك لا تنزعج، أتمنى أن تهدأ الآن فقط.

- أنا لا أنزعج أبدًا، أنا نادم فقط لأني تركت الفرصة لهؤلاء القوادين ليسوقوا الوطن على فراش نضالنا، أنا نادم لأني انكمشت وانسحبت، وها أنت كما ترى، حرقت كل بطاقات الجمعيات والأحزاب واخترت بيع النعناع وهذه المنسمات الجميلة، واخترت هذا المحبوب المعشوق للتبغ أنفخ فيه وينفخ فيَّ، لا تتعجب إنه أفضل منهم جميعًا، إنه رفيقي

الأعـز، لا يفارقـني أبـدًا، وهـو عوضـني عـن الرفـاق، الرفـاق الخونـة الذيـن تنكـروا لي بعـد أن رفضـت منطقهـم في التغيـير، الـكلاب، باعـوا الوطـن سـحقًا لهـم.

- أفهـم ذلـك جيـدًا، أفهـم سـبب انعزالـك، أنـت بسـيط وقانـع، وتعيـش حياتـك مـع البسـطاء والجهـل ومـن يـراك يعتقـد أنـك أمـي بـدون وعـي سـياسي.

- لقد باعوا الوطن.

مـرت سـاعات الظهـيرة في حديـث مـع صاحـب النعنـاع الـذي كان شـخصية مثـيرة لاهتمـام أيـور منـذ ولـج إلى سـوق الرحبـة القديمـة، ولـم يقاطعهمـا إلا مـرور امـرأة بدينـة تبعهـا الرجـل بعينـين جاحظتـين وحـرق كل قمـاش عليهـا، وهـو يهـذي:

- لـولا هـذا الخـير والخمـير لمتنـا كمـدًا، ربمـا هـذا هـو الوطن الحقيقـي ألا تعتقـد ذلـك يـا ولد؟

أجاب أيور ضاحكًا:

- ربما.

- هل لك صاحبة، أم مازلت بتولًا؟

شـعر أيـور بالحـرج، فسـؤال كهـذا مـأزق حقيقـي لكل شـاب في سـنه، أمامـه حـلان إمـا أن يقـول الحقيقـة أو أن يكـذب، الحقيقة أن مغامراتـه قصـيرة في بدايـة مراهقتـه بالقريـة، والكذبـة الـتي قـد تسـاعده هـو أن يقـول لـه نعـم، لديـه صاحبـة، وفـوق الصاحبـة يرتـاد دور الدعـارة بـدرب كسـيمة ودرب الجـزارة، فـلا أحـد يصـدق الآن أن الشـابَّ قـد يعـتزل دنيـا الجنـس مـن ذاتـه

دون إكـراه، لكـن أيـور شـاعر لـن تعـوزه الكلمـات في مثـل هـذه المواقـف، ذلـك اكتفـى بالصمـت وبابتسـامة ماكـرة، لـم يفهمهـا عبـد المؤمـن، خصوصًـا أن السـيدة البدينـة قـد عـادت ومـرَّت أمامهمـا، وحـين تكـون جالسًـا لتبيـع النعنـاع عـلى طاولـة واطئـة تكـون عيونـك في مسـتوى خـصر مـن يمـر أمامـك وتكـون.. رؤيتـك واضحـة الأبعـاد.

وكرر عبد المؤمن كلامه:

- هـذا هـو الوطـن قلـت لـك، صدقـني، لا أدفـأ مـن هـذا الوطـن... ليأخـذوا القصعـة كلهـا، الشـمال والجنـوب والجبـال والصحـراء، وليمنحـوني بضـع سـنتمترات بـين نهديهـا.

فانطلـق أيـور في قهقهـة طويلـة، يتعجـب كيـف يسـتحيل الوطـن بضـع سـنتمترات عـلى جسـد أنـثى، هـذا لا يوجـد إلا في الروايـات الـتي تزعـم أن المـرأة رمـز الوطـن، وأن تضاريسـها ووهادهـا ورُباهـا هـي جبـال الأطلـس، تلـك الروايـات السـخيفة الـتي تغـرق في الاسـتمناء وحـين تنتهـي مـن الاسـتفراغ تئـول الأنـثى خريطـة للبـؤر التاريخيـة والاجتماعيـة والسياسـية أو يصبـح العضـو مدفعًـا وبندقيـة، يـا لهـا مـن روايـات سـخيفة يقـول أيـور في نفسـه وهـو يشـعر بقهـر داخـلي يقاسـمه مـع عبـد المؤمـن، خيبـة بعـد خيبـة، وانكسـار بلـغ حـد اللانكسـار، فـكان التشـظي عنـوان مرحلـة نفسـية دخلهـا عبـد المؤمـن ليفضـل بيـع النعنـاع ومعـاشرة المومسـات عـلى بيـع الوطـن والأفـكار، إنـه كاسر، صقـر، لكنـه جريـح، ولا تظهـر قوتـه إلا حـين يحـاول قائـد المنطقـة أن يمـس عربتـه أو يصـادر سـلعته، آنـذاك يسـمع

منـه مـا يصـمـ الآذان مـن السـباب والشـتائم، فيعـرف القائـد أنـه فعـلًا أمـام شـخص غـير عـادي، شـخص مسـتعد ليصـب النـار عـلى نفسـه ويشـعل حريقًـا داخـل وطـن.

أسـئلة الوطـن وأسـئلة الجسـد، لا تطـرق بـاب الوعـي الشـقي إلا لتعذبـه فـأن تكـون حاملًا لفكـرة النضـال مـن أجـل المـكان يلزمـك الخـروج مـن ذاتـك، مـن جسـدك وأن تجعلـه آخـر قـلاع المقاومـة، آخـر محطـات النضـال تحـت الجـوع والإضراب عـن الطعـام، ولكـن أسـئلة الوطـن لا تـؤرق ياسـين كمـا تـؤرق أيـور.

اشـتغل ياسـين طيلـة اليـوم مـع سـائق شـاحنة لنقـل أثـاث أحـد المنـازل وعـاد في المسـاء ليبحـث عـن أيـور في السـوق، فلـم يجـده هنـاك فالتحـق بـه في البيـت.

-٢٠-

صديقان وحيدان يتجولان حول الأسوار الطينية العتيقة، يخرجان عبر الباب الجديد لحي البلاليع ويسيران دون توقف، وحيدان، هل يمكن أن نقول عنهما وحيدين؟ إنهما متوحدان مع بعضهما بعضًا، التعب بسبب العمل جعلهما مرتاحين، يسيران ببطء وثقل يسمح للكلام بالترسب في الحلق والاصطباغ بغنة الرفقة، منذ مدة لم يسيرَا جنبًا إلى جنب، جنبًا إلى شعر.

انطلق ياسين في سرد كل ما يثقله، ما حدث له مع راضية، نقاشه مع أيمن، حالة أيمن التي لا تعجبه، احتياجه لأيور تلك الليلة الحزينة التي قلبت موازينه، ابتعاده عن كريمة وإغلاقه للهاتف وكل تطبيقاته، كل شيء، قال كل شيء كأنه يحدث نفسه، يحدث صديقه دون غضب، دون خوف، ليس كتلك الليلة التي كاد رأسه ينفجر فيها من بؤس ما يضج فيه، يسمعه فقط لا من يؤنبه على الخيانة فما حدث حدث ولا يمكن تغيره، وبما أن الندم هو سيد الموقف فلا داع للضرب على الجراح. ومن عادة أيور ألا يتدخل في الأمور الحميمية، لا خجلًا فقط، ولكن لأنها لا تُفسَّر يقول دائمًا:

- الشهوة فوق كل تفسير، يصعب أن نضعها في إطار عقلي منطقي؛ لأنها مرتبطة بمتغير هو الزمن، فأنا في هذه اللحظة في حلة لن تتكرر، والشهوة بقوة اللحظة تتجلى وتهجم.

واستمر أيور في سلسلة من الأفكار التي حاول ربطها منطقيًّا حتى يصل إلى خلاصات يتحدث كأنه يشرح درسًا في المصطلح، وهو يعلم أن هذا النقاش هو من أجل النقاش فقط، وسيبقى للواقع والحياة الكلمة الأخيرة، أو الكلمة الواقعية.

- أنا نادم جدًّا، أنا حيوان بريٌّ، خنزيرٌ.

قال ياسين في غضب مفاجئ.

- لا صديقي أنت ربما أخطأت والآن غيرت موقفك وتُبت.

- لكن الله لن يغفر توبتي.

- الله يغفر الذنوب جميعًا، لا تيأس من ذلك.

- لماذا نبتعد عن مرجعياتنا، لقد زنيت، هذا زنى.

- نعم هو كذلك لكنك تبت الآن، والله يغفر كل ذنب.

- أتعتقد أن الله يحبني، هل سيغفر لي خطيئتي.

- أكيد الله يحبك، وإلا لما جعلك تندم على خطيئتك، والآن انس الموضوع، لدي مال كثير، وأنا أدعوك لعشاء مميز، شواء يا سيدي في سبيل ابتسامتك الجميلة.

ابتسم ياسين من بين بحر الدموع، هناك أجساد تعتدي على الأرواح النقية، يخطئ الجسد فتدفع الروح ثمنًا من دراهم الحيرة والقلق.

دخلَا مطعمًا متخصصًا في الشواء، تناولَا وجبة عشاء من لحم الغنم وخرجَا لاستكمال جولتهما حول الأسوار الترابية

العتيقـة كحـزن أيـور.

لو يتحدث أيور فقط.

إنه هالة من الصمت يستجمع كل لغته في عينيه وقصيدة.

هـم كذلـك الشـعراء، يعيشـون حيـاة عاديـة وينخرطـون في الروتـين اليومـي، وفي نفـس الوقـت لهـم دروب سريـة للتأمـل والنظـر في الأشـياء، وقـد ينخرطـون في بـكاء داخـلي وهـم يبتسـمون في وجهـك، كذلـك تفعـل الشـمس تحـترق مـن الداخل لتبعـث النـور في محيطهـا الكـوني.

- أو تسمعني قصيدة؟

قال ياسين متوسلًا في حركة مسرحية.

- حاضر، من أجل ضحكتك الليلة أقول كل القصائد.

رد أيـور متخليًـا عـن عنـاده المعتـاد، رغـم أنـه يعلـم أن قـول قصيـدة كاسـتلال رصاصـة مـن العضـل، وراح يفكـر في مـا تحفظـه ذاكرتـه مـن سـطور نثريـة.

قصيدة أولى:

علاقتي بالخشب قديمة

أحب دولابي الخشبي

جواريره الداخلية تحتوي تاريخي وذكرياتي

إطارات الصور على الرف الخشبي

النوافذ والأبواب والأقفال الحديدية

الباب الكبير لدار الضيافة

مساميره الغليظة

المدقوقة في جدار قلبي

صندوق أمي بأشيائه وأسراره.

ورائحة الحلوى المنبعثة منه.

العلبة الخشبية التي تحتوي أوراق أبي

وعقوده الكثيرة.

حقيبته الخشبية التي يجمع فيها صحيح البخاري

وألفية ابن مالك.

والمصحف القديم المسفر بوهران الجزائرية.

رائحة الخشب

عالم الخشب.

أنا قطعة خشب، ولكني معدل تكنولوجيا بعناصر فلزية، فأصبحت هكذا رهيب التكوين، مادي العلامات، سريع الغضب كمنشار ألومنيوم.

قصيدة ثانية:

قلبي غير مدوزن

يصدر نوتات حزينة

يستحيل أن ترقص الحياة على أنغامها،

تهرب الفاصلة من السطر
فتحتار الباليرينا
أتقف على الأمل أم تتأرجح على موج البحيرة
تسير على الرمل وتغرق في السكون
لا يليق بباليرينا أن تغتدي تمثالًا
ولكنها تغرق
لأنها تحمل وطنًا بجروح ثقيلة
فوق تنورتها القصيرة
تبكي الباليرينا
وتنساب دموعها عبر الشاشة وألتقطها عشقًا
حنينًا لزمن البجع
حيث لا وجع
وحيث طائر الفلامون الأحمر يمد ساقه للمطر
والنورس لا يبكي كما في روايات العهد القديم
حين كتبت أستاذة السيمياء علامة على الهامش
لتقول لا للصفحات الحزينة
وما زال قلبي يعزف رغم الصمت
نوتات حزينة
في عالمين حقيقيين

لا للرقص على أوجاع الحزانى

ولا لدوزنة القلوب اليتامى

لا للموت في درج خزانة مظلمة في الحديقة الخلفية

لبيت انتصار دوليب* المسكون بالأشباح والموتى.

- هل أنت حزين يا أيور؟

- لا لست حزينًا، إنها طبيعتي فقط، وهو أسلوبي في الكتابة.

- ومن تكون انتصار دوليب؟

- إنها شاعرة من الولايات المتحدة، تعشق الأشباح والموتى وقصائدها نسخ طبق الأصل لأفلام الرعب، كالعائدة من الموت وهي تكتب دائمًا في الشريط الفاصل بين الحياة والموت، والماء والدم إنها رهيبة، هشة وقوية، لكن صورها دائمًا مخيفة ومرعبة، وقد تخرج الديدان من بين أصابعها ببساطة، وهي تجالس الموتى وتأكل معهم تراب المقابر، وما الموت أصلًا إلا انسحاب سري من قفص الجسد تأتي ريح خفيفة، لتحمل الورقة اليابسة خارج الحديقة، تسحبها ببطء أو تسير بها خارج الشباك الحديدي أنا أصنفها ضمن الدمويات الباردة... هي تحب أن تنام تحت ورقة تين جافة ويابسة شريطة أن تكون قرب جذع الشجرة حتى لا تطالها أقدام البائسين. تحب أن تصادق ديدان القز الحذرة التي تسير في سكون وصمت وهدوء وتتحرك ببطء شديد، كأنها

---

* شاعرة لبنانية أمريكية معاصرة.

تستمتع بالثواني الحزينة التي تحيط بها، وقد تصادق ديدان الأرض التي تخشى الضوء وتحذرها من الثقوب التي يحدثها الألم في التربة، أما الديدان الشريطية التي تتأهب لتعيش في أمعاء الحيوانات فليست من خواصها، هي تكره الاتكاليين حولها، وقد تربط أعمق صداقة مع ديدان القبور فهي التي تعرف علم اليقين معنى الحب حتى الموت وهي التي تعرف معنى أحبك حد الموت.

- ولم تقرأ لها هذا الرعب؟

- لأن الرعب في داخلي أكبر من صورها.

- ربما لأنك ترفض الكلام.

- لا أرفضه صديقي، دعه في داخلي، الكلام لا يفيدني أبدًا.

- لماذا تكتب ولا تتكلم؟

- لأن الحياة حزينة، باردة وفارغة، كل هذه المساحات البيضاء الصقيعية، يخيفني البياض اللامنتهي، عليَّ أن أخط عليه بعض المعنى، وأعيد ترتيب الكون في داخلي، يعجبني أن أنظر إلى نفسي في مرآة متكسرة، مبعثرة، أشعر بالانسجام حينها، كل جزء مني يبحث عن الآخر، وحين أجمع كل القطع، أكون ذاتي، أبحث عن صورتي القديمة فلا أجدها، إما أني لا أعرف نفسي، وإما أني لم أكن أعرف نفسي قبل الانكسار التام، أليس جميلًا أن تعيد ترتيب دواخلك بعد انكسار واستبدال المرايا.

- الأمر يبدو لي غريبًا لأني لا أكتب، ولكنه ممتع.

ضحـك أيـور لأنـه يعلـم أن ياسـين قـد يسـير معـه إلى حـدود صـوره الشـعرية البسـيطة لكنـه لـن يفهـم حـدود جنونـه بالصـور، فمـن أيـن يـأتي بـكل الترابطـات الجديـدة بـين الكلمات؟ كيـف يحتـوي صـدره كل الكـون، ربمـا هـي حـدود المعقـول عنـد أيـور ولكنهـا عنـد ياسـين تخـوم اللامعقـول واللامفكـر فيـه، حـواشي الجنـون السـبعة.

-٢١-

ظهـرت نتائـج الباكالوريـا أواخـر يونيـو في الموعـد المحـدد، كان أيـور عـلى رأس اللائحـة ونـال جائـزة التفـوق، ياسـين حصـل عـلى معـدل متوسـط يؤهلـه للجامعـة، احتفـلَا معًـا بنجاحهمـا المنتظـر بعـد معانـاة مـع مشـوار دراسي طويـل بـدأ مـن مقاعـد المدرسـة بالباديـة المهمشـة إلى داخليـة الإعـدادي ثـم إلى الثانويـة حيـث فضَّـلَا البقـاء بعيـدًا عـن النظـام الداخـلي المتزمـت.

في المسـاء بحثًـا عـن أيمـن الـذي لـم يلتقيـا بـه منـذ فـترة بسـبب انشـغالهما في العمـل في السـوق، وجـداه في المحـل، تسـاومه سـيدة حـول طقـم داخـلي، انتظـرَا حـتى انتهـى مـن نقاشـه معهـا ثـم طلبـا منـه أن ينضـم إليهمـا عـلى العشـاء.

وذلـك مـا حـدث فعـلًا فقـد أعـد ياسـين طاجـن لحـم بالخضر وأحـضر مشروبـات غازيـة وأنهـى الاحتفاليـة ببعـض المعجـون عـلى غـير عادتـه.

قال أيمن محتفلًا بهما:

- ألف مبارك عليكما، يجب أن تفكرَّا في الدراسة العليا.

فأجابه ياسين بكلام فاجأ أيور:

- أنا ليس عليَّ أن أفكر في شيء لدي مخططات أخرى.

رغم اندهاشه من رد ياسين قال في برود:

- أنا أرغب في ولوج مدرسة المعلمين.

- اختيار موفق، على الأقل تحصل على وظيفة في وطن البطالة.

- نريد أن نودعك اليوم، سنرحل غدا للدوار، سنشتاقك أخي أيمن، اعتن بنفسك.

- سترحلَا بهذه السرعة؟

- ليس لدينا ما نفعله هنا، كما أن موسم الحصاد في البادية ينتظرنا. قال ياسين.

- سيكون البيت فارغًا بدونكما، وأسامة لم يعد أبدًا، أنا أيضًا سأترك هذا البيت الفارغ، سأسكن مع أصدقاء لي في الحي المجاور.

- ذلك أفضل ما يمكن أن تفعله أخي أيمن، قال أيور.

خرج أيور وياسين لوداع الأسوار الطينية الحمراء، وتركَا أيمن رفقة كومة من التبن التي بدأت تذروها الرياح أمام عينيه، لاحظَا قبل خروجهما شروده المنهك، وكيف يحرك يديه يمنة ويسرة لأجل إزالة بقايا التبن عن عينيه، لم يكونَا مرتاحين لحالته، لكنهما خرجَا للقيام بجولة وداع للمدينة تارودانت.

صعد أيمن للطابق العلوي ونقر نقرتين على باب بيت راضية، وصعد إلى السطح ينتظرها، بعد ربع ساعة لحقت

بـه، في ملابسـها المنزليـة الصيفيـة وكانـت تحمـل سـلة ملابـس مدعيـة أنهـا سـتنشر غسـيلًا عـلى سـطح البيـت، لا يمكنـه مقاومة هجمـات التـبن المـذرَّى عـلى عينيـه، يجـب أن يغمـس وجهـه في صدرهـا كان يحتاجهـا ويشـتاق إليهـا كشـوق الصحـراء للمطـر، كان متسرعًـا وعنيفًـا، الـشيء الـذي أخافهـا بشـدة هـذه المـرة فرفضـت الانصيـاع لهجماتـه، لكنـه هددهـا بفضحهـا أمـام سي عـلال، فـازداد غضبهـا.

- عليك أن تثبت وتكون رجلًا كياسين.

- أي ياسين؟

- لم أذكر شخصًا اسمه ياسين.

- أيتها الحمقاء فعلتها مع ياسين؟

- بـدأت تغـار مـن صديقـك، تريـدني وفيـة كزوجـة لـك، انتبـه لتصرفاتـك معـي، سـأصرخ وأجمـع الجـيران وأتهمـك بالتحـرش بي.

- اصرخي أيتها العاهرة، سأكتم أنفاسك بيدي.

نزلـت راضيـة مسرعـة عـبر السـلالم وأغلقـت بـاب بيتهـا خلفهـا ممـا أثـار ذعـر أولادهـا، نـزل ياسـين وراءهـا يسـب ويلعـن بصـوت مرتفـع، يسـب التـبن والجـرن البيـدر والـدوار وكل الشـعير الـذي تـذروه الريـاح أمامـه، دخـل غرفتـه وتنـاول لفيفـة حشـيش تلـو أخـرى، حـتى كاد يغيـب عـن وعيـه.

عندمـا دخـل أيـور وجـده شـبه مغمـى عليـه قـرب بـاب المطبـخ، وحـاول إيقاظـه دون جـدوى فحملـه رفقـة ياسـين إلى

غرفتـه واعتنيَـا بـه حـتى بـدأ يسـتيقظ، وحـين لمـح ياسـين قـال لـه:

- إنهـا عنكبـوت سـتمتص رحيقـك وترميـك رميـة كلـب لا تثـق بهـا.

- كن بخير فقط، أنا لا أثق في أي شخص عدا صديقي.

- الكلبـة لا تشـبع، وتريـد أن ترميـني رميـة الـكلاب، لكـني سـأقتلها، سـأفضحها أمـام عـلال، وسـأفضحه أيضًـا الشـيخ العجـوز يسـتغل بنـات العشرينيـات.

- يستحقان بعضهما، دعهما ولا تتدخل.

- سـأقتلها قلـت لـك، فقـط أنتظـر أن يـزول هـذا التـبن مـن حـولي، ألا تـراه أنـت؟ انظـر إنـه لـم يعـد يتبـع اتجـاه الهـواء ولا اتجـاه الريـاح، إنـه يتبعـني أنـا، أبعـده عـني.

دخـل أيمـن في هيسـتيريا كئيبـة، وهـو يـصرخ حينًـا ويبـكي حينًـا ويضحـك حينًـا، فاتفـق ياسـين وأيـور عـلى أخـذه صباحًـا لبيـت أختـه في ضاحيـة مـن ضواحـي المدينـة، أخـت شـقيقة سـتعتني بـه حـتى يكـون بخـير.

هـذا مـا تـم بالفعـل بمسـاعدة الحـاج عـلال الـذي ظـل يحوقـل وهـو ينظـر إلى صـبي المحـل الـذي يثـق فيـه شـبه غائب عـن الواقـع، أعطاهمـا مـالًا وطلـب منهمـا أن يطمئنـاه عـن حالته حـين يعـودان مـن الـدوار، في حـين كانـت راضيـة تطـل مـن نافذة بالطابـق العلـوي وهـي غاضبـة ومبتسـمة في نفـس الوقـت وفي حقـد بغيـض، تفكـر في أن المشـعوذ الـذي نصحتهـا بـه إحـدى

صديقاتها لا يشق له غبار، وقد ساعدها على التخلص من هذا الحمل الثقيل.

كانت أخته الكبرى تحمل حزمة حطب حين رأتهم يرافقونه إلى بيتها، رمتها واتجهت نحوه تعانقه وتخفف عنه، وقد هدأ حقًّا حين علم أنه في بيت أمه الثانية، بقي على حاله مدة طويلة لكن أخته تحملت حالته بمساعدة زوجها الذي علم من ياسين أن أيمن كان مدمنَ حشيش مدة طويلة وأن جرعة زائدة تسببت له في حالة اكتئاب حادة جدًّا.

-٢٢-

أمضى الصديقان الليلة في ضيافة أخت أيمن بدوار أفنسو، وانطلقَا في الصباح نحو مدينة تارودانت، كانَا منذهلين مما يحدث، أيمن الشاب الرياضي الجميل الذي يتمتع بجسد رشيق ينتهي إلى مصاب بهيستيريا كئيبة، عادَا يجمعَا ملابسهما ويرحلَا عن المدينة الحزينة، كل ما يملكانه يمكن جمعه في حقيبة لكل واحد منهما، وكيس بلاستيكي كبير، كتب ودفاتر وبعض الملابس القليلة التي تحمل في ألوانها الباهتة آثار ثلاث سنوات كاملة من الدراسة، ألوان باهتة كشعورهما وهما يودعان أيمن الذي نظر إليهما نظرة لا يمكن تفسيرها أبدًا، نظرة بها من الفراغ أكثر مما بها من المعنى، كان يتوسلهما بعينيه، لا، كان يودعهما فقط، يريد أن يقول شيئًا لكن اللسان لا يسعفه، حتى أنه لم يبادلهما العناق بل تركهما يضغطان عليه وهو يرخي يديه كأنه مستسلم لخور أبدي، كانت نظرته مستحيلة، نظرة زعزعت كيان ياسين، أما أيور فكان في موجة من التأمل في البحار العميقة لنظرة أيمن، هو الذي اعتاد أن يبقى صامتًا لساعات طوال يفكر في صياغة العالم في صورة شعرية، ما كان يعجز عن تأويل نظرة أيمن البئيسة التي خرجت للتو من عالم الأشباح والغياب والوداع.

هناك أشخاص تعتقد دومًا أنهم أقوياء، ولكن حين

تدخـل أعماقهـم تكتشـف أنهـم ضعفـاء، ضعفـاء بمـا يكفـي ليخفـوا ضعفهـم عـن الآخريـن، كل مـا في الأمـر أنهـم يفتقـدون للشـجاعة اللازمـة ليظهـروا حقيقتهـم للآخـر، إنهـم مـن الهشاشـة بمـكان، أمـام أول عاصفـة يسـقطون قلوبًـا حائـرة.

لـم يعلـم أيـور مـا قـد يفعلـه بحاجيـات أسـامة، كان عليـه أن يفـرغ البيـت لـسي عـلال الـذي سيسـتقبل فيـه فوجًـا جديـدًا مـن الحيـارى الذيـن سـينضمون لعالـم القلـوب المسـتعملة، الذيـن سـيكبرون شـيئًا فشـيئًا وتنبـت عـلى أجسـادهم شـعيرات القلـق الأبـدي وهـم يتدربـون عـلى العيـش.

- هل نترك الغرفة كما هي؟

- لا أدري ربمـا يعـود ليأخـذ أغراضـه، هـو لـم يغـب إلا شـهرين ونصـف، وغالبًـا مـا سـيكون رفقـة أصدقائـه في أكاديـر، فقـد سـمعته يومـا يتحـدث إلى رفيـق لـه هنـاك عـبر الهاتـف.

- لقـد أخـذ كل ملابسـه لـم يُبـق إلا عـلى الكتـب والدفاتـر والمجـلات، وبعـض الملابـس المنزليـة، ولكـن كلهـا موقعـة مـن كالفـان كلايـن وزارا وسـيليو، إن قطعـة واحـدة منهـا تعـدل ثمـن ملابسـنا كلهـا.

- سـنتركها عـلى حالهـا، إنهـا الحاديـة عـشر صباحًـا يجـب أن نسـتعد فالوسـيلة الوحيـدة للنقـل إلى البلـدة سـتنطلق بعـد الظهـر.

نظر ياسين إلى أيور فجأة وسأله بعمق:

- لـم نحـن هكـذا، مـا الـذي يعترينـا فنتفـكك كقطـع أحجيـة،

لـم نحـن معطوبـون في دواخلنـا؟

- إنـه الشـتات يـا صديقـي، يحـول إنسـان اليـوم إلى نصـف إنسـان، ربـع إنسـان، وتجـد مـن يعيـش غربـة يشـعر معهـا أنـه لا شيء عـلى الإطـلاق.

قال ذلك ثم تابع الحديث سائلًا ياسين في مودة الوداع:

- ياسين هل تؤمن بالعهود؟

- نعم صديقي، أومن بها جدًّا.

- بم تعاهدني إن سألتك عهدًا؟

- أعاهـدك عـلى السـؤال عنـك وانتظـارك مهمـا غبـت، فالغيـاب لا يعـني النسـيان، أعاهـدك عـلى مسـاندتك في كل مراحـل حياتـك خصوصًـا في المنعطفـات الخطـيرة، أعاهـدك عـلى حضـور عرسـك واحتضـان أولادك، أعاهـدك عـلى متابعـة إبداعاتـك حـتى تنشرهـا وتصبـح كاتبًـا مشـهورًا.

- أنت ستجعلني أبكي يا رجل، هيا يكفينا عهودًا.

- أعاهـدك عـلى محـو دموعـك كلمـا بكيـت بالمناديـل والعنـاق والكلمـات والمواقـف.

- أحبك صديقي، عاهدني على أمر أخير.

- ما هو؟

- ألا تكف عن الدعاء لي بعد موتي.

- أعـدك، وإن مـت قبلـك لا تكـف عـن الدعـاء لي فأنـا أرغـب أن أصيـب الجنـة.

تعانقَـا كأنهمـا يودعـان بعضهمـا للمـرة الأخـيرة، بـل كانـا يودعـان البيـت الـذي جمعهمـا لسـنوات، وإلا فهمـا يسـكنان غـير بعيـد عـن بعضهمـا بعضًـا، بعـض اللحظـات تختـزل عمـرًا مـن الحنـين، دمعـت عينَـا ياسـين، أمـا أيـور فـلا يبـكي أبـدًا، لـم يبـك يومًـا.

- لدي اقتراح.

- ما هو؟

- نجمـع أوراق أسـامة ونحتفـظ بهـا، تعـرف أنـه يكتـب بعـض مذكراتـه.

- أوافقـك، إن تركناهـا هنـا قـد يعبـث بهـا الطلبـة الجـدد قبـل عودتـه، أو أبنـاء سي عـلال مثـلًا.

طـرق قـوي عـلى بـاب البيـت الحزيـن، رجـلان بمنتهـى الصرامة يرافقهمـا سي عـلال والارتبـاك يبـدو عـلى وجهـه، ارتبـاك وخـوف ومسـحة حـزن، اعتقـد ياسـين أن مكروهـا حـدث لأيمـن، لكـن الضابـط بادرهمـا بالسـؤال عـن أسـامة.

- هل تعرفان أسامة الوردي؟

- أكيد فهو طالب معنا في هذا البيت.

- متى كانت آخر مرة تراه فيها؟ موجهًا السؤال لياسين.

- قبـل شـهرين تقريبًـا، غـادر دون أن يخبرنـا أيـن وجهتـه. هـل هـو بخـير؟

- أين نجد عائلته إذن؟

- إنه من نواحي مدينة تزنيت من منطقة مير اللفت. هل هو بخير؟

- لا، لقد مات قبل يومين، مات مقتولًا في قرية أورير وعليه آثار اعتداءات كبيرة، كان مع شبكة للسياحة الجنسية رفقة مجموعة من الشواذ البلجيكيين، ويبدو أن أحدهم أرعب السياح في حفلتهم وقتل منهم سائحين وثالثهم هو أسامة، الحاصل أنه مات.

- فليرحمه الله تعالى.

فتش الضابطان غرفة أسامة، وأخذا كل ملابسه وحاجياته، ولكن الأوراق ظلت بحوزة ياسين وأيور، بعد مغادرة الجميع خيم صمت ثقيل ثقل الموت على صدر أيور الذي بدأ يطالع يومية لأسامة كتبها أثناء رحلة له، عاد شريط الذكريات بأيور إلى عهده بأسامة الذي كان يحكي له بغموض عن حياته الثانية وعن مصدر الأموال التي كان يحصل عليها، وعن قيمة الشرف التي كان يناقشها وهو يهذي.

اليومية كانت خاطرة بأسلوب هادئ حد الوجع، أن تتحرش بك جمل شخص توفي للتو، لم تصدق بعد خبر وفاته وتبدأ في القراءة له ولأول مرة فهو شيء مؤلم حقًّا، لن تشهق أبدًا ولن تتنفس قبل أن تتم القراءة على عجل، بحثًا عن الحياة في الموت، تريد فقط أن تفهم لم ينتهي أسامة مقتولًا على شاطئ صخري رفقة شواذ بلجيكيين.

«البحر والصخر وأنا والنوارس، أعصاب باردة وخيال هادئ.

مـاذا أريـد مـن اللحظـة غـير هـذا؟ رأسي فـارغ مـن الحيـاة إن الحيـاة لا تمـلأ رأسي، مـا يمـلأه هـو صـوت تلاطـم المـوج عـلى الصخـور الـتي تـزداد إمـا حـدة أو ليونـة، كذلـك تفعـل بنـا الحيـاة، بأيامهـا الأمـواج العاتيـة، إنهـا تضربنـا دون هـوادة، ونحـن نتقـوى مـع كل ضربـة وكل موجـة، تصبـح حواشـينا مستديرة تهـادن المـوج وكأنهـا أقمـار حطـت عـلى الأرض، ولكـن أحيانًـا ننكـسر مـن شـدة التلاطـم فـتزداد حـدة وشراسـة، كلمـا ضربـت بقـوة ازددنـا شراسـة وحـدة.

إنهـا الحكمـة النابعـة مـن الصخـور والمـاء، علاقـة الحـب العتيقـة بينهمـا، علاقـة الحـب المتوتـر بيـني وبـين الحيـاة، ارتاحـت أعصـابي مـن التوتـر، هـا هـي الحيـاة إذن جنـبي مستسـلمة تضـع رأسـها عـلى صـدري الـذي يتـبرد بـرذاذ المـاء الناتـج عـن علاقـة الصخـر بالبحـر، شـعرها المنسـدل عـلى كتفي ينـام أيضًـا في هـدوء، هـدوء حوريـة عمـرت الأعمـاق طويـلًا واسـتقالت مـن عالـم الجواهـر والكنـوز الماديـة، وتريـد صـدري فقـط، تضـع أذنهـا قـرب قلـبي، فهـي قبـل أن تتمـدد بجانـبي تختـار الجانـب الأيـسر مـن وجـودي، وأنـا ألفهـا بذراعـي اليـسرى وأقبلهـا عـلى رأسـها، أعـلى الجبهـة بحنـان، بحنـان فقـط.

تصالحـت إذن مـع الحيـاة، مـع الحـب، مـع الأشـياء الأخـرى وأنـا عـارٍ مـن الارتباطـات الماديـة، عـارٍ مـن الهاتـف النقـال الذي تخلصـت منـه، عـارٍ مـن الرغبـة الجنسـية الـتي تجعلـني حيوانًـا أليفًـا في يـد الحيـاة، عـارٍ مـن العمـل والتزاماتـه، عـارٍ مـن كل شيء إلا مـني، يسـتحيل أن أتعـرى مـني.

أختار ظل صخرة ناتئة من الحائط الصخري، أدخلها فإذا هي كهف صغير صنعته مياه الأمطار، وأحط رأسي على صخرة مستديرة دون حواشي حادة، مستسلمًا مثل أهل الكهف لغفوة نهارية هادئة، لا شيء يملأ رأسي من وجع الأيام أو ضغط الوقت، أضع رأسي الفارغ على الصخرة، وأنام، مثل أهل الكهف المطمئنين إلى أنهم لن يستيقظوا قبل عمر، أحتاج غفوة فقط، غفوة قصيرة من عمر الزمن لأحلم حلمًا صغيرًا وجميلًا، كأن أحلم بحورية البحر تخرج من بين الأمواج وترشني برذاذ الماء من شعرها المجعد الطويل، لا أريد أن أراها عارية أريد حلمًا رومنسيًّا جميلًا فقط، يمكنها أن تحدثني عن حكايات البحارة والصيادين والحوت الكبير ويونس عليه السلام، لكني لا أريدها أن تتحدث عن ثقب الأوزون وكتل الجليد في القطب المتجمد وعن نشاطات الجمعية الخيرية خلال السنة القادمة، أعرف أنها تحب ذلك، ولكني لا أريد أن أسمعها تتحدث عن الحياة.

لن ألتقط لها الصور، إن التقاط الصور يفسد اللحظة، الجمال يخزن في الذاكرة الحية، لا على الحوامل الإلكترونية، الحورية لا تحب فلاشات الآلة المصورة، وأنا كذلك لا أملك عقلية السياح الأغبياء أريد أن أعيش اللحظة تحت رذاذ الماء المرشوش بشعرها وهي ترميه إلى الوراء.

لماذا أقول إن السياح أغبياء؟ ها أنا أتجابه مرة أخرى مع الحياة، السائح يضع المرهم على ظهر زوجته ويطليه بيديه وأنا أعتبره غبيًّا، ها أنا أتشبث بالرؤية الأحادية للحياة،

وهـا هـي الحيـاة تنتـصر عـليَّ مـرة أخـرى، هـل كنـت أريـد هـذا المـكان لي وحـدي؟ إن حكمـة الصخـر تقـول بـألا أنظـر إلى السـائح كدخيـل بـل أعتـبره شـيئًا مـن هـذه الموجـودات كالريـح والنـوارس والمـوج الهـادر والحجـارة المصقولـة ورائحـة جثـت الأسـماك المتحللـة والصلطعـون عـلى الصخـور.

لقـد قـررت إذن أن أغفـو دون حلـم ودون رأي في طريقـة دهـن السـائح لظهـر زوجتـه وأردافهـا، مـن يـدري فقد يتسـلل المشـهد إلى حلمـي وأفقـد بذلـك حيـادي مـع الحيـاة الـتي اسـتقرت إلى جانـبي في تعـادل سـلبي، لا غالـب ولا مغلـوب، أضـع نظـاراتي الشمسـية السـوداء وأسـتلقي عـلى منشـفة زرقـاء ذات رسـوم الدلافـين الوديعـة الأكـثر زرقـة ودوائـر بيضـاء مختلفـة الحجـم تمثـل فقاعـات خارجـة مـن فـم الدلفـين الأصغـر، سـأغفو دون أن أشـعر بذلـك ولـو أني قـررت مـن قبـل.

إن هديـر المـوج هـو الـذي يغطـي عـلى الضجيـج في رأسي، بـل الأخـرى أنـه يدفعـه إلى الخـارج عـبر الأذنـين، الهديـر رتيـب وجميـل ويتكـرر نغمـه وليـس كالفرحـة والبقبقـة والانفجـار الـذي تحدثـه محـركاتي الداخليـة داخـل جمجمـتي.

النـورس ليـس قلقًـا مثـلي، طيرانـه يـدل عـلى ذلـك، فهـو لا يغـير اتجاهاتـه كل مـرة، بـل يسـير مـع الريـح، وينهـي حركـة جناحيـه كأنـه يرقـص، يرقـص في الهـواء كأنـه يكتـب أغنيـة عـلى جسـد الريـح، أو ربمـا يقـرأ رسـالة عـلى سـطح مـاء البحـر، ربمـا يتبـع الحـروف عـلى المـوج ليقرأهـا دون أن يهتـم للنقـط ولا علامـات الترقيـم. يصعـد، يهبـط، يـدور نصـف دورة، دورة

كاملة يتأرجح، يطير في خط مستقيم، يعاكس نورسًا آخر، يصنعان دائرتين متقاطعتين، إنه يعيش حياته ملء الأجنحة.

أنا لا أريد أن أكون نورسًا، إن الحلم الذي يسكن البشر، الطيران، لا يسكنني أنا، ولا أريد أن أعيش ملء الحياة، أريد فقط أن أستكين قربها، أعاشرها بالحسنى، برذاذ ماء على صدري العاري، العري يحدد حجمنا الحقيقي على هذه الأرض، ويعلمنا احترام الآخر، فوراء اللباس يختفي الإنسان الحقيقي، الأقمصة والتنانير والأقمشة هي التي تغذي التراتبية والفروقات وتميز إنسانًا عن إنسان وطبقة عن طبقة، ومديرًا عن عامل، وطالبًا عن أستاذه؛ لذلك كي نفهم بعضنا علينا أن نتعرى. وأنا أريد الآن أن أتعرى، على الأقل من الأفكار السوداء التي حملتني إياها الحياة، أريد أن أخلع عيني رداء السواد المظلم، ولا أرتدي شيئًا غير جلدي الطبيعي مزخرفًا برذاذ الماء المنفلت من الشعر المجعد لحورية البحر ذات العيون الزرقاء الرمادية».

كثير من الخربشات الأخرى على دفتر أسامة، كان منظمًا جدًّا إلا في كتاباته، يكتب كأنه يسعل ليتخلص من الضغط، وكانت مذكرة مواعيده حافلة بلقاءات غريبة، فليرحمه الله، فليرقد بسلام ولنقل أنه مات بعد صراع مرير مع الحياة، ما الذي كان يخطط له؟ لم كان يستعمل وسامته الذكورية ويبيعها باليورو؟ لم كان وحيدًا طيلة أيام حياته؟ أسئلة يطرحها أيور على نفسه ولا ينتظر خروج أسامة من المشرحة ليجيبه عليها، كان يردد بعد كل تنهيدة فليرحمه الله.

خربشات أخرى:

«لا، لن أستمر في العبث بنفسي، أنا لست شاذًّا، صديقتي تثق بي، لكني أحتاج مالًا، أريد أن أعيش كما يعيشون».

«مارك لا يفهم أني لا أبيع نفسي، قد أمضي معه الليل كله دون أن يلمسني، يبدو عجوزًا لكن العنف يسيطر عليه، أبيع بعض جسدي لا كله، عليه أن يفهم ذلك».

«منظم الحفل أرادني بين المدعوين ليتباهى بوسامتي بين أصدقائه، سأحضر وأشرب وأسكر ولكن الويل له إن تجرأ على القوادة لي، أو جعلهم يعتقدون أني تحت تصرف علبته الليلية».

«أكادير مدينة عاهرة، أتمنى أن تغرق في المحيط».

«قال فهد أن اسمي أسامة وأتمتع بالوسامة، كان رجلًا لطيفًا، أحبني بصدق كبير».

«ليتني كنت مثل أيور وياسين».

«كان منظري مثيرًا للشفقة وأنا أطلب من ماركو ألا يفعل، لا أريد أن أكون أنثى».

هذه الخربشات التي يقرأها ياسين وأيور توجد خارج منطق إحساسهم ولا يكادون يصدقون أو يفهمون مغزاها، لكن أكادير مدينة عاهرة حقًّا، قرر الصديقان حرق كل أوراق أسامة قبل رحيلهما، مذكراته، خربشاته على هوامش الدفاتر، مواعيده ولائحة هواتف معارفه أو بالأحرى زبائنه.

-٢٣-

رن هاتف ياسين وظهر رقم مجهول على شاشته، أجاب في غمرة ارتباكه من تسارع الأحداث وكانت كريمة على الخط، ما أن فتح الخط حتى بدأت تصرخ بأعلى صوت:

- عليك أن تفعل شيئًا، أنقذني من هذه الورطة البئيسة.

- ما بك كريمة، أنا راحل اليوم.

- لا ترحل قبل أن أراك، لنقل طواف وداع.

- لا، أفضل ألا نلتقي.

- علينا أن نلتقي.

- لا قلت لك لا.

- عليك أن تجد حلًّا، قبل أن يكبر ما في أحشائي، عليك اللعنة.

- ماذا تقولين، ما الذي في أحشائك.

- لا شيء غير أن ليلتنا لم تكن محسوبة وأنت لم تحتط لأي شيء، تحمل مسؤوليتك.

ما هي إلا دقائق حتى هجمت كريمة على البيت وهي تصرخ في وجه ياسين، وبعد انسحاب أيور قالت وهي غاضبة وشاحبة اللون كأنها خرجت من قبر:

- تريد أن تذهب وتتركني في هذه الورطة وحدي، جد حلًّا، خذني معك، سيقتلني أخي أو يدفنني حية، وأنا بنفسي أريد أن أموت، أريد أن أنتحر، هذا ابنك أنت، لا أعرف غيرك.

الدهشة والخوف وأطنان من الغضب، ياسين يريد أن يختفي من على سطح الأرض، اللعنة على إبريق الشاي الفائض، جلس إلى الأرض ومسك رأسه بين ذراعيه، دون أن ينظر إلى كريمة التي دخلت نوبة بكاء هستيري كئيب.

الفوضى ملأت البيت وقد كان الباب مفتوحًا فسمعت راضية ما حدث، فهي تحترف التجسس أمًّا عن جدة، فهمت ورطة ياسين وكريمة لذلك نزلت السلم الإسمنتي ودخلت عليهم البيت دون إذنهم، ورمت كريمة بنظرات شرزة سرعان ما تحولت إلى نظرة شفقة، كريمة فتاة آيلة للموت، تحتاج أي حائط تستند عليه، راضية التي رغم أنها لم تنجب بناتًا فهي تستطيع فهم معنى الحمل غير الشرعي، أخذتها بين يديها وحملتها لبيتها.

- سنجد حلًّا لكل شيء، عليك فقط أن تتحملي الأوجاع، سنسقط الجنين عند مُولدةٍ أعرفها جيدًا، وستتعافين بسرعة، الطيش له قواعد أيتها الحمقاء.

شعر ياسين بالثلج ينهمر عليه، نظر إلى كريمة نظرة انكسار، تمنى لو لم يعرفها قط، لو لم يلمسها أبدًا، شعر بالشفقة عليها وعلى نفسه، انسحب من المكان يبحث عن أيور الذي فضل الصمت ولم يعلق على الحدث، كان ينظر فقط بعينيه الشاردتين، حساسية المشهد لا تجسدها صورة،

الجنين روحٌ منه ومنها، لو تحدَّث لقال ذلك، فبنيته الفكرية مثالية حد الموت، فكان عليه أن يصمت فقط وينظر.

غمزت راضية ياسين بعينها اليسرى، دلالة تفهمها لوضعه، وتحكمها في الوضع، لكنه كان قد دخل دوامة من التفكير السلبي التي أسقطته في حفرة عميقة لها قرار واحد هو الاستسلام للأمر الواقع.

غادرت كريمة رفقة راضية في هدوء جنائزي، كأنها شاة مساقة للذبح، شابة في عمر الفرح تحمل في أحشائها جنين المتعة العابرة ونصف النشوة، كانت التفاحة التي قدمتها مسمومة ولكنها تناولت منها قضمة قبل الرحيل، نظراتها المستحيلة تجاة ياسين الذي يجر أذيال البؤس العميق، لم تتوقع منه شيئًا ذا بال، توقعت فقط أن يحتضنها بحنان زائد عن العادة، لكنه كان رجل الأرض الباردة، فاستكان لجلسة حارقة في الممر الضيق لبيت الطلبة، ماسكًا رأسه بين ذراعيه وضاغطًا عليه بقوة. فكرت في أمها كثيرًا، فكرت أن تلجأ إليها كما تفعل دومًا، لكنها تعلم أن الأم قد تموت من هول الصدمة لا خوفًا على ابنتها بل خوفًا من الأخ الأكبر، الذي قد يغسل الشرف بسطل الدم، فكرت في الهروب وفكرت في الانتحار، فكرت في الخروج من البيت فقط، لا يهمها أن تكون عاهرة بعد ذلك، أن تكون خادمة في البيوت، فكرت أن تعيش فقط، ولم يخطر ببالها أن تسقط الجنين، لم تعرف أن بالإمكان حجز الروح داخل الرحم الصغير لأنثى المتعة الصغيرة العابرة.

غـادر الطلبـة البيـت السـفلي للحيـاة وتوزعـوا في مسـارب الوقـت.

أيمـن يسـبح في بيـدر التـبن، ترافقـه شـقيقته الكـبرى الـتي تحـرص عـلى صحتـه، تجالسـه قـرب بيـدر الـدوار لسـاعات وهـو يتأمـل الغـروب وينتظـره منـذ العـصر، تحدثـه بالأمازيغيـة المحببـة لأذنـه، وتسـكب لـه كـؤوس الشـاي الأخـضر الصيـني أو القهـوة البلديـة بالشـيح والزعـتر الجبـلي، يسـتعيد هـدوءه شـيئًا فشـيئًا، وكي يـرى التـبن يتـذرَّى يذهـب للبيـدر خـارج الـدوار، ولا ينتظـر أن يتخيلـه.

أسـامة رحـل، رحـل فقـط في طقـس بائـس وحزيـن، لكنـه روح جميلـة لـن تـشرد طويـلًا، سـتجيب عـلى الأسـئلة الشـفوية لملائكـة الرحمـة وتدخـل الجنـة، انتهـى عـلى شـاطئ البحـر، ممرغًـا في الرمـل والبـيرة، ولـم تكـن هنـاك نـوارس لتواريـه، كان هنـاك صيـادون فقـط اسـتيقظوا باكـرًا لجمـع مـا تلقفتـه شـباكهم مـن سـمك السرديـن، فوجـدوا مذبحـة جماعيـة لحفلـة شـواذ جماعيـة. لـم يكـن هنـاك أحـد ليتسـلم شـهادته الجامعيـة حـين كان العميـد ينـادي عليـه، فقـد كان الأول عـلى الفـوج بمعـدل عـالٍ يؤهلـه لكليـات الهندسـة، ولكنـه تأهـل دون امتحـان لمدرسـة المـوت، ورحـل فقـط.

كريمـة فقـدت بريـق عينيهـا، حـل الصمـت المطبـق محـل الحركـة الطفوليـة البريئـة، تسـير كأنهـا خائفـة مـن الهـواء حولهـا، رسـبت في امتحانـات آخـر السـنة، وانكمشـت عـلى جسـدها في البيـت، تتقبـل كل السـلطات الـتي تحـد مـن حريتهـا،

تنفـذ أوامـر الأخ الأكـبر ووصايـا الأخـت الكـبرى الـتي أصبحـت تصطحبهـا للجلسـات الدينيـة، وانخرطـت معهـا في منهـاج العـدل والإحسـان، ولكنهـا ظلـت تلتهـم الروايـات الحزينـة وتبحـث عـن نفسـها بـين السـطور.

ياسـين هاجـر بعـد زواجـه مـن ابنـة خالتـه إلى فرنسـا، هـي كانـت تحتـاج رجـلًا تثـق بـه مـن أجـل المحـل في الضاحيـة الباريسـية، «ميـني ماركـت» لبيـع المـواد الاسـتهلاكية.

أما أيـور فبقـي شـاعرًا، ولـج مدرسـة المعلمـين وتعـرف عـلى فاطمـة وتلـك قصـة أخـرى...

مـا زال حنظلـة عـلى جـدار الغرفـة يديـر ظهـره للتاريـخ، قصائـد خليـل حـاوي فقـدت وهجهـا مـن شـدة الحـزن، أمـا نظـارات محمـود درويـش فمـا زالـت تلمـع، وحـين تنظـر إليهـا تسـمع دوي القصائـد، تسـمع عـلى الخصـوص: أنـا لسـت لي. تـشي جيفـارا هنـاك أيضًـا سيسـتقبل قلوبًـا جديـدة في السـنة القادمـة، قلوبًـا غضـة تـرى الحريـة شـعارًا لهـا وترتـدي الكوفيـة الفلسـطينية وتتعاطـف مـع كل مضطهـدي العالـم.

انتهت في تارودانت

صيف ٢٠٠١

ونمـت بعـد إتمـام القـراءة أو ربمـا قبـل ذلـك بقليـل، شـعرت بـأني أضـع نقطـة نهايـة لمرحلـة مـن عمـري، البيـت الـذي يعـرف ميـلاد طفـل يعـرف تغيـيرًا لمعـنى جميـع الأشـياء الـتي يحتويهـا، ومنهـا هـذا الدفـتر الـذي اكتسـب فجـأة قيمـة كبـيرة.

يا له من دفتر، ويا لها من أيام.

تسيل تسيل تسيل بين الأصابع، أتحدى من يستطيع القبض على الزمن، الأمر مخيف جدًّا؛ إذ كيف نتوقف لنتأمل؟ الصورة تفعل ولكنها أيضًا تتقادم مع الأيام، ياسين عاد من باريس التي بدأت تفقد أنوارها شيئًا فشيئًا، هاتفني وطلب مني أن نلتقي، اشتقت إليه كثيرًا، ربما غيابه جعل نقطة الرزانة والثبات تنتقل مني إليه، تبادل أدوار في آخر فراق بيننا جعلني أبدو في حاجة إليه أكثر مما كان في حاجة إليَّ خصوصًا مع بداية تخبطه في المشاكل.

كلما التقينا شخصًا عادت لنا طبائع من شخصياتنا التي كنا عليها عندما كنا معه، وقد نعود صغارًا، ونحن نحادث صديق طفولة أو مراهقين، ونحن نحادث صديقًا من أيام المدرسة ، وربما نحن نرتاح حين نلتقي شخصًا كان لنا حضنًا ذا شقاء، وقد نشقى بمصادفة شبح كرهنا عشرته والساعات التي أمضيناها معه.

واستيقظت صباحًا، وأعددت ما قد تحتاجه زوجتي لفطور صحي، وهو يوم بمعنى جديد تمامًا، الشمس لم تشرق بالطريقة العادية، أشعتها فيها شيء من ابنتي، والأرصفة تقفز فرحًا وأنا أسير عليها كأب، ودراجتي انصلحت من تلقاء نفسها.

تناولت فاطمة نصف الكمية التي أحضرتها لها، وطلبت مني الذهاب إلى مطعم مخصوص وأنتظر هناك إلى أن يعدُّوا طبق اليوم وأحضره لها، طلبها كان غريبًا وكانت تصر

عـلى أن أنتظـر طـوال فـترة إعـداده.

وزالت غرابة الطلب حين لمحت ياسين في زاوية من زواياه.

والتقينا.

كان يتحـدث بالتفصيـل عـن كل مـا حـدث منـذ آخـر مـرة التقينـا فيهـا، وقـد يعـود إلى مـا قبـل آخـر مـرة، وأنـا أعـد في ذهـني حكايـة أجعلـه يعتقـد بأنهـا مـا حـدث لي فعـلًا منـذ أن افترقنـا.

كان يتحـدث بحمـاس، لنقـل بحمـاس زائـد، ربمـا كان يتحـدث فقـط بطريقـة عاديـة ولكـن بالمقارنـة معـي أنـا الـذي كنـت تحـت مسـتوى العـادي بـدا لي متحمسًـا جـدًّا، ربمـا كان فعـلًا فرحًـا بلقائنـا، هـو فـرح بلقائنـا واضـح جـدًّا ولكـن، أنـا أسـقط عليـه أحاسـيسي البائسـة المريضـة بسـوء الطويـة.

مـع متابعتـه للـكلام واسترسـاله في تذكـري ببعـض المواقـف والذكريـات الـتي جمعتنـا، بـدأ ينجـح في كـسر حاجـز الزمـن المتكلـس بيننـا، توقـف للحظـة ربمـا حـين اكتشـف عـدم انخراطـي في حديثـه منـذ البدايـة.

توقف ليقول لي:

- توحشتك يا صاحبي.

أنـا أيضًـا توقفـت فجأة وركزت عيـني في عينيه، نظـرت إليه جيدًا مـا زال محتفظًـا ببريـق الصداقـة القديـم، مـا زال كمـا عهدتـه، نظـرت إليـه مـن جديـد، امتـلأ جسـده، غزت لحيتُـه وجنتَيـه، لقد كـبر حقًّـا، قميصـه الكلاسـيكي الأزرق، أزراره المغلقـة عنـد الكمين

وسروالـه، الثـوب الأسـود كل شيء فيـه عـادي وجميـل، توقفـت مـرة أخـرى لأنظـر إليـه في كامـل حضـوره، ماضيـه، علاقـتي بـه، الجـولات، الملاحظـات والقصائـد، الذكريـات، الحنـين، نعـم هـو الحنـين المشـترك بيننـا.

كل شيء يؤول إلى الحنين.

غـيرت نظـاراتي فجـأة فبـدا لي ياسـين نجمـة مـن النجـوم المضيئـة في حيـاتي، يـضيء المقهـى بـكل مـا يحملـه اسـمه مـن عوالـق نفسـية ومواقـف.

قلت له:

- صديقي اشتقت لك أيضًا، فقط سامحني.

عانقتـه مـن جديـد، كأني ألتقيـه لأول مـرة، رغـم مـرور نصـف سـاعة عـلى جلوسـنا بالمقهـى نحتـسي المـاضي القريـب البعيـد، عانقتـه مـن جديـد أحسسـت بـه يضـع رأسـه عـلى كتفـي بحنـان زائـد، هـل كان يطلـب الحنـان أم يعطيـه، أحسسـت للحظـة أن قـوتي تنهـار، أنـا أيضًـا في حاجـة إليـه، تمنيـت أن يضغـط عـليَّ بقـوة أكـبر، وفعلـت أنـا أيضًـا، لـوح كتفـه ممتـلئ، كان يتشـبث بي، ويقبـل كتفـي.

أغلقـت عيـوني لأشـم رائحـة صداقـة معتقـة، هـي نفـس الرائحـة الـتي تنبعـث مـن المطبـخ المشـترك بيننـا، مـن الملابـس المتبادلـة، ومـن الأحذيـة الرياضيـة الـتي نسـتعيرها مـن بعضنـا بعضًـا، صداقـة معتقـة كنبيـذ إنجليـزي دفعتـه إلى الـوراء لأرى وجهـه مـن جديـد، كان هـو ياسـين نفسـه، وأنـا كنـت متحجـرًا

في اللحظات الأولى للقائنا، عاد يحضنني من الجهة اليسرى بقوة أكبر.

يقال إن عفن القلوب وصدأ البعد وكلس المسافة يمحوه عناق حار، فبعد البحر والرمل والضباب والقطار والشمس يكون اللقاء، فأعدوا له ما استطعتم من قوة ومن عمق الإحساس، لا تختاروا الكلمات قبل الحدث دعوها تنساب بتعثر، بسلاسة، برعشة، دعوا الجسد يعبر واصمتوا وأنتم تحضنون، غيبوا وأغلقوا عيونكم واجعلوا شريط المسافات القديمة يذوب في لحظات، لا تتحدثوا عن الماضي وما فات، انظروا إلى بعضكم البعض فقط.

جلسنا لنعيد حوارنا من جديد كأن عناقنا كسر جليد سنوات من الغربة واليتم وسوء التواصل.

- نعم يا صاحبي، اشتقت إليك كثيرًا.

نحن دومًا كذلك، لا نعرف قيمة الشيء إلا حين نفقده، ياسين لم أفقده تمامًا لكنه غاب لظروف خاصة جدًّا، لم أستطع تقبلها في حينها، لم أجبه على تعليقه بالسرعة المطلوبة لأني كالعادة كان لي حواران، حوار معه وحوار مع نفسي، قلت له بعد برهة:

- أنا أيضًا اشتقت حضورك إلى جانبي، لكن أن تكون بخير يغنيني عن الشوق إليك، تصلني أخبارك متفرقة ولكني كنت أعلم أنك بخير وأنك تمضي في حياتك.

كان تبريري مقنعًا لكنه لم يكن كافيًا، هناك أشخاص

غيابهم يسبب صدمة في حياة الإنسان، أشخاص من فرط تقاطع حياتك مع حياتهم، تعتقد أنهم لن يرحلوا عنك أبدًا، وأنهم خلقوا ليرافقوك في مشوار حياتك، رحيلهم المفاجئ، غير المرغوب فيه، الصادم كحادثة سير مفجعة، يسبب لك احتباسًا عاطفيًّا، فلا تنفعل حقًّا، آنذاك تبحث عن مبررات لنفسك ولهم، وغالبًا ما تكون عبارة ظروف الحياة مشجبًا نعلق عليه تلك الحوادث الطرقية.

حين أتذكر الأيام التي تلت مباشرة ذهاب ياسين إلى فرنسا، أو انسحابه من حياتي، أشعر بالحيرة، ما كان عليَّ أن أعتبره انسحابًا؛ لأن القرار مرتبط به هو لا بي أنا، بأي حق كان عليَّ أن أمنعه؟ حينها فقط انقلبت الأدوار، فأنا الذي كنت عنوانًا ثابتًا أصبحت في هيأة طفل، أتذكر كيف عبرت له عن مشاعري آنذاك واعتبرتها خيانة عظمى لدولة صداقتنا، ولكن من وجهة نظر حقوقية لم يكن من حقي تحميله المسؤولية، كان رحيله غيابًا اضطراريًّا، جعلته بتحويل نفسي بسيط نفيًا خارج ذاتي، تخلصت منه إذن بسرعة بحركة عاطفية حين جعلته خائنًا لم يستشرني في قراره.

كم كرهت نفسي بعد ذلك، خصوصًا حين توالت اتصالاته بي، رسائله الإلكترونية التي لم أعرها اهتمامًا لاعتقادي الجازم آنذاك أنه ارتكب خطأ كبيرًا لا يغتفر، كذلك ربما تخلصت من عذاب الرحيل، الاتصالات المتكررة قبل أن يطيب الجرح، تزيد من الألم، بعد أن أعيته المحاولات، انقطع التواصل وكانت السكينة، رغم مناوشات الذاكرة وحضوره العابر في حواراتنا وجلساتنا العادية. أي صداقة هذه

الـتي تحولـت إلى ارتبـاط نفـسي، كيـف جعلتنـا ثـلاث سـنوات مـن الدراسـة روحًـا في جسـدين.

- أردت أن أحكي لك عن كل شيء قال.

- وأنـا أريـد أن أسـمع منك كل شيء، انفتحت شـهيتي للاسـتماع إليـه، كبـاب مـصروع عـن آخـره، وتمسـكت بموقعـي القديـم، المسـتمع الجيـد، وانفتـح بـاب جديـد، لـم يكـن لانفتاحـه أزيـز مزعـج، بـل كان بالعفويـة القديمـة، كأن الأمـر يتعلـق فقـط بإلقاء تحيـة عابـرة، كلي آذان صاغيـة حـتى يـدي، تصغيان إليـه، عيوني، أنفـي، صـدري، كل منطقـة مـني كانـت تصغـي إليـه. كلي آذان صاغيـة مـا أروع هـذا التعبـير البليـغ حـد المطابقـة، كلي آذان صاغيـة ... بـكل هـذا الحمـاس إذن.

ابتسـم ابتسـامة عريضـة، بـل ضحـك ضحكـة كبـيرة، ولكنـه لـم يجـد منطلقًـا لحديثـه، أعـرف هـذه الحالـة جيـدًا، حـين تكـون ذاتـك مزدحمـة بالأفـكار والأحاديـث، وقلبـك أيضًـا يكـون مكتظًّـا، فـلا تسـمح فكـرة لأختهـا بالمـرور، بـل تتسـابق الذكريات للعبـور عـبر جـسر الـكلام، كذلـك كان ياسـين وهـو يتلعثـم، محـاولًا اسـتغلال فرصـة إنصـاتي لـه، والحـق أني أرغب في سـماعه بعيـدًا عـن عتابنـا القديـم، أرغـب في سـماع سـيرته الذهنيـة عـلى الخصـوص أريـد أن أكتشـف مـا فعلتـه بـه السـنين، مـا فعلـه بـه الـزواج، مـا فعلـه بـه المـال، وخصوصًـا مـا خطَّتْـه الغربـة عـلى شـخصيته، فالغربـة كاليتـم تضـع عـلى وجـه الإنسـان طبقـة غريبـة مـن الحنـان كأنهـا سـحاب ممطـر يغطـي السـماء بالحـب والعطـف والـدفء، تضـع خطـين متوازيـين عـلى الجبـين، خـط

الحاجـة إلى صديـق عمـر بمثابـة أب، وخـط الحاجـة إلى صـدر أنـثى بمثابـة أم، وأنـا اليتيـم مـن جهـة الأب احتجـت صديقًـا أعلـق عليـه قلقـي وغربـتي، وياسـين الفاشـل في علاقتـه مـع النسـاء، كان يعتـبرني دون قصـد أمـه، خصوصًـا بعـد توتـر علاقتـه بأبيـه ومغادرتـه للـدوار.

تحـدث ياسـين عـن كل شيء، عـن عملـه، عـن زوجتـه وابنتيـه، حـكى الكثـير مـن التفاصيـل عـن أمزجـة الفتاتـين، اكتشـفت أنـه مرتبـط جـدًّا بأسرتـه الصغـيرة، لـم يفعـل الـزواج بـه إذن غـير أن جعـل منـه رجـلًا عظيمًـا.

أحببـت دومًـا ابتسـامته، أسـنانه البيضـاء المتراصـة، سـمنته الخفيفـة جعلتـه أوسـم وجعلـت ملامحه مليئـة ومتوازنـة، عينان سـوداوان تحـت حاجبـين كثيفـين، أنفـه المسـتقيم يتوسـط وجهـه المـدور الممتلئ، لمـاذا أنظـر إليـك يـا ياسـين بـكل هـذا الإعجـاب؟ تفاصيـل حياتـك تناسـب تفاصيـل ملامحـك، كل شيء فيـك مطابـق لـك، حـتى كلامـك ومعجمـك، توقيـت ابتسـامتك، تطلعـك إليَّ وانتظـارك حكايـاتي، لمسـات يـدك وقبلتـك عـلى كتفـي، اقترابـك مـني واحتضانـك المتكـرر لي، كنـت تمـرر يـدك عـلى جبيـني، كمـا في المـاضي حـين تجـدني ملقـى عـلى فـراش الحـزن والقلـق، كنـت تمسـح المائـة والإحـدى عـشر المرسـومة عـلى جبيـني، كنـت تمسـحها بإبهاميـك، تمررهمـا عـلى حاجـبي، فحاجـبي عنـوان غضـبي، وكأنـك تعلـم بالفطـرة أو بطـول المعـاشرة، أن تبعـثر شـعر الحاجبـين فـوق عيـوني الصينيـة الضيقـة مظهـر مـن مظاهـر غضـبي وتبرمـي مـن الحيـاة والفـرح، كنـت تعـدِّل حاجـبي في شـبه تدليـك أبـوي، أحببـت ذلـك.

كلما اكتشفت ياسين أكثر لمت نفسي بقوة أكبر، ولكن هذا ما يحدث لنا مع الأشخاص الذين نحبهم، ويصدمنا غيابهم الذي لا نتقبله بطريقة عادية بل نتطرف حد اعتبار الآخر خائن صداقة، بل واتهامه بتدمير الهرم وتحميله الصائر العاطفي.

وما يبنى على الاعتقاد الأول نسير عليه؛ لذلك فاللبنة الأولى والتي كانت إقصاؤه من مفكرتي هي المسؤولة عن العمارة ككل، وعن كل الكلس المترسب والصدأ المتكون والطحالب النابتة بيننا.

وكان البعد، البعد قاسيًا جدًّا، أن تفصلك مسافات كبيرة مع من تحب، فتلك قطعة من عذاب، خصوصًا إن كان عن رجل كياسين ملأ سنوات من وجودك.

أحيانًا أقول في نفسي وكما حللت فاطمة ما أحكيه لها عنه أن رد فعلي المتطرف تجاهه في الأيام الأولى لرحيله ورفضي الطفولي عدم الاستجابة لمكالماته الهاتفية مرده حركة نفسية وقائية ضد انهياري بابتعاده، كان يسهل عليَّ اعتباره صديقًا خائنًا على أن أعتبره صديقًا راحلًا، اليتم يفعل أكثر من ذلك، حين تجد ذاتًا تحضن احتياجك القديم تتشبث بها بكل قواك، وكانت فاطمة تعرف كل شيء عنه من خلال الحكي المستمر، منذ أن تزوجنا بدأت أستجمع ما في ذاكرتي من شظايا وأحكي لها كل شيء، هي الآن تعرف مع من تعيش، وراء بذلتي الرمادية هذه التي تخدع الجميع، هي لا ترى سطح المدينة بل عمق الوادي، وهي كانت تعرف أن

للصداقة عندي روافد واقعية تجعلني متشبثًا بكل ما يردني من نفحات صوفية.

أحيانًا ننكس المرايا داخلنا، فلا نستطيع النظر إلى الاتجاهات الأخرى، دون أن ندور دورة كاملة أو نصف دورة على الأقل ضد عقارب الصداقة.

الصداقة الصداقة الصداقة تعويض عن كل شيء، عن انكسار المرايا، عن يبس الورد عن احتراق الأيام، عن جفاف الأنهار، عن تساقط زهر الرمان، هي الرمان نفسه، بمفعوله المزدوج كغذاء وكدواء، كترياق مضاد لنوبات الحزن، يكفي أنه كان شجرة رمان سخية، ينبع منها نور أحمر يبعث على الاسترخاء، ياسين كان كدفء الأسوار الطينية في شتاءات تارودانت الباردة، حين يصمت كل شيء فلا تسمع غير زخات المطر وصوت ياسين يعد البيصارة بزيت الزيتون والكركم، ويغلي الشاي بدل النعناع، كل الروائح تنبعث من الذاكرة، تحضر المرايا لتعكس صورًا كثيرة كأنها ياسين صورة الصديق في إطار كبير، صورة الأب، صورة الأخ الناصح، صورة الطبيب، صورة المريض، حين يضع يده الدافئة على جبيني وأنا أهلوس بسبب ارتفاع الحرارة، هو مغرم بالأعشاب الطبية، إبريق الشاي والزعتر مرآة أخرى تعكس قلبه الكبير، وقد علمني ذلك، وكلما أحسست أنه مريض بمغص بسبب ما نتناوله دومًا من أكلات خفيفة، أعد له شايًا بالأعشاب المنوعة.

رد فعلي لم يكن سوى حركة مضادة للزمن، كما تقول

فاطمة، وقفت علاقتنا برهة ثم أعادتها لقوتها، أكيد أن ذاكرتي ستسعفني، فأنا لا أملك غيرها، هي دائمًا تسعفني وتحارب دون هوادة، لتعيد لي صور الماضي وتضع لها الإطارات المناسبة.

الكثير من الليالي القاسية كنت فيها مع ياسين في مواجهة الحياة، في مواجهة الموت، لا تنسى، أكيد أن هناك أنهر مشرقة جمعتنا، ولكن القسوة تنطبع بقوة في الذاكرة، فمواقف المساندة في حرب الألم أقوى من مشاركة نكت الفرح القليلة.

هذه الأشياء كلها لم تكن آنذاك تبدو بهذه النوستالجيا، بهذا الحنين، وهذا الثقل وهذه الحمولة، بل كانت عادية في زمن المشاركة، أما الآن وقد ابتعدنا مسافة كافية للنظر، فيبدو الأمر مختلفًا، فالإحساس الذي يخامرك وأنت تنظر إلى إبريق الشاي وأنت جائع ومتوتر ومنشغل بالدراسة ليس نفسه الذي يداعبك وأنت تتذكر أن من صنع الشاي رجل من زمن الفروسية يجلس إليك في المقهى ويحدثك عن زوجته وابنتيه.

اكتشفت فجأة أن ما قدمه لي ياسين أكثر بكثير مما قدمته له، وأني لم أقدم له شيئًا، أني لم أقدم له شيئًا يذكر، ربما لأنه كان أكبر سنًّا مني، وأني كنت أحمِّله مسئولية السنوات القليلة التي كانت تفصل عمرينا، ربما أيضا لأن تقبلي الأخوي لنصائحه، وضعنا في علاقة عمودية، كان عليه باعتبارها أن يعطي أكثر مما يأخذ.

وحـتى عندمـا قـرر الهجـرة أعطـاني فرصـة للغضـب عـلى طريقـتي.

أنظـر إليـه مـرة أخـرى بكامـل تاريخنـا أحسسـت برغبـة جامحـة في تقبيـل رأسـه، باحتضانـه بقـوة، أحسسـت برغبـة في البـكاء، في البـكاء بشـدة، لكـني لـم أفعـل، طلبـت منـه فقـط أن يضـع يـده عـلى جبينـي وأن يقـرأ سـورة الفاتحـة، فعـل مـا طلبتـه منـه دون تـردد، بـل ابتسـم ابتسـامة عريضـة، هـو لا يطـرح الكثـير مـن الأسـئلة، ولا تؤرقـه الأجوبـة الغامضـة الحائـرة.

ضـع يـدك عـلى رأسي، وامنحـني بعـض السـلام، احقـن دمـائي بأخوتـك القديمـة، وأدخـل عـلى قلـبي بعـض الفـرح، إقـرأ سـورة الفاتحـة، إقـرأ كل مـا تيسر لـك.

منـذ أن جلـس إلى جانـبي وأنـا أتفـرس في ملامحـه، أريـد أن أطلـع عـلى تفاصيـل روايتـه، ليـس فضـولًا بـل شـغفًا بحضـوره المطمـئن بجانـبي، قبـل مجيئـه لـم أكـن أعـي احتياجـي لـه، هـل يمكـن أن يحـدث هـذا مـرة أخـرى، أن أصبـح كفصيلـة الـدم الأنانيـة، آخـذ ولا أعطـي، هـل عـدت إلى إفـكي القديـم في اعتمـادي عليـه؟ الآن سـأغلق عيـوني وأتـرك يـده عـلى جبيـني يتمتـم بالذكـر الحكيـم، سـأنظر إلى داخـلي، إلى الظـلام وسأستشـعر نـور حضـوره يتسـلل إليَّ، يـا رجـلًا لعـب كل الأدوار، بحضـوره، بغيابـه، بمزاجـه الثابـت، بوقوفـه كعلامـة طريـق واضحـة الدلالـة، هـو مثـل مـاء النهـر في صفـاء روحـه وطيبـة قلبـه، صحيـح أن احتفـاظ الذاكـرة بتفاصيـل بعـض النـاس ليسـت مـن قبيـل الصدفـة، عينـاه ثابتتـان كالعـزم، متشـبثتان

باليقين، استيقظت من غفوتي وكنت سعيدًا، ابتسمت فقط، ملء روحي، ابتسمت بعمق وقلت له:

- ألا تنوي استغلال العطلة للتخلص من الكرش، من الشحم المكدس تحت جلدك؟

- أنت أنت، أنت هنا لم تغادر صدري...

لا أدري ما الذي يمنعني من البوح، لم أتعلم منه المكاشفة، هو الذي من أول وهلة يقصفك ببوحه، بنواياه، بمشاعره، ويعبر لك عن أحاسيسه، إما بلسانه أو بيديه أو باحتضانه لك، هو دائمًا يتحرك تجاهك، ليحرجك بحلاوة ما يعشش في داخله من صدق وحب، وأنا المنكمش دومًا أعبر إلى داخلي وأكتفي بابتسامة، ولكن هو لا يحتاج مني كثير كلام، فطلبي أن يضع يده على جبيني نوع من النداء لا ضرورة بعده للكلام، حركاتي من نوع الرموز التي تختزل سطورًا وسطورًا من الروايات، وتطوي مسافات ومسافات من التعبير، أريد أن أكون صغير الحجم، رقيق البدن كما في الماضي، ليسهل احتضاني، كيف سأستمتع بضمه لي وأنا بحجم برميل وكتفاي أعرض من كتفيه، هو يحتضن روحي الصغيرة داخل روحه الكبيرة، هو يقتلك بكلماته العفوية: أنت لم تغادر صدري، ما أجمل أن أكون داخل صدره لن يضيق صدره بي مهما ازداد حجمي ومهما نَمَتْ عضلاتي، مهما ارتقت رشاقتي، مهما تعلمت من فنون الحرب والانفلات.

بدون صداقة لا تستمر الحياة، الصديق بوصلة حياتك، يحمل عناوين المحطات الرئيسية في طريقك السيار، وحين

تكـون وحـدك كأي قطعـة، كأي جمـاد تشـعر بالفـزع بالتفاهـة مهمـا حاولـت إغنـاء حياتـك بأشـياء أخـرى، كالحـب والنسـاء، السـفر والترحـال، النجـاح المـادي والـترقي المهـني، فحـتى لـو تحققـت هـذه الأشـياء سـتجد في داخلـك رغبـة تدفعـك للحـكي، وسـتحتاج صديقًـا، صديقًـا قديمًـا بالـضرورة، عـاش معـك منحنيـات حياتـك، مـن نـبرة صوتـك يفهـم لغـزك ويبتسـم، يبتسـم فقـط دون ضجيـج ودون مكـر، يبتسـم بفـرح.

لا بـد مـن الحـكي، الحـكي فعـل وجـودي، والصداقـة روح الحـكي، ومرتـع القـص، فحياتـك قصـة، وحـاضرك قصـة، ومسـتقبلك قصـة لـم تقـرأ بعـد.

ياسـين رنـة مـن حـرف السـين، أفهمـك ياسـين، العقـدة ليسـت بيـني وبينـك، إنهـا بيـني وبـين نفـسي، أنـت تابعـت حياتـك عاديـة، أمـا أنـا فقـد انكمشـت عـلى جسـدي أروض القلـق داخلي كل يـوم، لا ألومـك بـل افتقـدت آنـذاك حواراتنـا تحـت الأسـوار في ليـالي تارودانـت، هـو نـوع مـن الفـراغ هاجـم وجـودي حينهـا، وثقـت بـك دومًـا وبدرجـة حساسـيتك الإنسـانية.

- ما الذي جاء بك في هذا الوقت بالضبط؟

- ألم أعاهدك على احتضان أولادك؟ جئت لأرى الأميرة.

- بعد كل هذه السنوات تتذكر عهودك؟

- العهد لا ينسى.

- من أخبرك بكل هذه التفاصيل؟

- إنهـا فاطمـة، ويبـدو أنهـا تعرفـني أكـثر مـن نفـسي، فـأرادت

أن يكـون لنـا هـذا اللقـاء.

- أسميتها ملاك. هيا نذهب للمستشفى.

- لنركب السيارة إنها أمام المقهى مباشرة.

- ودراجتي؟

في المسـاء، عـدت للبيـت وفتحـت دفـترًا جديـدًا، وبـدأت روايـة بعنـوان «الـشراد المقـدس» بطلتهـا سـيدة حيـاتي فاطمـة،

يجب أن أنسى كل شيء، الآن هنا...

هنا ملاك، هنا هواء جدير بالاستنشاق.

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككـل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كـان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing